أعمال القلوب

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري

معهد الإعداد العلمي
WWW.EADADY.COM

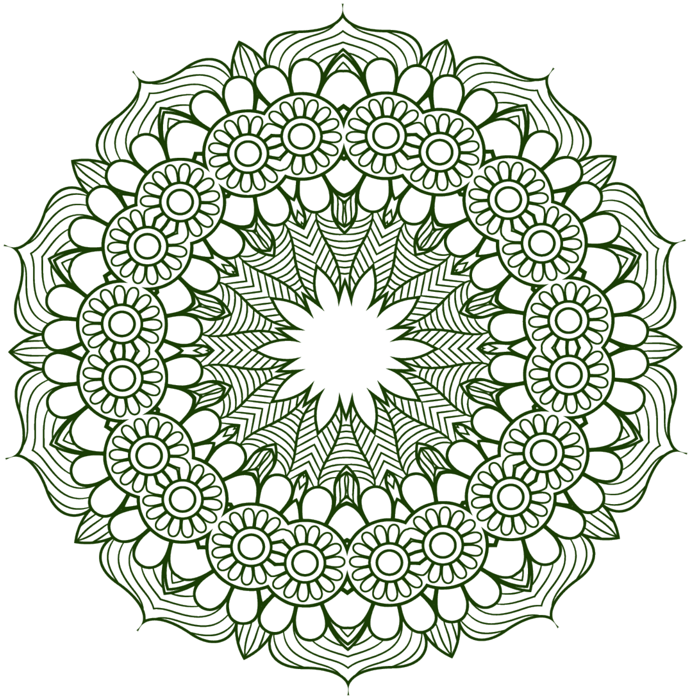

أعمال القلوب

أَعْمَالُ القُلُوبِ

تأليف

عبد العزيز بن داخل المطيري

معهد الإعداد العلمي
WWW.EADADY.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

إلا ممن أراد طباعته لتوزيعه مجاناً بشرط عدم التصرف في مضمون الكتاب

النشرة الإلكترونية الأولى

٢٦ شوال ١٤٤٣ هـ

يُدرَّس هذا الكتاب في

معهد الإعداد العلمي

WWW.EADADY.COM

Eadadycom@Gmail.com Eadadycom 0505941199

التمهيد

الحمد لله الذي هدانا بكتابه، وشرّفنا بخطابه، وأرسل إلينا خير رسله، وأنزل معه أشرف كتبه، ليعلّمنا الكتاب والحكمة ويزكّينا، ويكون لنا إماماً أميناً وهادياً مبيناً، فأدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، وأكمل الله به الدين، وأتمّ به النعمة، فكانت شريعته خير الشرائع وأحكمها، وهديه خير الهدي وأحسنه، وأصحابه خير أصحاب الأنبياء، أقومهم هدياً، وأهداهم سبيلاً.

فصلاة الله وسلامه عليه في العالمين، وعلى أصحابه المرضيين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه دروس ميسرة في أعمال القلوب اجتهدت في جمع مباحثها، وترتيب مسائلها، وتوضيح مقاصدها، رجاء أن أنتفع بها، وينتفع بها من يطالعها من إخواني وأخواتي من طلاب العلم.

وباب أعمال القلوب من أجل أبواب علم السلوك، وأعظمها نفعاً، فإنّ القلب إذا صلح صلح سائر الجسد، وانتفع صاحب العلم بعلمه، وإذا فسد القلب فسد سائر الجسد.

وأصلُ هذه الدروس مقدمات بين يدي شرح مطوّل للتحفة العراقية في الأعمال القلبية لشيخ الإسلام ابن تيمية، كنت قد شرعت فيها في شهر جمادى الأولى عام ١٤٣٣هـ، في ملتقى أهل التفسير على الشبكة العالمية، ووصلت فيها

إلى درس الخشية والإنابة، ولم يقدّر لي إكمال الشرح في تلك السنة، ولمّا رأيت هذه المقدّمات قد طالت، عزمت على فصل هذه الدروس في دورة مستقلة في أعمال القلوب، وتتميمها وتهذيبها، فتمّ ذلك في شهر ذي القعدة من عام ١٤٤٠هـ، ولله الحمد والمنة.

وكان البدء في إعادة تهذيبها وتتميها في غرّة الشهر في ذلك العام، وأتممته في الثامن والعشرين منه، بعون الله وتوفيقه.

ثم أعدت النظر في تلك الدروس مراجعة وتهذيباً وأخرجتها في كتاب في شهر رمضان المبارك من عام ١٤٤٣هـ.

وأسأل الله تعالى أن يتقبّل هذا العمل بخير ما تقبّل به أعمال عباده الصالحين، وأن يضاعف المثوبة لكلّ من قرأها ودرسها ونشرها، وأن يجعل ذلك رفعة في درجاتنا، ونوراً في بصائرنا، وسبباً مباركاً لصلاح أعمالنا ونياتنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الأول: مقدمات في علم السلوك

من مهمات ما يحتاجه طالب كل علم أن يتعرّف معالم العلم الذي يطلبه، وهذه مقدّمات موجزة في علم السلوك أرجو أن تعرّف بمعالم هذا العلم الجليل، وتبيّن فضله وشرفه، وتعرّف بأصوله وفروعه، وغايته وثمراته، وطبقات أئمته، وطرائق عناية أهل العلم به، وتنوّع التأليف فيه وغير ذلك من المباحث التي تعين على استجلاء هذا العلم العزيز.

• فضل علم السلوك:

علم السلوك من أجلّ علوم الشريعة قدراً، وأعظمها نفعاً، بل هو لبُّ العلوم وروحها، إذ هو مقصودها الأعظم، وميزانها الأقوم، وعليه مدار القبول والحرمان، والتوفيق والخذلان، والهداية والضلال.

وسائر العلوم إن لم تكن موصلة إليه، كانت وبالاً على صاحبها وحجة عليه؛ وقد دلّت النصوص من الكتاب والسنّة على جلالة شأنه، وعظيم قدره؛ فهو العلم الذي تحصل به تقوى القلوب، وزكاة النفوس، واستقامة الجوارح، وبه يُنال اليقين، والتبصّر في الدين، وبه تتبيّن حقائق الفتن، وسنن الابتلاء، وتُعرف به أمراض القلوب وسبيل شفائها، ومداواة النفوس من عللها وأدوائها.

وهو ألصق العلوم بالقلوب التي هي محلّ نظر الربّ جلّ وعلا، وبصلاحها تصلح الأعمال، ويصلح سائر الجسد، وبفسادها تفسد الأعمال، ويفسد سائر الجسد.

ولما ذكر الله الشعائر الظاهرة قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فالمقصود الذي يصل إلى الله من أعمال الناس هو ما يرتضيه من عباداتهم المنبعثة من قلوبهم تصديقاً بوعده، وتقرّباً إليه، ورغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**» **وأشار بأصابعه إلى صدره**».

وفي رواية في صحيح مسلم أيضاً: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

فالتقوى محلها القلب وأثرها على الجوارح ظاهر، وتحقيق صلاح القلب والجوارح هو مقصود علم السلوك، وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

المراد بالسلوك:

المراد بالسلوك هو سلوك الصراط المستقيم، وهو متضمن لما تحصل به الهداية للصراط المستقيم قصداً وقولاً وعملاً، وحاجة العبد إلى الهداية لسلوك الصراط المستقيم دائمة متكررة ولذلك أُمر العبد أن يسأل الله تعالى في صلاته في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

- **غاية علم السلوك:**

غاية هذا العلم بلوغ مرتبة الإحسان في عبادة الله تعالى التي هي أعلى مراتب الدين.

- **أصول علم السلوك:**

علم السلوك قائم على أصلين عظيمين:

الأصل الأول: البصائر والبينات، وهي التي يسميها بعض من كتب في علم السلوك: المعارف والحقائق، واسمها في النصوص البصائر والبيّنات، وهو اسم أشمل وأعمّ مما يذكرونه في أبواب المعارف والحقائق.

- قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤].

- وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠].

- وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧].

- وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤].

والأصل الثاني: اتبّاع الهدى، ويُعنى بالجانب العملي وهو الطاعة والامتثال، فيأتي ما يؤمر به، ويجتنب ما ينهى عنه، ويفعل ما يوعظ به.

فالأصل الأول -وهو البصائر والبينات- قائمٌ على العلمِ، ومثمِرٌ لليقين.

والأصل الثاني -وهو اتباع الهدى- قائمٌ على الإرادة والعزيمة ومثمرٌ للاستقامة والتقوى.

وعامّة ما يذكره العلماء من مسائل السلوك راجع إلى هذين الأصلين، وحاجة الناس إلى التفقّه فيهما ماسّة، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

فهذه الآية جمعت أصلي علم السلوك: البينات والهدى؛ فالناس بحاجة إلى البينات التي يعرفون بها الحقّ من الباطل، وبحاجة إلى أئمة يتّبعون الهدى فيتّبعونهم عليه.

وفي الآية وعيد شديد على كتم هذين الأصلين:

فكتم البينات يكون بعدم تبليغ ما يتميّز به الحقّ من الباطل.

وكتم الهدى يكون بعدم العمل بالعلم.

وإذا كتم العلماء العلمَ النافع الذي يبصّر الناس ويفرق لهم بين الحق والباطل، ولم يعملوا بالعلم لم يتبيّن للناس سبيل يهتدون به إلى الحقّ، فكان ضررهم على الأمّة شديداً، بل متعدّياً لأصناف كثيرة من البشر وغيرهم، ولذلك كثر اللاعنون لهذا الصنف بعد لعنة الله لهم، كما قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

والأصل الأول حجة على من خالف في الأصل الثاني؛ لأن من جاءته البيّنةُ ولم يتَّبعِ الهدى كان علمه بتلك البيّنة حجة عليه كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

• فروع علم السلوك:

السالك في الصراط المستقيم له مقصد يقصده، ومنهج يسير عليه، وله عدو يتربص به، وعوارض تعرض له، ويحتاج إلى ما يحفزه إلى المسارعة في السير، وإلى معالجة آفات نفسه، ومدافعة عدوه، وهو موعود بالثواب العظيم إن سار مهتدياً على الصراط المستقيم، ومتوعد بالعذاب الأليم إن ضل عن الصراط.

وهذا التمثيل والتبيين يعرّفك بأبواب علم السلوك الكبار التي ورد بيان أدلتها في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وروي فيها من آثار السلف الصالح وأخبارهم ووصاياهم ما يرشد السالك إلى حسن السير بإذن الله تعالى.

ومن هذه الفروع:

- أعمال القلوب.
- تزكية النفس، ويدخل فيها: محاسبة النفس ومداواة عللها ورياضتها.
- مجاهدة الشيطان.
- حفظ الجوارح.
- الترغيب والترهيب.
- الزهد والورع.
- العقوبة والابتلاء.
- الأوراد والتعويذات
- العوارض والعوائق.
- العزلة والخلطة.
- القصص والأخبار.
- الوصايا.

- الجزاء، ويدخل في ذلك الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة.
- آداب السالك.

• عناية العلماء بعلم السلوك:

لأئمة الدين من السلف الصالح ومن اتّبعهم بإحسان عناية بالغة بهذا العلم الجليل تعلّماً وترسّماً وتوصيةً وتأليفاً.

وقد تضمنت دواوين السنة المعروفة كتباً في هذا العلم الجليل منها:

- كتب الرقاق، والفتن، والدعوات في صحيح البخاري.
- وكتب الزهد والرقائق، الذكر والدعاء، والتوبة، في صحيح مسلم.
- وكتابا الدعاء والزهد في سنن ابن ماجه.
- وكتب الزهد، والبر والصلة، والأمثال، والدعوات في جامع الترمذي.
- وكتاب الاستعاذة، من سنن النسائي الصغرى.
- وكتب الرقائق، والمواعظ، وعمل اليوم والليلة، والاستعاذة من السنن الكبرى للنسائي.
- وكتب الزهد، والدعاء، والأمراء من مصنف بن أبي شيبة.
- وكتاب الرقاق من سنن الدارمي.
- وكتب الرقاق، والدعاء والذكر، والتوبة والإنابة من مستدرك الحاكم.
- وكتابا البرّ والإحسان، والرقائق من صحيح ابن حبان.

وقد أفرد جماعة من الأئمة كتباً في هذا العلم منها كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، وللمعافى بن عمران الموصلي، ووكيع بن الجراح، وأسد بن موسى، وأحمد بن حنبل، وهناد بن السري، وأبي داوود السجستاني، والخطيب البغدادي، والبيهقي له كتاب الزهد الكبير، وكتاب شعب الإيمان وهما من أجمع كتب السلوك.

ولأبي حاتم الرازي كتاب مطبوع في الزهد، وفي تحقيق نسبته إليه خلاف.

وللآجري كتاب «أدب النفوس».

وللخرائطي كتاب «اعتلال القلوب».

وكتب الزهد والرقاق وإن كان هذا الغالب على تسميتها عند السلف فموضوعاتها متنوعة في أبواب علم السلوك، وهي غير منحصرة في المعنى اللفظي لكلمتي «الزهد» و«الرقائق» أو «الرِّقَاق»، وإن كان هذا من الأثر المرجو لمن قرأها؛ فهذه الكتب تضمنت من الأحاديث والآثار، والسير والأخبار، والوصايا والمواعظ قدراً كبيراً مباركاً عظيم النفع في أبواب كثيرة من علم السلوك.

ومباحث علم السلوك كثيرة متنوعة، وهي وإن لم يحطْ بها كتابٌ من هذه الكتب المصنفة إلا أن مجموعها مشتمل على عامّة مسائل هذا العلم.

ثم كثرت التصانيف في هذا العلم وتنوعت، واختلفت مشارب مؤلفيها بحسب مكانهم من العلم والمعرفة بهذا العلم وبما يضبطه من علم الاعتقاد وعلم التفسير وعلم الحديث وغيرها.

والضعف والتقصير في أحد هذه العلوم له أثره في تلك الكتب، فمن كان مقصراً في تحقيق مسائل الاعتقاد ظهر في كتبه أغلاط بيّنه، ومنهم مَن انتحل طريقة مبتدعة في التصوف، ومنهم من غلا في ذلك غلواً كبيراً وصار له أتباع ومريدون تأثروا به فأحدث من البدع والفتن ما الله به عليم.

ومن كان مقصّراً في علم الحديث أورد في كتبه من الأخبار الواهية ما يستنكر.

لكن يبقى أجود ما كتب في هذا العلم ما كتبه الأئمة من أهل الحديث لمن كان له معرفة بالأسانيد لأن من منهم من لم يشترط الصحة فيما يخرّجه، وإنما يذكر ما روي في الباب.

طرق المحدّثين في التأليف في علم السلوك

وللمحدثين ثلاث طرائق في التأليف في هذا العلم:

الطريقة الأولى: الاقتصار على انتقاء بعض الأحاديث وبعض الآثار وتصنيفها على شرط المصنف كما في الصحيحين، وكتاب الرقائق من سنن النسائي الكبرى، وكتاب الرقاق في سنن الدارمي وكتاب الرقاق في مستدرك الحاكم.

الطريقة الثانية: جمع وصايا حكماء الزهاد والعارفين من الأنبياء السابقين والصحابة والتابعين والأئمة المعروفين؛ وترتيب الكتاب على وصاياهم وأخبارهم، وممن سلك هذه الطريقة الإمام أحمد في كتاب الزهد، وابن أبي شيبة في كتاب الزهد من مصنفه.

الطريقة الثالثة: تصنيف الكتاب على أبواب هذا العلم، ورواية ما فيه من الأحاديث والآثار والأخبار والوصايا، وممن سلك هذا الطريقة ابن المبارك في كتاب الزهد، وأسد بن موسى، وهناد بن السري وأبو بكر البيهقي.

ومن أهل العلم من أفرد بعض أبواب هذا العلم بالتصنيف كما فعل ابن أبي الدنيا وأكثر في ذلك، ولمحمد بن نصر المروزي كتاب تعظيم قدر الصلاة وقد ضمنه أبواباً في الاعتقاد وأبواباً في مسائل هذا العلم.

والمقصود هنا التعريف بعناية السلف الصالح بهذا العلم رواية ودراية ورعاية.

• طبقات أئمة علم السلوك:

هذا العلم كسائر علوم الشريعة يُتّبع فيها هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أحسن الهدي، ففي صحيح مُسلم من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضِي الله عنهما أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ يقولُ في خُطْبتِه: «أما بعدُ، فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمَّدٍ، وشرَّ الأمورِ مُحْدثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ».

ثم خير هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم ثم التابعون لهم بإحسان.

وقد برز في هذا العلم أئمة كبار في كل قرن من القرون، كما برز في التفسير مفسرون، وبرز في الحديث محدّثون، وبرز في الفقه فقهاء؛ فلهذا العلم أهله الذين عرفوا به، وسأوجز ذكر طبقاتهم لغرض التمثيل وذكر من يحضرني منهم لعل ذلك يكون سبباً في عناية الدارسين بسيرهم وأخبارهم وآثارهم، فطالب العلم يحتاج في كل علم إلى التعرف على أئمته وعلى مصادره التي ينهل منها طلابه.

وتُعْرَف إمامةُ هؤلاء بمطالعة سِيَرهم، وما عرف من أخبارهم، وما حفظ من وصاياهم، وما صنفوه من مؤلفات في هذا العلم.

فأئمة هذا العلم على طبقات:

فمن الصحابة: الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وبقية العشرة، وأمهات المؤمنين، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو ذر، وأبي بن كعب، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وتميم الداري، وأبو موسى الأشعري، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن سلام، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله وغيرهم.

ومن هؤلاء الصحابة من ورد في فضلهم ومناقبهم وإدراكهم مرتبةَ الإحسان أحاديث، ومنهم من عرف له الصحابة والتابعون فضله في هذا العلم وعنايته به قولاً وعملاً.

ومن التابعين: أويس القرني، وسعيد بن المسيب، وزين العابدين علي بن الحسين، وهرم بن حيان، والربيع بن خثيم الثوري، ومسروق بن الأجدع الهمداني، وأبو العالية الرياحي، والأسود بن يزيد النخعي، وأبو مسلم الخولاني،

وأبو إدريس الخولاني، وعامر بن عبد قيس، وأبو ميسرة الهمداني، وعمرو بن الأسود العنسي، وأمّ الدرداء الصغرى، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومسلم بن يسار البصري، وعبد الله بن محيريز الجمحي، وعمر بن عبد العزيز، وأبو قلابة الجرمي، وطاووس بن كيسان، وسالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسليمان بن يسار المدني، وعطاء بن يسار المدني، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، ومالك بن دينار، وعبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وبلال بن سعد السكوني، ومحمد بن كعب القرظي، ومنصور بن زاذان الواسطي، وأيّوب بن أبي تميمة السختياني، ويونس بن عبيد البصري، وداوود بن أبي هند البصري، ومحمد بن المنكدر، وزيد بن أسلم، وأبو حازم الأعرج، وسليمان بن طرخان التيمي، وخالد بن معدان، وصفوان بن سليم، ومحمد بن واسع، وغيرهم.

ومن أتباع التابعين: ابن أبي ذئب، وجعفر الصادق، وعمرو بن قيس الملائي، وابن جريج، وداوود بن نصير الطائي، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ومالك بن أنس، وإبراهيم بن أدهم ، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وعبد الله بن إدريس الأودي، ويحيى بن سعيد القطان، ووكيع بن الجراح، وعبد الله بن المبارك، وأبو عمرو الأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي، وعبد العزيز بن أبي حازم المدني، وأبو سليمان الداراني، وغيرهم.

وفي عصرهم: يوسف بن أسباط، وسليمان الخواص، وحذيفة المرعشي.

فهؤلاء الأئمة لهم من الفضل والتقدم والعناية بهذا العلم ما شهد لهم به أهل هذا العلم.

ومما ينبغي التفطن له أن كون الإمام مشهوداً له بالإمامة في هذا العلم لا يقتضي عصمته وبراءته من الأخطاء في قوله وعمله ووصاياه ، بل قد يقع ذلك منهم ، ويبقى موقف طالب العلم من كل قول أو عمل خالف الكتاب والسنة

الرد والتماس العذر لصاحبه ولا سيما من كان مشهوداً له بلزوم السنة.

والاجتهاد والتأويل في بعض مسائل هذا العلم حاصل كما حصل نظيره في مسائل الفقه والتفسير وغيرها، إلا أن الخلاف في هذه المسائل لدى السلف قليل، وكلامهم في هذه المسائل قليل كثير البركة.

وفي القرن الثالث: برز أئمة في هذا العلم منهم: الإمام أحمد بن حنبل، وأحمد بن أبي الحواري، وبشر الحافي، وإبراهيم الحربي، وبقي بن مخلد، وأحمد بن حرب النيسابوري، وأبو إسحاق بن هانئ، وأبو بكر بن أبي الدنيا، ويحيى بن معاذ، وسري السقطي، والحارث المحاسبي، وأبو بكر الدقاق، وسهل بن عبد الله التستري، والجنيد بن محمد ، وغيرهم.

وهؤلاء منهم أئمة معروفون بالسنة ، ومنهم من دخل عليه شيء من أغلاط الصوفية مع جلالة قدره في هذا العلم.

وتُعرف إمامة هؤلاء وسلامة اعتقادهم في الجملة بسبر أقوالهم وما عرف من أخبارهم أو بثناء الأئمة النقاد عليهم كما قال يحيى بن معين في أحمد بن أبي الحواري: (أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث)، وقال عنه أبو داوود: (ما رأيت أحداً أعلم بأخبار النُّسَّاك منه).

وقال أحمد في أبي إسحاق بن هانئ: (إن كان في البلد رجل من الأبدال، فأبو إسحاق النيسابوري) وهو الذي اختفى الإمام أحمد في داره أيام المحنة، ونحو ذلك، والكلام في الثناء على هؤلاء وأمثالهم كثير مستفيض.

ثم اتّسع الخلاف بعدهم وكثرت الفرق والطرق والاجتهادات والبدع والأغلاط والشطحات، فصار طالب العلم بحاجة ماسة إلى فقه مسائل هذا العلم بما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وبما يعرفه أئمة هذا العلم القائمون بالسنة في جميع أمورهم.

ففي القرن الرابع: ظهر جماعة منهم كأبي بكر الشبلي صاحب الإشارات، وأبو محمد المرتعش صاحب النكت، وجعفر الخلدي صاحب الحكايات، ومحمد بن إسحاق الكلاباذي صاحب كتاب التعرف على مذاهب أهل التصوف، وأبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب، وغيرهم.

وفي القرن الخامس: ظهر أبو عبد الرحمن السلمي صاحب (طبقات الصوفية) و(عيوب النفس)، وأبو إسماعيل الهروي صاحب (علل المقامات) و(منازل السائرين)، وابن العريف صاحب (محاسن المجالس)، أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة القشيرية، وأبو نعيم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء، وابن حزم الأندلسي وله (مداواة النفوس) وغيره، والبيهقي كتب فيه (كتاب الزهد الكبير)، وفي أواخر هذا القرن ظهر كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي واشتهر شهرة كبيرة، واعتنى به جماعات من أهل العلم وانتقده كثيرون.

ثم لم تزل المصنفات تتوالى والخلاف يتسع حتى اشتهر في القرن السابع مذهب الصوفية الباطنية القائلين بوحدة الوجود كابن عربي وابن سبعين الإشبيلي والعفيف التلمساني وابن الفارض وغيرهم.

وهؤلاء لهم كلام مُنكَرٌ يجعلون ظاهره التصوف والسلوك وحقيقته الكفر المبين، ولبعضهم أشعار فيها شناعات وإشارات منكرة، ومن أحسن من تصدى للرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ فألف المؤلفات في الرد عليهم وبيان شناعة بدعهم، وتبعه على ذلك بعض الأئمة كابن القيم وابن رجب، ولا تزال مصنفاتهم هي من أكثر ما يُرجع إليه في هذا العلم إلى اليوم.

وهذا العرض الموجز أردت به بيان تدرج التأليف في هذا العلم، وظهور بعض الفرق التي انتحلته واختلف فيه اختلافاً كبيراً، ليحذر طالب العلم من الاغترار بما كُتب في هذا العلم على غير سبيل السنة، وليأخذ هذا العلم عن أئمته المعروفين.

• ألقاب أئمة علم السلوك:

من المعروف أن يلقَّب العالم بالتفسير بالمفسّر، والعالم بالفقه بالفقيه، والعالم بالحديث بالمحدّث، وأما هؤلاء الأئمة فتنوعت ألقابهم بحسب ما يغلب عليهم مما يُعرف عنهم من فروع علم السلوك فيقال: الزاهد والعابد والناسك والإمام والعارف ونحو ذلك من الألقاب التي يوصفون بها، وهم لا يَتَسَمَّون بها.

• معنى الأبدال:

الأبدال هم العلماء العاملون والعباد الصالحون، يخلف بعضهم بعضاً، كلما مات منهم أحد أبدل الله الأمة غيره، ولذلك سموا بالأبدال والبدلاء.

وقد ورد في الأبدال وتعدادهم وأماكنهم أحاديث لا تصح، وأقرب ما روي فيهم أثر موقوف على علي بن أبي طالب، صححه الحاكم ووافقه الذهبي وأقرهما الألباني، وأعله بعض أهل العلم.

قال ابن القيم في المنار المنيف: (من ذلك أحاديث الأبدال والأقطاب والأغوات والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرب ما فيها: «**لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلا آخر**» ذكره أحمد ولا يصح أيضا فإنه منقطع).

وقد استعمل السلف لفظ الأبدال، ووصفوا بعض الأئمة بأنهم من الأبدال، وممن استعمل هذا اللفظ: قتادة وابن المبارك والشافعي وأحمد ويحيى بن معين والبخاري وغيرهم.

وتعدد المرويات وكثرة استعمال السلف لهذا اللفظ يدل على أن له أصلاً.

وفي التاريخ الكبير للبخاري وصحيح ابن حبان وغيرهما من حديث أبي عنبة الخولاني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته**» وقد حسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

وسئل الإمام أحمد عن الأبدال من هم؟ فقال: (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم).

قال ابن تيمية: (والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعانٍ: منها أنهم أبدال الأنبياء، ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً، ومنها أنهم أُبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات، وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر، ولا تُحصر بأهل بقعة من الأرض).

وأما ألقاب الأقطاب والأغواث والنجباء والنقباء والأوتاد فلم يستعملها السلف، وهي من إحداث الصوفية، ورووا فيها أحاديث باطلة لا تصح، ولها ترتيبات لديهم، بأعداد مقدرة ومراتب منظمة، كلها مبتدعة.

وفي بعض هذه الألقاب ما يتضمن معاني منكرة كلفظ (الغوث) فإن كان المراد به أنه يستغاث به فهذا شرك وضلال بعيد، وإن كان المراد اعتقاد أنه سبب لغوث البلاد ودعوة الناس لتعظيمه فهو غلو وتزكية ووسيلة إلى الشرك به.

الباب الثاني: بيان أصول جامعة لمسائل أعمال القلوب

طرق بيان أهمية أعمال القلوب

أعمال القلوب تتبيَّن أهميتها من طريقين: مجمل ومفصل.

فأما الطريق المجمل: فهو في بيان أصول جامعة لأعمال القلوب، وهو موضوع هذا الباب، وقد سبقت الإشارة إلى أهم ذلك في الباب السابق، وخلاصة ما سبق ذكره أن الغاية التي خلقنا الله تعالى لها هي عبادته وحده لا شريك له، وأن العبادات تنقسم إلى عبادات ظاهرة وعبادات باطنة، وأن العبادات الباطنة -التي هي أعمال القلوب -هي أصل العبادات الظاهرة؛ فكانت الأعمال القلبية هي لبُّ ما خُلقنا لأجله.

فالشأن كل الشأن هو في عبادة القلب التي إذا صحت وخلصت لله تعالى سعد العبدُ في الدنيا والآخرة.

ولصلاح عبودية القلب أصول جامعة تبيّن معالمها، وتحدد مراسمها، وتُعرَفُ بها مراتب السالكين، ومنازل السائرين، ومقامات العارفين، ويعرف بمجملها أهمية أعمال القلوب وعظم شأنها.

وسأوجز الحديث عن ذلك في هذا الباب في النقاط التالية:

١: الغاية من خلقنا هي عبادة الله وحده لا شريك له.

٢: بيان معنى العبادة.

٣: بيان الفرق بين العبادة الكونية والعبادة الشرعية.

٤: التذكير بالعهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا.

٥: بيان درجات تحقيق العبودية لله تعالى.

٦: بيان حقيقة الهدى والرشاد.

وأما الطريق المفصل: فهو بذكر أعمال القلوب من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والرغبة والرهبة وغيرها، وشرح المسائل المتعلقة بها بما يبيّن عظم شأنها وجلالة قدرها في الدين.

ودرس اليوم مهمّ في معرفة أصول البحث في مسائل أعمال القلوب، ومعرفة الميزان الذي توزن به أعمال السالكين، وتُميَّز به مراتبهم، وما يتبع ذلك من معرفة أسباب الانحراف والتقصير والغلط لدى بعض السالكين ومراتبها.

وأسأل الله تعالى لي ولكم الهدى والسداد، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما يعلمنا، وأن يزيدنا علماً ينفعنا به.

الغاية من خلقنا هي عبادة الله وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وذلك هو أصل ما أمرهم به على ألسنِ الرسل كما قال نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وإبراهيم وشعيبٌ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾.

قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال لموسى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤].

وقال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

والإسلام: هو الاستسلام لله وحده، وهو أصل عبادته وحده، وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له) اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وهذا الأصل الجليل عليه مبنى الدين، واستصحاب هذا الأصل مهم في فقه مسائل أعمال القلوب، فغاية السالك أن يحسنَ القيامَ بما خُلق لأجله.

وعمادُ ذلك أن يكون القلبُ سليماً لله تعالى متبعاً هداه مخلصاً له الدين، وعمل القلب دائم لا يتوقف، فهو ما بين استصحاب العمل واستصحاب حكمه، وكل ذلك عبادة.

وما شرع الله لعباده من شرائع الدين والأنساك التي يتنسكون بها، وما أنزل عليهم من الهدى والبينات في شؤونهم كلها كلّ ذلك داخل في عبادته جلَّ وعلا؛ فلا يخلو شأن من شؤون العبد من هدىً لله تعالى يُحِبُّ أن يتبع فيه.

وبذلك تعلم أن من اتبع هدى الله في أي أمر من الأمور فقد عبَدَ اللهَّ عز وجل بما يحبّ في ذلك الأمر.

ولا يزال العبد كذلك حتى تكون حياتُه كلها لله جل وعلا فيكون على أقوم طريقة وأحسن سبيل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

فتكون شعائره التي يتعبَّد بها خالصة لله جل وعلا، ويكون في شؤون حياته كلها وما يعترضه من الأحداث والفتن والابتلاءات وما يهمّ به متبعاً هدى الله عز وجل.

وبذلك تكون عباداته لله ومعاملاته لله، وقلبه في كل ذلك قائم بما يحبه الله من إرادة وجهه واتباع هداه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومما أثر من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: «**اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لك خالصا ولا تجعل لغيرك منه شيئا**». رواه أحمد في الزهد وأبو الشيخ الأصبهاني.

ومن تأمل ذلك تبيَّن له أن العبادة شاملة لجميع شؤون الحياة، وأن أعمال العبد وأقواله ومواقفه مما يعترضه من الفتن والابتلاءات والأحداث وما يؤمر به وما ينهى عنه، له مقصد واحد عظيم: هو عبادة الله وحده لا شريك له.

وأوَّل وصية وصَّى الله بها المكلَّفين عند بدء هذه الحياة الدنيا -لما أَهبط أبوينا إلى الأرض -هي الوصية باتباع هداه جلَّ وعلا، وقد وعد الله من اتبع هداه بوعد كريم وضمان عظيم لا يتخلف أبداً، وهذا الوعد باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وقد أكرم الله أمَّتنا بأن خصَّنا بأعظم الهدى وأحسنه؛ فأرسل إلينا خير الرسل وأكرمهم على الله، وأحسنهم هدياً وبياناً، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وأنزل معه خير الكتب وأحسنها حديثاً وأعظمها هدى وهو القرآن العظيم.

فلا جرم كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس؛ لأنَّ ما آتاها الله من الهدى والبينات هو خير ما آتى أمَّةً من الأمم.

بيان معنى العبادة

قال ابن جرير رحمه الله: (العبودية عندَ جميع العرب أصلُها الذلّة... تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذلّلته السابلة «معبَّدًا»، ومن ذلك قول طَرَفَة بن العَبْد:

تُبَـارِي عِتَاقًـا نَاجيـاتٍ وأَتْبَعـت   وَظِيفًـا وظيفًـا فــوق مَـوْرٍ مُعَبَّدِ

يعني بالمَوْر: الطريق، وبالمعبَّد: المذلَّل الموطوء.

ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب في الحوائج: معبَّد.

ومنه سمي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه.

والشواهد على ذلك -من أشعار العرب وكلامها- أكثرُ من أن تُحصى، وفيما ذكرناه كفاية لمن وُفِّق لفهمه إن شاء الله تعالى)اهـ.

وقال أبو منصور الأزهري: (ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع. ويقال طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مذلَّلا بكثرة الوطء).

ويشهد لما ذكره أبو منصور ما أنشده الخليل في العين لمن لم يسمّه:

تَعبَّـدَني نِمْـرُ بن سـعدٍ وقـد أُرى   ونمـر بن سـعدٍ لي مطيـع ومُهْطِعُ

مهطع أي: مسرع في طاعتي في ذل وخشوع، كما قاله ثعلب وغيره.

والمعنى أنه تعبَّده أي جعله كالعبد الذليل المطيع، بعدما كان له نمر مطيعاً مهطعاً.

فهذا تعريف العبادة باعتبار أصل معناها الملازم لها، واعتبار هذا المعنى مهم.

والعبادة على نوعين:

١: عبادة كونية.

٢: وعبادة شرعية.

فأما العبادة الكونية فهي عامة لجميع الخلق، كما قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

فهو سبحانه مالك الخلق جميعاً لا يخرج شيء عن ملكه وتدبيره، ولا يمتنع عنه أحد، فلا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه ولا خالق لهم إلا هو، سواء منهم من أقرَّ بذلك ومن أنكر، كلهم عبيده وتحت تصرفه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

وأما العبادة الشرعية: فلها تعريفات ذكرها بعض أهل العلم، وقد سلكوا مسالك في تعريفها: ومن أحسنها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة (العبودية).

قال رحمه الله تعالى: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).

فهذا تعريف العبادة الشرعية باعتبار ما يشمله اسمها، وهو ما شُرِعَ للعبد أن يتعبد به في شريعة الإسلام.

وقوله: (لكل ما يحبّه الله ويرضاه) قيد يُخرج العبادات الشركية والبدعية.

وقوله: (من الأعمال والأقوال) قيد يُخرج الأشخاصَ والأمكنة والأزمنة التي يحبها الله فلا توصف بأنها عبادة، لأن العبادة إنما تتعلق بما يُتعبَّدُ به مما يصدر عن العبد من قول وعمل.

وهذه الأعمال والأقوال إنما يعرف كونها عبادة بأمور:

الأمر الأول: أن يرد في النص تسميتها عبادة، وما سمّي عبادة فهو مما يحب ربُّنا أن يُعبَد به.

الأمر الثاني: أن يدل الدليل على محبة الله تعالى لقول وعمل إما بترتيب الثواب عليه، أو العقاب على تركه، أو بمدح فاعله وذم تاركه أو غير ذلك؛ فما يحبه الله ويرضاه فهو عبادة.

الأمر الثالث: أن يدل الدليل على أن الله أمر به؛ فَأَمْرُ الله به دليل على محبته أن يُعبَد به؛ فيكون بذلك عبادة.

فتعريف شيخ الإسلام للعبادة حسن بديع، وهو وصف جامع مانع للعبادات الشرعية.

وأما العبادات الشركية والبدعية فلا يشملها هذا التعريف لأن الله تعالى لا يحبها ولا يرضاها ولا يقبلها، وإن كانت داخلة في اسم العبادة لغة.

فكلُّ ما يُتقرَّب به إلى المعبود فهو عبادة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١-٢] فسمَّى ما يفعلونه عبادة.

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» رواه مسلم.

فالعبادات الشركية والبدعية وإن كان يشملها اسم العبادة لغة وحقيقة من جهة كونها صادرة عن تذلل وخضوع للمعبود، لكنها عبادات باطلة عند الله جل وعلا؛ فمن عبد اللهَ عبادةً غير خالصة له جل وعلا فهي مردودة عليه، وكذلك من عبد الله بعبادة لم يأذن الله بها فهي مردودة عليه، وإن صاحب تلك العبادة ما صاحبها مما يزعمه أصحابها من الذوق والوجد والروحانيات.

فتعريف شيخ الإسلام للعبادة تعريف بالحد الرسمي.

وتعريف ابن جرير وأبي منصور تعريف لها بالحد الحقيقي.

وقول ابن جرير: (العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة) هذا بيان لما تكون به العبادة فهي لا تكون إلا بتذلل وخضوع.

ثم يصحب ذلك في العبادات الشرعية التي أمر الله بها ثلاثة أمور:

الأمر الأول: المحبة.

والأمر الثاني: الانقياد.

والأمر الثالث: التعظيم.

فالعبادة لا تسمى عبادة حتى تجتمع فيها هذه الأمور الثلاثة:

فأما الأمر الأول وهو: المحبة العظيمة، فبيانه أن العبادة هي أعظم درجات المحبة، ولذلك لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن الناس تصل به شدة محبته لمن يعشقه إلى عبادته لما اجتمع في قلبه شدة المحبة مع الذل للمحبوب وتعظيمه والانقياد له.

قال إبراهيم الصولي:

وهان عليَّ اللوم في جنب حبها ... وقول الأعادي إنه لخليع

أصمُّ إذا نوديت باسمي وإنني ... إذا قيل لي يا عبدها لسميع

نعوذ بالله من الخذلان.

وفي معناه ما ذكره القشيري وابن العربي وغيرهما عمَّن لم يسموه:

يا قومُ قلبي عند زهرائي ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بـ(يا عبدها) ... فإنه أشرف أسمائي

فالعابد مُحِبٌّ لمعبوده أشد المحبة؛ يقدِّم محبته على محبة النفس والأهل والولد والمال، لا يهنأ إلا بذكر محبوبه، ولا يأنس إلا بفعل ما يحبه، فذكره في قلبه ولسانه، لا يكاد يكلّ ولا يملّ من ذكره، بل يأنس بذكره في كل أحيانه، ويجتهد في كسب رضاه ومحبته، حتى لو بلغ به الأمر أن يضحي بنفسه في سبيله.

وهذه المرتبة من المحبة لا يستحقها أحد غير الله عز وجل.

وسيأتي الحديث عن محبة الله تعالى وأنها أصل أعمال القلوب في الدروس القادمة بإذن الله.

الأمر الثاني: التعظيم والإجلال، فالعبادة تقتضي تعظيم المعبود أشدَّ التعظيم، وإجلاله غايةَ الإجلالِ، فالتعظيم من لوازم معنى العبادة، قال حاتم الطائي:

وعاذلة هبَّت بليل تلومني ... وقد غاب عيُّوق الثريا فعرَّدا
تقول ألا تُبقي عليك فإنني ... أرى المال عند المسِكين مُعَبَّدا

قال أبو منصور الأزهري: (أي مُعَظَّماً مخدوماً).

ومن آثار هذا التعظيم أن يعادي من يتكلم في معبوده بسوء، ولذلك ثارت ثائرة المشركين لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكفر بالطاغوت وعبادة الله وحده لا شريك له، فعادوه أشد المعاداة مع ما يعرفون من قرابته وحسن خلقه وصدقه وأمانته وصلته للرحم وغير ذلك من خصاله التي يُحبّ لأجلها.

وكذلك تجد المؤمن معظِّماً لربّه جل وعلا، ومعظماً لشعائره وحرماته كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] فتعظيم الشعائر والحرمات من آثار تعظيم المؤمن لربه جل وعلا، وإجلاله له.

وقد أمر الله بتعظيمه فقال: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١] أي عظمه تعظيماً شديداً، وقال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: تعظموه شكراً له على هدايته لكم.

وهذا التعظيم يزداد بازدياد اليقين والإيمان، ومن تأمل أسماء الله الحسنى وتأمل آثارها في الخلق والأمر تبين له من معاني عظمة الله جل جلاله ما يورثه خشية الله تعالى وتعظيم أوامره ونواهيه.

الأمر الثالث: الانقياد والخضوع، فالعابد منقاد لمعبوده خاضع له، وهذا الخضوع والانقياد المصحوب بالتذلل والمحبة والتعظيم لا يجوز صرفه لغير الله عز وجل.

وخضوع العبد لله تعالى وانقياده لطاعته هو عين سعادته، وسبيل عزته ورفعته، ومن ذلَّ لله رفعه الله وأعزَّه، ومن استكبر واستنكف أذله الله وأخزاه، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ويذلّه ويهينه.

ولذلك فإن أعظم الخلق خضوعاً لله تعالى وانقياداً لأوامره الأنبياء والملائكة والعلماء والصالحون، وهم أعظم الخلق عزة ورفعة وسعادة.

وأعظم الخلق استكباراً واستنكافاً مردة الشياطين، والطغاة والظلمة، وهم أعظم الخلق ذلاً ومهانة، وإن ظهر لهم علوٌّ في الأرض وتمكين إلى حين فإن الذلة لا تفارقهم لمن أبصر حقائق الأمور.

ومن تأمل أحوال الشياطين وأعمالهم الشريرة المهينة وأماكنهم النجسة القذرة، وأحوال أتباعهم من المجرمين والطغاة والعصاة، وعرف أخبارهم ونهاياتهم تبيَّن له الفرق الكبير بين من أكرمه الله وأعزه، ومن أذله الله وأخزاه.

قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣].

وهذه الأمور الثلاثة (المحبة والتعظيم والانقياد) مبنية على التذلل لله جل وعلا، وبها يتحقق معنى العبودية لله جل وعلا، وهي مصاحبة لسائر أعمال القلوب.

ومما ينبغي التذكير به أن العبادة تكون بالقلب واللسان والجوارح:

فعبادة القلب جامعة لأمرين:

١: الاعتقاد وهو التصديق واليقين.

٢: وعمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك من أعمال القلوب.

وعبادة اللسان هي بقول ما يحبه الله من الذكر والدعاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من الأقوال التي يحبها الله.

وعبادة الجوارح هي ما تقوم به جوارح الإنسان من أعمال التعبد كالصلاة والزكاة والصيام والحج والذبح والنذر وغيرها.

ولصحة العبادة شرطان:

أحدهما: الإخلاص لله جل وعلا.

والآخر: أن تكون على ما شرع الله عز وجل بما بينه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وبتحقيق هذين الشرطين: إخلاص العبادة لله عز وجل، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، يكون العبد من المسلمين الموعودين بدخول الجنة، ومن نقض شرطاً منهما فليس من أهل الإسلام والعياذ بالله.

فالشرط الأول هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

والشرط الثاني هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

ولا يصح إسلام عبد حتى يشهد هاتين الشهادتين بقلبه ولسانه وجوارحه.

بيان الفرق بين العبادة الكونية والعبادة الشرعية

العبادة على نوعين عبادة كونية متعلقة بالربوبية، وعبادة شرعية متعلقة بالألوهية.

فأما العبادة المتعلقة بالربوبية فهي عامة لجميع الخلق لا يخرج منهم أحد عنها كما قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣-٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

فهذه العبادة الكونية لا يخرج منها برٌّ ولا فاجر.

وأما العبادة الشرعية فهي الفارقة بين المسلمين والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، وهي إخلاص العبادة لله جل وعلا واتّباع شرعه بامتثال أمره واجتناب نهيه.

فالعبادة المتعلقة بالربوبية من الإقرار بخلق الله تعالى وملكه وتدبيره وشهود الفقر إلى الله تعالى، لا تفرق بين المؤمن والكافر، ولا بين أهل الجنة والنار، لأن العبد قد يعرف ذلك ويعبد غير الله كما فعل المشركون.

فشهود مشهد الربوبية لا يدخل العبد في الإسلام ولا يقتضي الإخلاص في العبادة، وإن كان حجة في وجوبه، والوجوب لا يقتضي الأداء في حقيقة الأمر، وقد أقرّ المشركون بربوبية الله تعالى، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

فهم كانوا يقرون بوجود الله تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر لأمورهم ومع هذا لم يدخلوا في دين الإسلام لأنهم لم يتقوا الله تعالى ولم يفردوه بالعبادة، والتوحيد هو أصل التقوى.

فالمعرفة التي لا يترتب عليها امتثال الأمر حجة على صاحبها وعذاب عليه، وهي من شأن أهل الجحود والاستكبار والإعراض، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

والمخالفون في العبودية الشرعية على درجتين:

الدرجة الأولى: المشركون الذين لم يُخلصوا العبادة لله تعالى، فلم يمتثلوا أمره في أعظم ما أمر به وهو التوحيد، وهؤلاء مشركون كفار خارجون عن دين الإسلام.

الدرجة الثانية: طوائف من أهل البدع والضلالات الذين غلَّبوا جانب التعبدِ لله بالتفكر في أفعاله وخلقه حتى ضيعوا بعض الفرائض وارتكبوا بعض المحرمات، كما هو مشتهر عن بعض المتصوفة، بل بعض غلاة المتصوفة قد يصل بهم الأمر إلى تضييع الأوامر جملةً حتى يخرجوا من دين الإسلام والعياذ بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمن وقف عند هذه الحقيقة [أي: حقيقة الربوبية] وعند شهودها ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار؛ فإن ظن مع ذلك أنه من خواصّ أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشر أهل الكفر والإلحاد)ا.هـ.

فهؤلاء الذين زعموا أنهم وصلوا إلى درجة اليقين وأن التكاليف قد سقطت عنهم كفار مرتدون خارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله.

فالمقصود من خلق الناس أن يقوموا بواجب العبودية لله تعالى ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه ويرجوا رحمته ويخافوا عذابه فمن فعل ذلك فهو من المتقين.

وإنَّ من مداخل الشيطان على الإنسان أن يصرف همته عن امتثال أمر الله جل وعلا والقيام بالفرائض واجتناب الحرمات إلى التفكر فيما يثبت به وحدانية الله

تعالى في ربوبيته، وأنه هو الخالق الرازق المدبر للأمر، ويظنُّ أنه إذا أتى بهذا الأمر فقد أبلى بلاء حسنا يعفى به عن تقصيره وتفريطه في أداء الفرائض.

ولذلك تجد بعض من خُدع بهذه الخديعة الشيطانية من المسلمين يعظِّم بحوث الذين يعلمون ظاهراً من القول من الكفار الذين لهم تخصص في بعض علوم الطبيعة، ولا سيما ما يُثبتون به شيئاً من آثار ربوبية الله تعالى وسعة علمه وحكمته وتدبيره، ويظل يتتبعها ويفني وقته وجهده في التنقيب عنها، بل ربما زاد بعضهم عليها بعض المبالغات والأكاذيب والتهويلات والتلفيقات ليَخرجوا للناس بما يزعمون أنهم لم يُسبقوا إليه في دلائل إثبات وحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وتدبيره، وهذا خطأ ينبغي التنبيه عليه.

ولا خلاف في أن المؤمن مأمور بالتفكر في آيات الله ومخلوقاته بما يحمله على التقوى وامتثال الأمر واجتناب النهي والازدياد من اليقين، أما إذا كان تفكره للتعجب والتأمل المجرد الذي لا ينبني عليه عمل فلا يمتثل الأمر ولا يجتنب النهي فتفكره حجّة عليه وعذاب عليه -والعياذ بالله - وإنْ صاحَبه إقرار بوحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وتدبيره.

التذكير بالعهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا

مَن شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله فقد عاهد الله أن يخلِص العبادة له وحده، وأنّ يتّبع رسوله صلى الله عليه وسلم، وبهذا العهد يدخل العبد في دين الإسلام، وقد علمتَ معنى العبادة فيما سبق من الشرح والبيان.

فإذا شهدتَ أن لا إله إلا الله فاعلم أنك قد عاهدت الله أن تحبه المحبة بأعلى درجات المحبة، وأن تعظّمه بأعلى درجات التعظيم، وأن تخضع له وتنقاد لأمره.

ولذلك كانت (لا إله إلا الله) أعظم الحسنات، وأعلى شعب الإيمان، ومفتاح الجنة، وأفضل الذكر، ومن كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة.

وهذا العهد العظيم جزاء من وفَّى به أن يدخله الله الجنة، ومن خان هذا العهد ونقضه أدخله الله النار.

فهذا العهد الذي بين العبد وربه بالتوحيد وإخلاص العبادة له هو أعظم العهود، وأعظم الأمانات، وجزاؤه وثوابه أعظم الجزاء والثواب، وعقاب نقضه ونكثه أعظم العقاب.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس: ٦١-٦٤].

وكل عبادة لغير الله تعالى فهي عبادة للشيطان لأنها طاعة له في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، وأعظم ما حرم الله تعالى هو الشرك، سواء أَشَعَرَ الإنسانُ أنه يعبد الشيطان أم لم يشعر.

فالعهد الذي بين العبد وربه هو أعظم العهود وهو معقد الامتحان ومناط الفوز والخسران، والشيطان أحرص ما يكون على أن ينقض العبد هذا العهد الذي بينه وبين ربه.

وكل منفعة أو لذة دنيوية يحصلها العبد بسبب نقضه لهذا العهد فهو ثمن قليل زائل ولو أُعطي الدنيا بحذافيرها؛ فإنها لا تساوي شيئاً في جنب ما أعده الله لعباده المؤمنين، ولا تستحق مكابدة العذاب الأليم المقيم في نار جهنم والعياذ بالله.

فكيف وهو لا يعطى من الدنيا إلا ما قدر له، ومع هذا فمتاع الدنيا كثير النكد سريع الزوال.

وقد حذَّر الله عبادَه من نقض هذا العهد، ورغَّبهم في الوفاء به أحسن الترغيب؛ فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ
طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٥-٩٧].

فضمن الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات أعظم الثواب في الدنيا والآخرة ففي الدنيا لهم الحياة الطيبة التي لا أفضل منها، وفي الآخرة يجزيهم الله أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفي الصحيحين من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ رِدْفَ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- على حمار يقال له: عُفَير، فقال: «**يا معاذ، هل تدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقُّ العباد على الله؟**».

قلتُ: الله ورسوله أعلم.

قال: «**فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحقُّ العباد على الله: أن لا يعذِّب مَن لا يشرِك به شيئا**».

فقلتُ: يا رسول الله: أفلا أبشِّرُ الناس، قال: «**لا تبشِّرْهم فيتَّكِلُوا**».

وفي رواية: «**فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّما**».

تأثماً: أي تحرجاً من الإثم بكتمان العلم.

فشأن هذا العهد عظيم، ولذلك شُرِعَ للعبد أن يجدده في اليوم والليلة مراراً حتى لا ينساه ولا يغفل عنه.

فيكُرَّرَ في الأذان للصلوات الخمس في جميع الأوقات في الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويكرر في الإقامة عند الحضور للصلاة واجتماع المصلين.

ويكرره العبد في صلواته فلا تصح صلاة بلا تشهّد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم أصحابه التشهد في الصلاة كما يعلّمهم السورة من القرآن.

وهذا العهد تضمنه سيد الاستغفار الذي يستحب للعبد أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى ورُتِّبَ على قوله الثواب العظيم، كما في صحيح البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، اغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ».

قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».

ولذلك كان الشيطان حريصاً على أن لا يفيَ العبد بهذا العهد، فهو يوسوس له، ويمنيه، ويثبطه عن الوفاء بهذا العهد العظيم، ويزين له الذنوب والمعاصي التي يقدح فعلها في الوفاء بهذا العهد العظيم، ولا يزال حريصاً على أن ينقض العبد هذا العهد الذي بينه وبين الله نقضاً تاماً، فينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل؛ فيرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام ينقض به هذا العهد فيموت العبد كافراً والعياذ بالله.

فهذه غاية الشيطان التي أقسم عليها كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

فمن حقق العبودية لله تعالى لم يكن للشيطان عليه سلطان.

ومعنى لأحتنكن: أي لأستولين عليهم ولأقودنهم إلى المعاصي كما يقود الرجل دابته فيلقي على حنكها حبلاً يحتنكها به ويقودها به إلى حيث يشاء.

بيان درجات تحقيق العبودية لله تعالى

- **إذا تبين ما سبق فاعلم أن تحقيق العبودية لله تعالى على ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: الإتيان بأصل العبودية لله تعالى، وهو ما يبقى به المرء مسلماً، فيعبد الله وحده لا شريك له، ويجتنب عبادة غير الله جل وعلا، ويأتي من الفرائض ويجتنب من النواقض ما يبقى به إسلامه؛ فهذه مرتبة الإسلام.

الدرجة الثانية: تحقيق القدر الواجب من العبادة؛ بفعل الواجبات واجتناب المحرمات، وهذه مرتبة الإيمان، وهي درجة المتقين.

الدرجة الثالثة: تحقيق الكمال المستحب في العبادة، وهذه مرتبة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وكل درجة من هذه الدرجات يتفاضل المسلمون فيها تفاضلاً كبيراً لا يحصيهم إلا من خلقهم.

أما من أشرك بالله تعالى فليس من أهل عبودية الله، وإنما هو من عباد الشيطان كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

فأصحاب الدرجة الأولى مسلمون موعودون بدخول الجنة وإن عذبوا قبل ذلك على بعض ما اقترفوه من الذنوب؛ فما معهم من التوحيد والإسلام مانع من الخلود في النار، وفي هذه الطبقة يكون أهل الكبائر من المسلمين.

فهؤلاء لديهم أصل العبودية لله تعالى وأصل تقوى الله ومحبته وخوفه وتعظيمه لأنهم اجتنبوا الشرك الأكبر واجتنبوا ارتكاب ما ينقض الإسلام فهم متقون بهذا الاعتبار، وإن كان إيمانهم ناقصاً بسبب ما ارتكبوه من الذنوب.

قال محمد بن نصر المروزي في أهل هذا الصنف: (قد أجمع المسلمون أن فيه أصل التقى والوَرَع، وذلك أنه يتقي أن يكفر أو يشرك بالله شيئاً، وكذلك يتقي الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة).

وأصحاب الدرجة الثانية هم المتقون الذين يجتنبون المحرمات ويؤدون الفرائض؛ فيؤدون حقوق العبادة الواجبة ويجتنبون الشرك الأصغر من الرياء وتعلق القلب بغير الله تعالى كالتعلق بالمال والرياسة والأشخاص وغير ذلك مما يقدح في تحقيق القدر الواجب من العبودية لله تعالى.

ومن تعلق شيئاً دون الله وكل إليه، ومن أحب شيئاً من دون الله حتى يعصي اللهَ بسببه عُذِّبَ به.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعِسَ عَبدُ الدِّينار وعَبدُ الدرهم وعبد الخميصة إن أُعْطي رضِي وإن لم يُعطَ سخط تعِسَ وانتكَس وإذا شيك فلا انتقش».

وهذا دعاء عليه من النبي صلى الله عليه وسلم بالتعاسة والانتكاسة، فكلما قام من سقطة وقع في أخرى، وإذا أصيب ببلاء لم يهتد للخروج منه، وسبب ذلك عبوديته للدنيا، وغفلته عن الله جل وعلا.

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم الضابط في ذلك فقال: «إذا أعطِي منها رضي وإن لم يُعط سَخط».

فإذا كانت همَّة العبد للدنيا إن أعطي منها رضي، وإن لم يُعْطَ ظلَّ ساخطاً على قضاء الله وقدره متبرماً منه لم يكن قلبه سليماً لله جل وعلا بل فيه عبودية لغير الله.

وهذا من شأن المنافقين كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

ومن كان هذا حاله فهو لم يحقق العبودية الواجبة لله تعالى.

وهذا أمر تُشاهَد آثاره فيمن تعلق قلبه بمال أو رئاسة أو شخص يحبه حتى يعصي الله لأجله؛ فيكون في قلبه رقٌّ لما أحبه وتعلق به وعصى الله لأجله.

قال ابن تيمية: (كلُّ من علَّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأمورهم متصرفاً بهم؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلَّق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبُه أسيراً لها، تَحَكَّم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيّدها لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولا سيما إذا علمت بفقرِه إليها وعِشْقِه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإنَّ أَسْرَ القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استُعبد بدنه واسترق وأُسِرَ لا يبالي إذا كان قلبه مستريحا من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص.

وأما إذا كان القلب الذي هو مَلِكُ الجسم رقيقاً مستعبَدا متيماً لغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب).

قال: (وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبَه صورة مباحة؛ فأما من استعبد قلبَه صورةٌ محرمةٌ امرأة أو صبي فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

وهؤلاء عشاق الصور، من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها مستعبَداً لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى؛ فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه).

قال: (ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفاً من مكروه؛ فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر. قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤])ا.هـ.

وإذا كان القلب أسيراً لشيء من هذه المحبوبات لم يكن خالصاً لله جل وعلا، ولم يأت صاحبه بالعبودية الواجبة.

بل يكون في قلبه ذلٌّ لها مصحوب بخوف ورجاء وهذا هو معنى العبادة التي يجب إخلاصها لله جل وعلا، ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبداً للمال، وإن كانت هذه العبودية ليست تامة بحيث تفضي به إلى الشرك الأكبر إلا من بلغت به عبوديته للدنيا أن يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام لأجلها والعياذ بالله.

وهذا يختلف عن الذل الذي أمر الله به ومدحه كما في قوله تعالى في شأن الوالدين: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهذه ذلة مصحوبة بالرحمة وقصد الإحسان إلى المتذلل له؛ فهو محسن إليه بهذا التذلل، فليس فيه ما يقدح في العبودية لله جل وعلا، بخلاف عبودية الدنيا المحرمة فإنها ذلٌّ في القلب مصحوب بخوف ورجاء مع غفلة القلب عن الله جل وعلا.

والله تعالى قد جعل من ابتلائه لعباده أن يحوجهم إلى ما تقوم به مصالحهم من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها.

وهذا الأمور التي أحوج الله عباده إليها أمرهم أن يطلبوها منه جل وعلا، وأن يرضوا بما يعطيهم منها، وأن يتبعوا هداه في ابتغائها بما أذن فيه من الأسباب.

فما أعطاهم منها رضوا به وشكروا نعمة الله عليهم به، وما مُنعوه صبروا على فقده ورجوا ثواب ربهم وحسن عِوَضه.

ومن كان هذا حاله أُعطي خيراً مما حُرم، وبُرك له فيما أعطي، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي العلاء بن الشخير قال: حدثني أحد بني سُليم، ولا أحسبه إلا قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أن الله يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله له، بارك الله له فيه، ووسعه، ومن لم يرض لم يبارك له**».

ولذلك يجد أهل اليقين وحسن المعرفة بالله سكينة في نفوسهم، وطمأنينة في قلوبهم، وبركة فيما أُعطوا، مع معافاتهم من كثير من الآفات التي يُبتلى بها من يتعلّق بالأسباب، ومن لم يرض ما قسم الله له.

ولا يشقى مع الله أحد اتبع رضوانه، وكثيراً ما تحب النفس شيئاً وهو شرٌّ لها، فإذا حُرِم العبد شيئاً مما يُحبّ فليحسن ظنه بربه فلعلَّ في هذا المحبوب الذي حُرِمَهُ شراً لا يعلمه، والله تعالى لا يرضى لعبده المؤمن المتبع لرضوانه إلا بما هو خير له.

قال الله تعالى على لسان خليله إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: ١٧].

قوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص والحصر، فهو في معنى: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

والرزق يشمل جميع ما يحتاجه العبد مما تقوم به مصالحه من المطعم والمشرب والملبس والمنكح والأهل والولد والأموال والمعرفة بما ينفعه وغيرها.

والإنسان محتاج إلى الرزق؛ مأمور بطلبه بالأسباب المشروعة، وأما تعلق القلب فيجب أن يكون بالله تعالى وحده.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**المؤمِن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله مِن المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرص على ما ينفعك، واستعِن بالله ولا تعجَز وإن أصابك شيء فلا تقُل لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

فهذا الحديث العظيم يبين للمؤمن منهجه في طلب الرزق والأخذ بأسباب القوة.

- «**المؤمِن القويّ خير وأحبّ إلى الله مِن المؤمِن الضعيف**» وصف القوي في الحديث يشمل جميع معاني القوة وأولها قوة الإيمان بالله تعالى وقوة الإخلاص وقوة العزيمة على فعل الخير، وكل مؤمن كان قوياً في أمرٍ من الأمور وشكرَ الله تعالى على هذه القوة؛ فهو خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف في ذلك الأمر.

وهذا يشمل جميع معاني القوة من قوة البدن والعلم والمال والجاه وغيرها.

- «**وفي كلٍّ خَير**» لأن المؤمن ولو كان فيه ضعف فأصل الخير فيه لإيمانه، وهذا فيه تنبيه للقوي على ألا يزدري الضعيف.

- «**احرِص على ما ينفعك**» هذا فيه الحث على الاجتهاد في بذل الأسباب، و«**ما ينفعك**» عام في أمور الدين والدنيا؛ فكل ما ينفع المؤمن فهو مطالب بالحرص عليه، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع.

فمن زعم أنه متوكل على الله وأن قلبه لا يتعلق بغيره وهو لا يبذل الأسباب المشروعة لطلب الرزق وما يحتاج إليه من أمور الدنيا فهو كاذب، والامتحان يكشف يكذبه، فإنه إذا احتاج انكشف تعلّق قلبه.

- «واستعِن بالله» فإن العبد لا يدرك شيئاً من الخير إلا بعون الله تعالى وتوفيقه، وهذه الاستعانة تعلِّق قلبه بالله وتدفع عنه التعلق بالأسباب.

- «ولا تعجَز» العجز هو القعود عن بذل الأسباب مع إمكانها.

- «وإن أصابك شيء فلا تقل لوْ أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل» وهذا حال المؤمن حين يصيبه ما يكره من مصيبة بفقد ما يحب أو فوات ما يطلب من الخير؛ وإذا بذل الأسباب ولم يحصل له مطلوبه فليحسن الظن بالله وليرض بقضائه وليرج ثوابه فيما أصابه.

والمؤمن إذا اجتمع في قلبه حسن الظن بالله والرضى بقضائه علم أن ما تطلبه نفسه لن يفوتها؛ فهو إما أن يعجل لها فتهنأ به، وإما أن يؤخر لها أو تعوض خيراً منه وإذا أخَّر الله لعبده المؤمن تحقيق ما يطلب فليعلم أن هذا التأخير خير له، لأن الله تعالى يختار لعبده فيأتيه حين يأتيه وهو على حال أكمل وأفضل.

فمن طلب التعطّر وثوبه متسخ كان إلى تنظيف ثوبه أحوج منه إلى ما طلب من الطيب، فلو أُخّر عنه الطيب حتى ينقى ثوبه مما به حتى يأخذه وهو على حال النظافة والنقاء لكان ذلك أجمل في حقه وأكمل.

فإذا أُخّرَ عنك شيء من الخير فاعمد إلى تطهير قلبك.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].

وهذه الآية وإن كانت في الطهارة الحسية إلا أنّ لها دلالة معتبرة على الطهارة المعنوية التي هي أعظم قدراً من الطهارة الحسية.

فما يصيب المؤمن مما يكره لا يريد الله به أن يوقعه في حرج، ولكن يريد أن يطهّره؛ فالقلب محلّ نظر الله جلّ وعلا، وإذا أحبّ الله عبدا ابتلاه ليطهّر قلبه، وطهارة القلب معنى عام يشمل طهارته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن النفاق، ومن التعلق بغير الله جلّ وعلا، ومن سوء الظنّ به، ومن ضعف اليقين، ومن خصال الوهن والخور، والعجب والكبر، واليأس والقنوط، وغيرها.

ولذلك قد يُبتلى المؤمن ببلاء فيُفتح له في الدعاء والالتجاء إلى الله، والاضطرار إليه، وتطهير القلب من التعلق بغيره، ما هو أعظم نفعاً له من إعطائه سؤاله، لأن بركة ما يُعطى بهذه الطهارة من الرفعة في الدين، ومحبة الله، ورضوانه، وفضله العظيم، وثوابه الكريم، خير له من عين مسألته التي تأخرت عليه، وربما لو أعطيها حين سألها لغفل عن شكرها، وابتلي بآفات لا يصبر عليها.

فإن من ضعف يقينه بالله ولم يتبع هداه قد يشقى بمطلوبه وإن تحقق له، ويكون فتنة له.

والمقصود أن المؤمن المتقي محقق لدرجة العبودية الواجبة لله تعالى فإن أعطاه الله قبل ورضي وشكر، وإن ابتلي بتأخير ما يطلب لم يحمله ذلك على التسخط والجزع والتبرم من قضاء الله وقدره كما يفعل أهل النفاق.

وههنا قاعدة مهمة فيما يبتلى به المؤمن ينبغي أن نتفطن لها ونفقه معناها: فإن **كل بلاء يُبتلى به المؤمن يصاحبه أمران:**

الأمر الأول: بيان الهدى من الله فيما يجب على العبد أن يتقيه ويتجنَّبه، وما يحبه الله لعبده وينجيه به مما يخاف منه.

وذلك أن العبد إذا ابتلي كان معرّضاً لفعل الصواب والخطأ؛ فإن أصاب فهو مهتدٍ، وإن أخطأ فقد ضل.

وتختلف درجة الضلال بحسب درجة المخالفة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥].

قال الشافعي رحمه الله: (فليست تنزل في أحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها).

الأمر الثاني: اللطف والتيسير، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥-٦]، ولن يغلب عسر يسرين، وأول التيسير أن يعلم أنه لا ينزل بعبد مؤمن بلاء إلا كان بعده فرج؛ فهذا اليقين المعتمد على حسن الظن بالله جل وعلا والتصديق بوعده ورجائه عبادة عظيمة من أجل العبادات، وهو في هذا يدافع وساوس الشيطان وما يلقيه في نفسه من الخواطر الرديئة والتيئيس من رحمة الله والتشكيك في صدق وعده؛ فيكون المؤمن في حال ابتلائه مجاهداً صابراً راجياً ربه جل وعلا.

وقد روى الإمام مالك في الموطأ وابن أبي شيبة في مصنفه وابن جرير في تفسيره وغيرهم عن زيد بن أسلم أنه قال: كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب: «**أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]».

وقال الشاعر:

وكل شديدة نزلت بحي … سيأتي بعد شدتها رخاء

ومن تأمل أوجه اللطف فيما يتعرض له من البلاء علم حقيقة هذا الأمر.

وبهذا يعلم المؤمن أن كل قضاء يقضيه الله له فهو خير له، وليس ذلك إلا للمؤمن والله تعالى عليم حكيم في قضائه وقدره وتدبيره.

وفي صحيح مسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**».

وتأملوا قول الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] ولم يقل (علينا) وفي هذا دليل على أن كل ما يصيب المؤمن فهو له وليس عليه، وذلك إذا اتبع هدى الله.

أما إذا خالف هدى الله فإنه يستحق من العقوبة بقدر ما خالف وضعف إيمانه.

وبذلك يعلم المؤمن أن كماله وهدايته وأنسه وأمنه إنما هو في اتباع هدى الله جل وعلا فإنه حينئذ يكون ولياً من أولياء الله فيتولى الله أموره ويرشده إلى ما ينفعه ويوفقه لفضله العظيم كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وإنما أطلت بعض الإطالة في شرح هذا العنصر لأن الحاجة تدعو إلى بيانه، ونحن محتاجون إلى تحقيق العبودية الواجبة لله تعالى، ودعوة الناس إلى ذلك، مع ما يعترضنا من عوارض الحياة، وقد رتب على تحقيق هذه العبودية الثواب العظيم.

الدرجة الثالثة: تحقيق الكمال المستحب في العبادة، وهذه مرتبة الإحسان التي هي غاية السالكين، وهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذا يحملك على أن يكون حبك لله ولما يحبه الله، وبغضك لما يبغضه الله ولما يبعدك عن الله، وينبني على ذلك تعظيم ما عظمه الله، وتحقير ما حقره الله.

وفي سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**مَن أحبَّ لله وأبغَض لله وأعْطَى لله ومنَعَ لله فقد اسْتكمَلَ الإيمان**».

والعطاء والمنع في الحديث لا يختص بالمال بل هو عام في كل ما يُعطى ويمنعُ من مال وعلم وجاه وجهد ووقت، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

فمن كان يحب لأجل الله، ويبغض لأجل الله، ويعطي ويمنع لأجل الله فهو مؤمن كامل الإيمان، نسأل الله من فضله.

ومن كان هذا حاله فقد أسلم قصده لله تعالى واستمسك بالعروة الوثقى التي لا أوثق منها

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢].

﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: يقال: عروة وثيقة، إذا كانت قوية مأمونة؛ قد جمعت بين القوة والأمان بحيث يوثق بها ويُطمئَنُّ إليها.

ويقال: عروة أوثق من عروة؛ على التفاضل في صفتي القوة والأمان.

والعروة «الوُثقى» هي التي بلغت الغاية في القوة والأمان فلا أوثق منها.

فإذا كانت العروة وثقى، والاستمساك جيداً نجا المستمسك بهذه العروة من الهلاك.

بيان حقيقة الهدى والرشاد

من الأصول المهمة في أعمال القلوب معرفة حقيقة الهدى والرشاد، وهما راجعان إلى العلم والعمل.

فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وهذا يبين أن السالك يحتاج إلى علم وإرادة؛ فإذا كان علمه صحيحاً وإرادته جازمة سلك سبيل الرشاد بإذن الله.

وكلما كان العبد أكثر علماً بما يحبه الله ويرضاه وأصدق إرادةً للعمل به كان أعلى مقاماً، ولذلك زكَّى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢]؛ فالعلم النافع عصمة من الضلال، والعمل بالحق عصمة من الغواية.

وفي هذه المسألة أفرد ابن القيم رحمه الله كتابه الجليل (مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة).

والآفات التي تعرض للسالكين إذا كانت في معرفة الهدى أورثت ضلالاً وبدعة ومخالفة للسنة.

وإذا كانت في العزيمة أورثت تفريطاً وعجزاً وفتوراً.

فقد يكون لدى العبد ضعف في أحد الأمرين أو كليهما، وكل ضعف أو نقص فيهما له تأثيره على حال السالك، ولذلك ينبغي لنا أن نعتني بتكميل هذين المقامين بما نستطيع؛ فنتعلم من العلم النافع ما نرفع به الجهل عن أنفسنا وعن أمتنا، ونتعرَّف ما أصابنا من أدواء وعلل ونجتهد في إصلاحها، ونتعرف أسبابَ رضوان الله تعالى والفوز بفضله العظيم في الدنيا والآخرة.

ويكون لدينا من الإرادة الجازمة والعزيمة الصادقة ما يحملنا على فعل ما يكملنا والصبر عليه.

ومن جوامع الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه عنه شداد بن أوس بن ثابت رضي الله عنهما أنه قال له: «**يا شداد بن أوسٍ! إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة، فاكنز هؤلاء الكلمات:**

اللّهم! إني أسألك الثبات في الأمرِ، والعزيمة على الرُّشد، وأسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتِك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذُ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرُك لما تعلمُ؛ إنك أنت علامُ الغيوب». والحديث صحح الألباني

في السلسلة الصحيحة الطريق التي أخرجها به الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر، والحديث قد أخرجه النسائي والحاكم وغيرهما بإسناد فيه انقطاع، ولذلك ضعفه بعض أهل العلم.

وكلمات هذا الدعاء العظيم موحية بأنها خارجة من مشكاة النبوة.

والمقصود هنا أن الثبات في الأمر سببه الهداية بالعلم واليقين، والعزيمة على الرشد تقتضي صحة الإرادة.

هذا، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث: بيان أحوال القلوب

تمهيد:

للقلوب شأن عظيم، وأحوال عجيبة، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أنها تحيا وتموت، وتستنير وتُظلم، وتصحّ وتمرض، وتلين وتقسو، وتصلح وتفسد، وتفقه وتَعمى، وتعقل وتغفل، وتوقن وترتاب، وتُنيب وتنصرف، وتهتدي وتزيغ، ولها علل وأدواء، ولهذه الأدواء والعلل شفاء.

وتحلّ ببعض القلوب عقوبات عظيمة الأثر من المرض والزيغ، والصرف والإغفال، والطبع والختم، والشدّ والرَّين، وغيرها.

وللقلوب أحوال أخرى من الطمأنينة والسكينة، والطهارة والزكاة، والخشية والخشوع، والوجل والإخبات، والتقلب والتصرّف، وغيرها.

وفقه هذه الأحوال ومعرفة أسبابها وأحكامها وآثارها يعين على فقه أعمال القلوب، والبصيرة بالمخارج منها، والشفاء من أمراضها، والسلامة من تقلبها وأخطارها.

والقلب يُطلق على أمرين:

الأمر الأول: ذلك العضو المعروف في الجسد الذي ينبعث منه الدم إلى سائر الأعضاء، وبموته ينقطع الدم فيموت الإنسان.

والأمر الثاني: ما يُقابله من الرّوح، وهو خلقٌ لطيف يُرى بالبصائر لا بالأبصار، وله أحوال غيبية دلّت عليها النصوص، وهو متعلّق الحبّ والبغض، والعَقْل والإدراك، ومصدر الإرادة، وبه تأتمر سائر الأعضاء؛ ولكل عضو من الجسد تعلّق بالروح، فإذا توقّف مدده من القلب مات العضو.

والإنسان متركّب من جسد وروح، فكما أنّ القلب الجسدي هو أصل بقاء حياة سائر الأعضاء؛ فكذلك القلب الروحي أصل لحياة سائر الأعضاء؛ كما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] فدلّت الآية على مكان القلب الذي يعمى ويفقه، وأنّه مختص بالقلب الذي في الصدر، وقال عن الكفار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

-قال ابن القيم رحمه الله: (**يطلق القلب على معنيين:**

أحدهما: أمر حسي وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف وفي التجويف دم أسود، وهو منبع الروح.

والثاني: أمر معنوي وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية، لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية)اهـ.

وقد عُني جماعة من أهل العلم ببيان أحوال القلوب وأمراضها وشفائها فيما كتبوا من التفاسير وشروح الأحاديث والوصايا والسير، ومنهم من أفردها بالتصنيف كما فعل الخرائطي في كتابه «اعتلال القلوب»، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالتان نفيستان في «أمراض القلوب وشفائها»، وله كتاب «التحفة العراقية في الأعمال القلبية»، ولابن القيم رحمه الله كلام متفرق في كتبه في أحوال القلوب، لابن رجب رسالة في «ذمّ قسوة القلب»، وله أيضاً كلام حسن متفرّق في كتبه.

وسأحاول في هذا الباب تلخيص المهمّ من ذلك، وشرح هذه المباحث المتعلقة بأحوال القلوب ببيان مقتضب أرجو أن يفي بالغرض في هذا المقام، وأسأل الله التوفيق والسداد.

بيان أنواع القلوب

خلق الله الخلق لعبادته، وفطر قلوبهم على محبته وتوحيده، فإذا تركت القلوب على فطرتها بلا فساد يطرأ عليها نشأت عارفة بالله محبة له متجهة إليه.

وفساد الفطرة يكون بسببه مرض القلب أو موته، ثمّ قد يعود القلب إلى فطرته إذا وفّق الله عبده وهداه لما يعيد قلبه إلى فطرته بالإنابة إليه وتوحيده جلّ وعلا.

والقلوب على أنواع:

١. فمنها قلب حيّ صحيح، وهو قلب المؤمن؛ وهو أقرب القلوب لاستماع الذكر والانتفاع به والاستجابة لله تعالى: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، قال قتادة: «**يعني بذلك القلب: القلب الحيّ**». رواه ابن جرير، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] قال قتادة أيضاً: «**حيّ القلب حيّ البصر**». رواه ابن جرير.

٢. ومنها قلب مريض، وهو قلب الفاسق والمنافق نفاقاً أصغر، وفيه مادّة خير ومادّة شرّ، وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإن غلب خيره وإيمانه كان إلى أهل الخير والإيمان أقرب، وهو على خطر من التمادي في الفسق والفجور فيؤدي به الفجور إلى موت القلب وإظلامه ببعض أعمال الكفر والنفاق الأكبر، ولذلك قال أهل العلم: المعاصي بريد الكفر.

٣. ومنها قلب ميّت، وهو قلب الكافر والمنافق نفاقاً أكبر، وهو الذي انتفى عنه الإيمان، وحبط عمله، وضلّ سعيه بما ارتكب من الكفر المخرج عن الملة، والعياذ بالله.

وموت القلوب وحياتها ومرضها وشفاؤها أعظم شأناً من حياة الأبدان وموتها ومرضها وشفائها.

ثم إنّ القلوب الحية والمريضة والميتة تتنوّع إلى أنواع أخرى بحسب ما يغلب عليها من أوصاف ذلك النوع.

- **فالقلوب الحية**: ذاكرة، ومنيبة، وخاشعة، ومخبتة، وتفقه، وتعقل، وتهتدي.

- **والقلوب المريضة**: فيها حياة وفيها موات، ويشتدّ مرضها باشتداد أسبابه من الافتتان بالشهوة المحرمة والشبهة المشككة، والتعلق بغير الله، والغلّ والحسد، والكِبر والبَطَر، والغفلة والقسوة.

- **والقلوب الميّتة** تختلف باختلاف أسباب موتها من الشرك، والنفاق، والكفر، والإلحاد، وبما تُعاقب به من الزيغ والصرف، والإغفال والقفل، والطبع والختم، والشدّ والرين، وهذه العقوبات بعضها أشدّ من بعض.

- قال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهدا يقول: «**الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

والقلوب تكون في أصل أمرها على الفطرة ثمّ تُعرض عليها الفتن فتختلف باختلاف أحوالها مع تلك الفتن.

- قال حذيفة بن اليمان: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيّ قلب أُشربها نُكتَ فيه نكتة سوداء، وأي قلب أَنكرَها نكتَ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادّا كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أُشرب من هواه**» رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده من طريق أبي مالك سعد بن طارق الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة.

والأربد والمربادّ في اللغة هو الأسود الذي خالط سواده بياض أو غُبرة فكلاهما أربد، ولعل الثاني أقرب لمعنى الحديث.

والمجخّي: المنكوس.

- وقال محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقلت، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي ذكر الله** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]». رواه الترمذي في جامعه والنسائي في السنن الكبرى، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك.

- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**الإيمان يبدأ لمظة بيضاء في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت بياضا حتى يبيضّ القلب كله، وإن النفاق يبدأ لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق ازدادت حتى يسودّ القلب كله**». رواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان، والبيهقي في شعب الإيمان.

واللمظة هي كالنقطة الصغيرة.

- وقال عبد الله بن مسعود: «**إن الرجل ليذنب الذنب فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثم يذنب الذنب فتنكت أخرى حتى يصير لون قلبه لون الشاة الربداء**» رواه ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان، من طرق عن الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب عن ابن مسعود.

- وقال أبو البختري الطائي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «**القلوب أربعة: قلبٌ مصفَّح فذاك قلب المنافق، وقلبٌ أغلف فذاك قلب الكافر، وقلب أجْرَد كأن فيه سراجاً يُزهر؛ فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان؛ فمثله كمثل قرحة يَمُدُّها قيحٌ ودم، ومثله كمثل شجرة يسقيها ماء خبيث وماء طيب فأيّ ماء غلب عليها غلب**». رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفي كتاب الإيمان من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري، وهذا إسناد رجاله ثقات، لكنّه أعلّ بالانقطاع بين أبي البختري وحذيفة.

وقد رواه ليث بن أبي سليم عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً بنحوه إلا أنه جعل القلب المنكوس للمنافق، والقلب المصفّح لمن فيه إيمان ونفاق، كما في مسند الإمام أحمد والمعجم الصغير للطبراني، وليث ضعيف.

- وقال إبراهيم بن بشار: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: «**قلب المؤمن أبيض نقي مجليٌ محلّى مثل المرآة، فلا يأتيه الشيطان من ناحية من النواحي بشيء من المعاصي إلا نظر إليه كما ينظر إلى وجهه في المرآة، فإذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب من ذنبه محيت النكتة من قلبه وانجلى، وإن لم يتب وعاود أيضا، وتتابعت الذنوب، ذنب بعد ذنب، نكت في قلبه نكتة نكتة حتى يسود القلب، وهو قول الله عز وجل:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] ».

قال: «**الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب في إبطاء، ما نجع في هذا القلب المواعظ، فإن تاب إلى الله قبله الله وانجلى عن قلبه كجلي المرآة**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

حياة القلوب وموتها:

يحيا القلب بالعلم والإيمان، ويموت بالجهل المطلق، وبكثرة العلل والأمراض وفقدان الغذاء وأسباب الشفاء فتستحكم الغفلة، ويستحكم الجهل المطلق؛ فيموت القلب، وإن كان البدن حيّاً، لأنَّ القلبَ قد حيلَ بينه وبين أسباب حياته الحقيقية التي ينتفع بها، كما قال الله تعالى عن الكفار: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] فذكروا الموانع على القلوب والأسماع والأبصار، وأبدانهم حيّة تسمع الأصوات وتبصر الأشخاص وتفهم الخطاب، لكنّها حياة بَدَنٍ لا حياة قلب.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولذلك فإنّ القلب الميّت لا يستجيب لما يحييه؛ فلا يسمع سمعاً ينفعه، ولا يتكلّم بما ينفعه، ولا يبصر ما ينفعه، كما قال الله تعالى في الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، فنزّل الذي لا ينتفع بالجارحة منزلة فاقدها.

وإذا مات القلب لم ينفذ إليه الهدى ولو كان الذي يعظه ويُرشده أبلغ الخلق وأحسنهم بيانا، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢] أي: موتى القلوب على الصحيح من أقوال المفسرين، وذهب بعض المفسّرين إلى أنّه تشبيه ضمني، أي: هم كالأموات في عدم سماعهم واستجابتهم، وفي كلا التفسيرين حجة، والأول أصحّ.

- و قال ابن القيّم رحمه الله: (شبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم؛ فقد ماتت قلوبهم، وقُبرت في أبدانهم؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢]، ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور) ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٢-٤٣].

فهؤلاء قد خُتم على قلوبهم فلا ينفذ إليهم الهدى بسماع ولا بصر ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وأعظم أسباب موت القلب هو الشرك، وهو الظلم الأعظم الذي لا تبقى معه للقلب زكاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

والمعاصي تُضعف حياة القلب، وتُدخل الموات فيه حتى إذا رانت على القلب أماتته، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

- قال عاصم الأحول: سمعت الحسن [البصري] يقول في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]: «**تدرون ما الإرانة؟ الذنب بعد الذنب، والذنب بعد الذنب، حتى يموت القلب**» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة.

- وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادةَ في تفسير هذه الآية: «**أعمالَ الْسَّوْءِ، إِي وَاللهِ؛ ذَنبٌ عَلَى ذَنبٍ، وذنبٌ عَلَى ذَنبٍ، حتَى مات قَلْبُهُ واسودَّ**».

- وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وصاحب القلب الميّت تتسلّط عليه الشياطين بسبب إعراضه عن ذكر الله فتضلّه وتغويه حتى يظنّ أنه مهتدٍ وهو في ضلال مبين، ويرى أعماله السيئة حسنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨].

وإذا استحكم موت القلب استحوذ عليه الشيطان فنفَر صاحبُه من الحق نفوراً شديداً، وأصبح لا يطيق سماع الحق، ولا رؤية آياته من شدّة إعراضه عنه، ولا تزيده المواعظ إلا نفوراً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ٢٢-٢٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: ١٠٠-١٠١].

وقال تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود: ٢٠-٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وهذه الآيات الواردة في ذمّ القلوب الميّتة والمريضة وإن كانت نازلة في الكفار إلا أنها تتناول بالتنبيه مَن في قلبه شعبة من شعب النفاق أو الكفر الأصغر، لئلا يُصاب بعقاب من جنس عقابهم وإن لم يكن في درجته وشدته.

السبيل إلى حياة القلب:

ولا سبيل إلى حياة للقلب إلا بتوحيد الله تعالى والاستجابة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ فالتوحيد يزيل إلهية ما سوى الحقّ من القلب، والاستجابة لله تعصمه من الهوى واتّباع الشيطان.

- ودليل الأول قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: بتوحيد الله الذي يخرج به العبد من الظلمات إلى النور، ولذلك سمّى القرآن روحاً لأنه متى باشر القلب حيي به كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

- ودليل الثاني قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤].

- قال ابن القيّم رحمه الله: (فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان؛ فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك).

ومن صدق في طلب حياة قلبه صدقه الله وأحيا قلبه مهما بلغ موت قلبه كما قال موسى عليه السلام لفرعون وهو من أقسى الخلق قلباً: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات: ١٩] وعدّيت الهداية بـ«إلى» لتضمينها معنى الإنابة، أي: أدلّك وأرشدك فتنيب إلى ربّك وتعرفه المعرفة الصحيحة التي تنير البصيرة وتحملك على خشية الله تعالى؛ فمن عرف اللهَ خَشِيَه.

وكلما كان العبد أحسن استجابة لله كانت حياة قلبه أحسن وأتم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الرعد: ١٨] حسن الحال وحسن المآل، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر فهو امتياز لأهل الاستجابة، والاستجابة والحُسن أمران متفاضلان؛ فأسعد الناس بحسن الحال وحسن المآل أحسنهم استجابة لربّه جلّ وعلا.

علامات حياة القلب:

ولحياة القلب علامات:

منها: الانتفاع بالذكرى، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس: ٧٠]، أي: حيّ القلب، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: قلب حي.

ومنها: أن يسرّ بالحسنات ويستاء للسيئات، وفي الحديث الصحيح: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

ومنها: أن يكون حبه لله وبغضه لله وعطاؤه لله ومنعه لله، وهذه أعلى درجات حياة القلب ومن بلغها فقد استكمل الإيمان، كما ثبت في الحديث الصحيح.

وإذا حسنت حياة القلب أحسّ صاحبه بما يضرّه ويؤذيه؛ فيجد ألماً للذنب وإن صغر، ووحشة من الغفلة وإن خفّت، فيمتنع مما يؤذيه ويضرّه، ويسعى إلى تطهير قلبه وتغذيته، ويبادر إلى ما يُزيد قلبه حياةً ونوراً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داوود وغيرهم من طرق عن ثابت البناني عن أبي بردة عن الأغر المزني رضي الله عنه.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والغين حجاب رقيق أرق من الغيم، فأخبر أنه يستغفر الله استغفارا يزيلُ الغينَ عن القلب فلا يصير نكتة سوداء).

- وقال ابن القيم: (الغين ألطف شيء وأرقّه). أي مما يغشى القلب.

والمقصود أنَّ صاحب القلب الحيّ يشعر بما يؤذي حياةَ قلبه، ويميّز ما يكدّر عليه صفوه واستنارته، وما يُضعف قوته ويؤثر في صحّته، ويزداد تمييزه بازدياد نصيبه من حياة القلب وبصيرته التي عمادها الإيمان والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].

والقلب الحيّ يجعل الله فيه نوراً يمشي به صاحبه، وفرقاناً يفرّق به بين الحقّ والباطل، وكلما كانت حياة القلب أتمّ كان نوره أعظم، وفرقانه أظهر، حتى يتبيّن له الحقّ من الباطل، والهدى من الضلال، والغيّ من الرشاد، فلا تلتبس

عليه الأمور ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

ومن سمات القلب الحيّ أنه ينجذب إلى ما يزيده حياةً ونوراً وزكاةً وطمأنينة؛ فيألف الطاعات ويحبّها ويأنس بها ويشتاق إليها، وينفر من المعاصي والغفلات ويستوحش منها، ولذلك فإنّ صاحب القلب الحيّ هو الذي يسوغ له أن يستفتي قلبه، لأن قلبه صحيح الإدراك، حسن التمييز بين الحقّ والباطل، لطيف الشعور بآثار البرّ والإثم، قد ارتاضت نفسه لأعمال البرّ وعرفتها، ووجدت آثارها المباركة، فما أدخل عليها أثراً ينكره توقف فيه، وعلم أنّ له علّة توجب تجنّبه.

وهذا مسلك لا يصحّ إلا لمن كان حسن التسليم والانقياد لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، معظّماً لنصوص الكتاب والسنة، حسن العمل بالمُحكم من النصوص؛ فإذا ورد عليه ما يشتبه عليه ردّه إلى ما عرفه من المحكم وما وجده من آثار اتباعه للمحكم، فما وافقه عرف أنه حق، وما خالفه عرف أنه باطل.

وهذا أصل مهم للتمييز بين من يستفتي قلبه وهمّته إلى معرفة الحقّ الذي يريده الله ويقبله ويثيب عليه، وبين من يستفتي قلبه وهمّته إلى ما تهواه نفسه وتخلد إليه.

وهذا الأصل مما يُفسّر به الحديث الذي رواه ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد، عن أبي حميد وأبي أسيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه**». رواه أحمد وابن سعد وابن وهب وابن حبان وغيرهم، وصححه الألباني وقال: (هو خاص بطبقة معينة من أهل العلم).

وهم الذين لديهم من الفرقان ما يميّزون به ما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم مما لم يصحّ، ولذلك كان جماعة من الأئمة النقّاد ربما سُئلوا عن حديثٍ

فينكرونه ويرون أنه باطل لا يصحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيُفتّش بعض أهل العلم في إسناده وأحوال رجاله فتتبيّن له علّته، وأنه كما ذكروا.

وهذا الحديث الذي رواه ربيعة أصحّ من الحديث الذي رواه أبو عبد السلام البصري عن أيوب بن عبد الله بن مكرز الفهري، عن وابصة بن معبد الأسدي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوابصة: «**جئتَ تسأل عن البر والإثم؟**».

قال: قلت: نعم.

قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره، وقال: «**استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة - ثلاثا - البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**» رواه أحمد والدارمي وابن ابي شيبة، وقد أُعلّ بالانقطاع، فلم يسمعه أبو عبد السلام من أيوب، كما نصّ على ذلك الإمام أحمد في روايته في المسند، وفي جوابه لمن سأله عن هذا الحديث، وحسّنه بعض أهل العلم، ولبعضه شواهد.

- قال معاوية بن صالح: حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي، عن أبيه، عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن البر والإثم فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**» وهذا حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي في جامعه وغيرهم.

وهذا الحديث وما في معناه إنما هو لأهل القلوب الحية، وأمّا أصحاب القلوب المريضة والميّته فهم عن هذا بمعزل:

- فأما أصحاب القلوب الميتة فإنهم يتناولون ما يضرّ قلوبهم وهم لا يشعرون بضررها؛ بل ربما وجدوا في ما يضرّهم لذة ومتعة كما يلتذ الجاهل بتناول ما يضر بجسده، ولذلك قد يأتون المعاصي ويجاهرون بها ويفاخرون ولا يجدون في صدورهم حرجاً منها، ولا في أنفسهم كراهية لاطلاع الناس عليها إلا حين يخشون من اطّلاعهم ضرراً دنيوياً.

- وأما أصحاب القلوب المريضة فلديهم نوع تمييز لكنه ضعيف، فقد يتناولون ما فيه ضرر شديد ويحسبونه هيّناً، ثم لا يزال يضعف تمييزهم حتى تموت قلوبهم إلا من تاب منهم وأناب.

صحة القلوب ومرضها:

صحّة القلب هي سلامته من الآفات والعلل، وارتواؤه بما يغذّيه ويقوّيه ويشفيه من العلل والأمراض، ويقيه من الفتن؛ فيكون قلباً صحيحاً قوياً، وإذا كان القلب صحيحاً كان أقوى على دفع كثير من العوارض التي يُفتن بها مريض القلب.

ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل لبعض الناس: (لو صححتَ لم تخف أحداً).

- قال ابن تيمية: (أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب).

وصحّة القلوب تتفاضل كما تتفاضل صحّة الأبدان؛ فبعضها أصحّ من بعض وأقوى، وأكثر منعة من الآفات والأعراض، وتفاضلها يتفاضل أسباب الصحة والقوة وتعددها، وبتفاضل سلامتها من الأمراض والعلل.

وعماد صحّة القلب وقوّته على ثلاثة أمور:

الأول: البصيرة التي تحصل بها صحّة العلم، وتفضي بصاحبها إلى اليقين.

والثاني: الرشاد الذي يكون بسبب صحّة الإرادة، وينتج عنه صلاح العمل، ويفضي بصاحبه إلى الاستقامة.

والثالث: العافية، التي يسلم بها من الآفات التي تمرض القلب وتضعفه.

ولا تُنال هذه الأمور إلا بتوفيق من الله تعالى وعون منه، ولذلك كثر في النصوص الأمر بسؤال الله تعالى هذه الأمور وما في معناها، وقد تضمنها الدعاء

المبارك في سورة الفاتحة فقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] مشتمل على سؤال البصيرة والرشاد، لأنه الهداية قوامها على صحة العلم وصلاح العمل.

وقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧] سؤال للعافية من الآفات التي ابتلي بها المغضوب عليهم والضالون، ومن عوفي من أسباب الغضب والضلال فقد عوفي.

وأما مرض القلب فهو نوع فسادٍ في تصوّره وإرادته.

أ: ففساد التصوّر يحصل به الافتتان بالشبهات.

ب: وفساد الإرادة يحصل به الافتتان بالشهوات.

والأمراض القلبية تُضعف القلب وتُنهكه حتى قد يصل به الحال إلى سرعة التأثر بالعوارض اليسيرة، والافتتان بأدنى فتنة، وهذا بخلاف القلب الصحيح القوي.

وفساد التصوّر أن يتصوّر الأمور على غير حقيقتها، فقد لا يبصر الحقّ ويحصل له بذلك تحيّر وتردد واشتباه، وقد يرى الحقّ باطلاً والباطل حقّا، وقد يُلبَّس عليه الحق ببعض الباطل، فيخلط تصوّراً صحيحاً وآخر فاسداً.

والقلب يمرض بالآفة المُمرضة من الشهوة والشبهة وبالغفلة عن غذائه وأسباب قوّته وطهارته؛ فرجعت أمراض القلوب إلى أنواع من الجهل وظلم النفس كما قال الله تعالى في شأن الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والآفات المرضة قد يكون في القلب بسببها شُعبة من شعب الفسق أو الكفر أو النفاق.

وتزداد أمراض القلب بتعدد الآفات، وقوتها، وتزايد آثارها؛ فهي كالبلاء الذي يستشري في الجسد إن لم يجد ما يوقفه ويطهّر الجسد منه.

وقد يصل الحال بصاحب القلب المريض إلى أن يشابه المنافقين في بعض أعمالهم فيقرن معهم كما في قول الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

ومرضى القلوب لم تمت قلوبهم كموت قلوب الكفار والمنافقين، وليست صحيحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها أمراض شبهات وشهوات؛ فإذا تطهّرت منها رجعت كصالح قلوب المؤمنين، وإذا تمادت في غفلتها خُشي عليها أن تموت كما ماتت قلوب الكفار والمنافقين.

وما يحلّ في القلوب من أمراض على نوعين:

١: أمراض سببها ذنوب وغفلة مذمومة من العبد.

٢: وأمراض هي عقوبة من الله تعالى للقلب المريض الزائغ؛ كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولذلك يجب الحذر من إهمال مرض القلب.

وقول الله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] دليل على أنّ صحيح القلب لو تعرّضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة؛ فإذا خضعت المرأة بالقول حرّكت شهوته ففتنت قلبه.

ومن خطر مرض القلب أن الفتنة إذا وردت على قلب مريض كان أثرها أسرع وأشدّ؛ كما قال الله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

استنارة القلوب وظلمتها:

القلوب تستنير وتُظلم:

- فالقلوب الحيّة مستنيرة.

- والقلوب الميتة مظلمة.

- والقلوب المريضة فيها نور وظلمة بحسب ما يغلب عليها من الصحة والمرض.

وأصل النور مركوز في كلّ قلب وهو نور الفطرة؛ ثمّ قد يزداد المرء بالعلم والإيمان، وقد يطمس هذا النور حتى يظلم قلبه كلّه، وقد يبقى في القلب نور وظلمة.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فدلّت الآية على أنّ الكفار يخرجون من نور الفطرة التي فطرهم الله عليها إلى ظلمات الكفر والفسوق والعصيان، وأنّ المؤمنين يخرجون من ظلمات الجهل والمعاصي والغفلات إلى نور العلم والإيمان والذكر، وفي الحديث القدسي: [إني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا]. رواه مسلم من حديث قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربّه جلّ وعلا.

وعماد نور القلب على أمور:

١ : الفطرة الصحيحة، وضدّها فساد الفطرة.

٢: والعلم الذي تحصل به البصيرة في الدين، ويرتقي به المؤمن إلى مرتبة اليقين.

٣: واتباع الهدى، وبه تحصل الاستقامة، وتتحقق التقوى، ويرتقي به المؤمن إلى مرتبة الإحسان.

٤: والذكر، وهو مَدد القلب من النور، وبالغفلة يضعف نور القلب.

ونور القلوب يتفاضل كما أن ظلمتها تتفاوت، وهو نور معنوي، له أثر عظيم في إبصار الحقّ ومعرفته، والاستقامة على طريق الهدى، وكشف زيف الشهوات المحرمة وإبصار حقيقتها وعاقبتها، وكشف الشبهات المضلة وإبصار ضلالها وغلطها.

وكلما عظم النور في القلب ازداد حياة وقوّة.

والقلوب المنوّرة بنور الله تسمع فتنتفع بما تسمع، وتبصر الحق وآياته فتزداد به بصيرة، وتفقه وتعقل؛ فتتّبع الهدى، وتجتنب الزلل.

والقلوب الميتة على الضدّ من ذلك، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

كما قال الله تعالى، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] وهذا إسماعٌ للقلب، وأما الإسماع الذي تقوم به الحجة فقد بلغهم وعرفوا المعنى وفهموا الخطاب، لكنّ قلوبهم في نفور شديد عن سماع الحق والتفكّر فيه والانتفاع به.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] فنسبة عمى الأبصار إلى عمى القلوب نسبة ضئيلة لا يُعدّ معها عمى الأبصار شيئاً ذا بال.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

وإذا استنار القلب اهتدت الجوارح واستنارت بما فيه من النور، وإذا أظلم القلب أظلمت الجوارح وتخبّطت في الظلمات.

-قال ابن القيّم رحمه الله: (إنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد والراعي للرعية، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي

إنما هي آثاره؛ فإن أظلم أظلمت الجوارح، وإن استنار استنارت، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل)ا.هـ.

وهذا النور يتمثّل لأصحابه يوم القيامة نوراً حقيقياً يسعى بين أيديهم في ظلمات ذلك اليوم، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

وظلمة القلوب تكون بفساد الاعتقاد والتصوّر وفساد الإرادة والعمل، وما يتبعهما من الأعمال المترتبة عليهما، وكلما عظم الفساد ازدادت الظلمة؛ حتى يحتجب عن القلب إبصار الحق وإرادته.

والمؤمن المتّقي كلما عرض له شيء من أنواع الفساد في الاعتقاد والتصوّر أو الفساد في الإرادة والعمل بادر إلى تطهير قلبه لتعود إليه بصيرته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ومن البصيرة أن يدرك المؤمن عاقبة المعصية وقبحها وسوء أثرها ويبصر البرهان على ذلك بقلبه فيزدجر عن المعصية، كما قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

-قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (هو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرا ولم يفعل سيئة).

وما يهمّ به القلب على نوعين: همّ خطرات، وهمّ إصرار، وما همّ به يوسف عليه السلام هو من النوع الأول، وهمّ الخطرات يكون من حديث النفس ومن وسوسة الشيطان شيطان الجنّ أو شيطان الإنس، فمن دافع الخطرات وتذكّر فأبصر الحق واتّبعه كان من عباد الله المتقين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والظلم من أسباب ظلمة القلب، وهو على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الشرك وهو الظلم العظيم.

والنوع الثاني: ظلم الخلق.

والنوع الثالث: ظلم النفس.

وكل معصية هي من ظلم المرء لنفسه، لأنه لم يعدل في حقها عليه بإلزامها طاعة الله؛ فظَلَمها إذ عرّضها لسخط الله وعقابه، وحرمها فضله وثوابه.

والقلب يظلم وينير بحسب ما فيه من الإيمان والنفاق، وإنارته: إبصاره للحق، وإظلامه: عمايته عنه.

واستحكام ظلمة القلب إنما يكون للكفّار والمنافقين، وهم على صنفين:

١- صنف زُيّن لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة؛ فهم أصحاب جهل مركّب، ممعنون في الغواية والضلال.

٢- وصنف أصحاب جهل بسيط يتخبّطون في الظلمات؛ من حيرتهم وتردّدهم.

وقد ضرب الله تعالى مثلين لهذين الصنفين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

لين القلوب وقسوتها:

القلوب تلين وتقسو، ولقسوتها ولينها أسباب وعلامات، والقلب الليّن أقرب إلى رحمة الله، وأحرى بالانتفاع بالذكرى، بخلاف القلب القاسي الذي استغلظ واشتدّ يُبْسه بسبب استفحال أمراضه، وقحطه مما يغذّيه ويليّنه من العلم النافع والمواعظ الحسنة والأعمال الصالحة.

والقلب القاسي كالأرض الجرداء المقحطة، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فلا ينتفع صاحبه بالمواعظ والتذكير، بل قد يصل القلب من شدّة قسوته إلى أن يكون الحجارة أو أشدّ قسوة كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البقرة: ٧٤]، فكما أنّ الحجارة صلبة لا ينفذها الماء فكذلك القلب القاسي لا تنفذ إليه الموعظة ولا ينتفع بالذكر.

وقسوة القلب أخطر من ضعفه لأنها تورث صاحبها فساد التصوّر، والجسارة على الباطل، والإمعان في الغواية، وإذا ذكّر بآيات الله ازداد نفوراً وإعراضاً وقسوة قلب، وتلك علامة بيّنة على ضلال العبد كما قال الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

- قال مالك بن دينار: «**ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب**» رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، وابن أبي الدنيا في العقوبات.

- وقال يوسف بن أسباط: قال لي حذيفة المرعشي: «**ما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه**» رواه أبو نعيم في الحلية.

- وقال يحيى بن معاذ: «**ما جَفَّت الدموع إلا لقساوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، وما كثرت الذنوب إلا من كثرة العيوب**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال ابن القيم: (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وخلقت النار لإذابة القلوب القاسية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، وإذا قسي القلب قحطت العين).

- وقال أيضاً: (متى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى فاعلم أنَّ قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار؛ فاعلم أنك لا تصلح له.

ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لا تُطلب، ويستدني سواك وأنت لا تُقرَّب؛ فإن تحركت لك قَدَمٌ في الزيادة تخلّف قلبك في المنزل؛ فاعلم أنه الحجاب والعذاب).

ولين القلوب يكون بأسباب:

١. أجلها ذكر الله تعالى، وأنفع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو أصل أسباب لين القلوب كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] والطمأنينة لا تكون إلا من لين القلب فهو لين قلب وزيادة، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

﴿رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

ولذلك كان الذكر من أسباب لين القلب، ومن علاماته.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

٢. وطهارة القلب مما يرين على القلب ويقسّيه من الذنوب والمعاصي، والظلم والعدوان.

٣. وتلين أيضاً بأعمال البرّ والإحسان كبرّ الوالدين، وصلة الرحم، والصدقة على المحتاج، ورعاية اليتيم ومسح رأسه، وعيادة المريض، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب.

٤. وتلين القلوب بما تستجلب به خشية الله تعالى ورقة القلب، من تذكّر الموت، وزيارة القبور، والتفكّر في عواقب المعاصي، وأهوال القبور، وأحوال يوم القيامة.

٥. وتحري الكسب الطيب، وتوقي الشبهات والمكاسب المحرمة.

٦. وصحبة الصالحين.

٧. والتضرّع إلى الله، والاستكانة له، والالتجاء إليه، بخلاف أصحاب القلوب القاسية الذين لا يستكينون لربهم ولا يتضرعون كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٣-٤٤].

٨. والاقتصاد في المأكل والمشرب والنوم والمخالطة.

ومن علامات لين القلب: تيسّر الذكر ولينه على اللسان، وانتفاعه بالمواعظ والتذكير، واستجابته لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم رغبة ورهبة، والذكر اسم جامع لكلّ ما يُذكر الله به، من تلاوة القرآن والتهليل والتكبير والتسبيح والحمد وسائر الأذكار، والصلاة والتفكّر والتذكّر النافع وسائر الطاعات.

- وأما الحديث الذي اشتهر عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد». قيل: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: «تلاوة القرآن» فهو حديث لا يصحّ، رواه الخرائطي في اعتلال القلوب، والبيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية، وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن هارون الغساني عن ابن أبي رواد به، والغساني متروك الحديث، وقد تابعه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد عن أبيه بنحوه وزاد: «كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن»، وعبد الله متروك الحديث أيضاً.

- وروى حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني، عن أبي هريرة، أن رجلا شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه، فقال: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين». أخرجه الإمام أحمد وغيره، ورجاله ثقات لكنّه أُعلَّ بالانقطاع.

- ويشهد له ما رواه حماد بن سلمة أيضاً، عن محمد بن واسع، أن أبا الدرداء رضي الله عنه كتب إلى سلمان: أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أردت أن يلين قلبُك فامسح رأس اليتيم وأطعمه». رواه البيهقي في السنن الكبرى وهو منقطع أيضا، وله طرق أخرى لا تخلو من ضعف.

- وفي مسند الإمام أحمد ومسند أبي يعلى من طريق ابن إسحاق قال: حدثني يحيى بن الحارث الجابر، عن عبد الوارث، مولى أنس بن مالك، وعمرو بن عامر،

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إني قد كنت نهيتكم عن ثلاث» فذكرها ومنها: «نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي أنها ترقّ القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، فزوروها ولا تقولوا هجرا». وللحديث طرق أخرى، وفي هذا الإسناد مقال، لكن ثبت في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وسنن النسائي الكبرى وغيرها من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «زوروا القبور فإنها تذكّر الموت».

وقد دلّت الآثار المروية عن السلف في هذا الباب على أنّ أسباب لين القلوب متعددة، ولذلك اختلفت وصاياهم لمن سأل عن دواء ما يحسّ من قسوة قلبه، ولعلّ الأمر راجع في كلّ وصية إلى اعتبار الأنسب لحال السائل، وما وجد المسؤول نفعه، وهي لا تكاد تخرج عن الأسباب التي تقدّم ذكرها:

- قال ابن رجب: (ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن منصور بن عبد الرحمن، عن صفية أنَّ امرأة أتت عائشة لتشكو إليها القسوة؛ فقالت: «**أكثري ذكر الموت يرقّ قلبك وتقدرين على حاجتك**». قالت: ففَعَلَتْ، فآنسَت من قلبها رشدا، فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها).

وكتاب «ذكر الموت» لابن أبي الدنيا مفقود.

- وقال المعلى بن زياد: قال رجل للحسن [البصري]: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي! قال: «**أَدْنِهْ من الذكر**». رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء والخرائطي في اعتلال القلوب.

- وقال عون بن عبد الله: أتى أمَّ الدرداء رجلٌ فقال: إن بي داء من أعظم الداء، فهل عندك له دواء؟

قالت: وما ذاك؟

قال: إني أجد قسوة في القلب.

فقالت: «**أعظم الداء داؤك، عُدِ المرضى، واتبع الجنائز، واطلع في القبور، لعل الله أن يلين قلبك**».

قال: «**ففعل الرجل، فكأنه أحسّ من نفسه رقة، فجاء إلى أم الدرداء يشكر لها**». رواه أبو داوود في الزهد.

- وقال وهيب بن الورد: «**نظرنا في هذا الحديث فلم نجد شيئا أرقَّ لهذه القلوب ولا أشدَّ استجلابا للحقّ من قراءة القرآن لمن تدبّره**» رواه أبو نعيم في الحلية.

- وقال أبو إسحاق إبراهيم بن فراس: سمعت إبراهيم بن أحمد الخواص يقول: «**لا يُطمع في لين القلب مع فضول الكلام**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال إبراهيم الخواص أيضاً: «**دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين**». رواه أبو نعيم في الحلية.

- ورُوي نحوه عن يحيى بن معاذ.

- وقال مالك بن مغول: قيل للربيع بن أبي راشد: ألا تجلس فتحدث، قال: «**إنَّ ذكر الموت إذا فارق قلبي ساعة فسد عليَّ قلبي**».

قال مالك: «**ولم أر رجلا أظهر حزنا منه**» رواه ابن المبارك في الزهد، وروى نحوه ابن أبي الدنيا في العزلة والانفراد وأبو نعيم في الحلية.

- وقال شعيب بن حرب: حدثنا سفيان [الثوري] عن رجل، عن سعيد بن جبير قال: «**لو فارق ذكر الموت قلبي خشيت أن يفسد علي قلبي**» رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد»، والرجل مجهول.

- ونقل أبو طالب صاحب الإمام أحمد أنَّ رجلا سأل الإمام أحمد: كيف يرق قلبي؟ قال: (ادخل المقبرة، امسح رأس يتيم) ذكره ابن مفلح في «الفروع» وابن رجب في «ذمّ قسوة القلب».

- وقال ابن مفلح: (سُئل الإمام أحمد ما يلين القلب؟ فقال: «أكل الحلال»، فسأل السائلُ بشرَ بنَ الحارث وعبد الوهاب الوراق رحمهما الله؛ فقالا: يذكر الله، فذُكر لهما أحمد؛ فقالا: جاء بالأصل).

وتقسو القلوب بأسباب منها:

١. الغفلة وطول الأمد عن ذكر الله كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦].

٢. ونقض العهد، كما قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ...﴾ [المائدة: ١٣] الآية.

قال ابن عقيل يوما في وعظه: (يا من يجد من قلبه قسوة، احذر أن تكون نقضت عهدا؛ فإن الله يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]). ذكره ابن رجب في «ذمّ قسوة القلب» وفي ذيل طبقات الحنابلة.

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

٣. وسوء الظنّ بالله، وقد قال الله تعالى في السبب الجامع لخسران أعداء الله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [فصلت: ٢٣]، وهي صفة جامعة للكفار والمنافقين كما قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦﴾ [الفتح: ٦].

ولذلك فإنّ من شابههم في هذه الخصلة فهو على خطر من أن يعاقب بعقاب من جنس عقابهم فيغضب الله عليه ويقسو قلبه لحرمانه التوفيق لما يحبّه الله ويرضاه.

٤. واتباع الشهوات وإضاعة الصلوات.

٥. وما تكسب القلوب من السيئات التي ترين على القلب، وتزداد بها النكت السود في القلب، ولا سيما ذنوب الخلوات.

٦. ومنع الحقّ الواجب للخلق، وظلمهم والتعدي عليهم، فيعقّ الوالد، أو يقطع الرحم، أو يسيء إلى جاره، أو ينتهب حقّ مسلم، أو يقذف المحصنة، أو يمنع الماعون، وغير ذلك من الذنوب التي لا تكاد تصدر إلا من قلب فيه قسوة.

٧: وأكل المال الحرام.

٨. وغلبة حبّ الدنيا على القلب، وكراهية ذكر الموت.

٩. ومخالطة أهل الغفلة والعصيان.

١٠. وكثرة الضحك، وفضول الأكل والشرب والنوم والنكاح ومخالطة الناس، وهو سبب ذكره بعض أهل العلم، وذلك والله أعلم لأنها من أسباب الغفلة عن ذكر الله، وإيثار الدنيا واتّباع الشهوات والتفريط في الصلوات.

- وقال عبد الحميد بن جعفر، عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكثروا الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب» رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن ماجه في سننه، وصححه الألباني.

- وقال جعفر بن سليمان الضبعي عن أبي طارق السعدي عن الحسن البصري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يأخذ مني خمس خصال فيعمل بهن، أو يعلّمهن من يعمل بهن؟».

قال: قلت أنا يا رسول الله.

قال: فأخذ بيدي فعدّهن فيها ثم قال «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب» رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى الموصلي، وأبو طارق مجهول، ورواية الحسن عن أبي هريرة مختلف فيها، وللحديث شواهد يتقوّى بها.

- وقال بشر بن الحارث: قال الفضيل بن عياض: (خصلتان تقسيان القلب: كثرة النوم، وكثرة الأكل). رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال ابن القيم: (قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها).

صلاح القلوب وفسادها:

-قال ابن مفلح: (صلاح القلوب رأس كل خير، وفسادها رأس كل شرّ).

والعبد مأمور بالسعي في إصلاح قلبه، ولا تصلح القلوب إلا بصحّة العلم، وصلاح العمل.

وصلاح القلب يتفاضل فيه الصالحون تفاضلاً عظيماً، ولهم في هذا الصلاح مقامات، فمنهم من يُفتح له في باب من أبواب صلاح القلوب ما لا يُفتح له في غيره.

ومن العلامات الجامعة لصلاح القلب: تحقيق التوحيد لله تعالى، والقيام بأمر الله، وصحّة الولاء والبراء، والحياء من الله، واستقامة اللسان، وكثرة ذكر الله عزّ وجل بالقلب واللسان.

ومن سرته حسنته وساءته سيّئته فهو مؤمن، وذلك لأجل صحة التصوّر وصلاح الإرادة.

وأسباب صلاح القلوب قد تقدّم ذكر بعضها في أسباب لين القلوب، ويجمعها: تحقيق التوحيد، وكثرة الذكر، وتصحيح الولاء والبراء، والقيام بالفرائض، والكفّ عن المحرمات، وتلاوة القرآن، والتوبة والاستغفار، والصبر والشكر، والتفكّر في آيات الله، والدعاء، والصدقة، والتعويذات الشرعية، وأعمال البرّ والإحسان.

وشرح أثر هذه الأعمال على القلوب يطول به المقام.

وفساد القلوب يكون باستفحال أمراضها، وهي على أنواع: أمراض شكّ وريبة، وأمراض ضعف ووهن، وأمراض غلظ وقسوة.

وكل نوع من هذه الأنواع يؤدّي بصاحبه إلى فساد قلبه إذا استفحل المرض ولم يُقابل بما يشفي منه ويطهّر القلبَ ويُصلحه.

والساعي لإصلاح قلبه يحتاج إلى صيانته من مصادر الأدواء التي إذا انفتحت عليه من غير مراقبة ولا تهذيب عاثت فيه فساداً، وقد أحسن ابن القيّم رحمه الله تعالى العبارة عنها فقال في كتابه «التبيان»: (جماع الطرق والأبواب التي يُصان منها القلب وجنوده أربعة؛ فمن ضبطها وعدّلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه، ولم يشمت به عدوه، وهي: الحرص والشهوة والغضب والحسد؛ فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير، وكما هي طرق إلى العذاب السرمدي؛ فهي طرق إلى النعيم الأبدي).

زكاة القلوب وطهارتها وطمأنينتها:

زكاة القلوب والنفوس من فضل الله تعالى ورحمته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

والزكاة سبب الفلاح، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤].

وتحصل زكاة القلوب بثلاثة أمور:

الأول: شفاء القلب من أمراضه وعلله، وطهارته من آثار الذنوب والمعاصي.

والثاني: تغذية القلب بما يقوّيه؛ وأعظم غذاء للقلب: تحقيق التوحيد، وازدياد اليقين، وفعل الطاعات.

والثالث: صيانة القلب باجتناب الفواحش الظاهرة والباطنة؛ فالفواحش أخلاط رديئة تضعف الروح، وتوهن النفس، وتفسد القلب.

وأسباب زكاة القلوب ترجع إلى الإيمان والعمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

وورد في النصوص ذكر بعض الأعمال التي لها أثر في التزكية، ومنها:

١: اتّباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

٢: الصدقة، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: ١٨]، وسمّيت الزكاة زكاة لأنّ فيها تزكية لصاحبها.

٣: صيانة القلب بحفظ الجوارح، ومن ذلك غضّ البصر كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٤: نشر العلم النافع وتعليمه، وهو من أعظم أسباب زكاة القلوب، لأنّه من زكاة العلم، والعلم النافع تحيا به قلوب الناس، فيزداد المنفقُ زكاةً وعلماً.

وقد ورد الوعيد الشديد لمن كتم العلم النافع، واشترى به ثمناً قليلاً، ومن عقوبة من فعل ذلك أن لا يزكّيه الله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

٥: والوفاء بالعهود، وحفظ الأيمان، وأعظمها العهود العهد الذي بين العبد وربّه بالتوحيد، ولذلك كان من عقوبة نقض هذا العهد وإضاعة الأيمان الحرمان من الزكاة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧].

وطهارة القلوب نقاؤها من أوضار الشبهات والشهوات، والقلب إذا تطهّر اندفعت عنه دواعي الفسق والفجور، فعصم منها ولم يَصْبُ إليها، وفي مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني من حديث حريز بن عثمان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة رضي الله عنه في شأن الشابّ الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم

يستأذنه في الزنا فحاجّه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبصر الحقّ ثم وضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه**».

قال أبو أمامة: «**فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء**».

فإذا طهّر الله قلب رجل صرف عنه فتن الشبهات والشهوات، كما قال الله تعالى في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والله تعالى يريد أن يطهّر قلوب عباده ويتوب عليهم لكن من أعرض منهم عن ذكره واتّبع الشهوات ومال إليها ونبذ العلم وراء ظهره، واستحكم النفاق في قلوبه حلّ بقلبه من الرجس ما يظلم به ويفسد ويقسو حتى يكون من أبعد القلوب عن الله، وصار فيه شبه باليهود المغضوب عليهم الذين علموا ولم يعملوا، ففتنوا عن الصراط المستقيم وكانوا مستبصرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

ولابن القيّم رحمه الله في مدارج السالكين كلام عظيم القدر في أهمية طهارة الباطن، خلاصته أنّ العبد لا يدخل الجنّة ولا يرى ربّه إلا وهو طاهر مطهَّر، فكذلك ينبغي له أن يطهّر باطنه إذا وقف بين يديه في الصلاة.

قال: (كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة، وهذا يذكر العباد بالتطهر للموافاة والقدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات؛ فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل

بيته المحرم بوجهه، ويستر عورته، ويطهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه، ثم يخلص له النية؛ فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله، ويستر عوراته الباطنة بلباس التقوى، ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة، ويتطهر لله طهرا كاملا، ويتأهب للدخول أكمل تأهب، وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة)ا.هـ.

وأما طمأنينة القلب فهي سكينته واستقراره وأنسه بالله، فيسكن جأشه، ويذهب قلقه، ويندفع جزعه، ولا تحصل طمأنينة القلب إلا بذكر الله تعالى، كما قال الله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وتقديم الجارّ والمجرور لإفادة الحصر، لكن الذكر هنا عامّ في كلّ ما يحصل به ذكر الله، ولذلك فسّر بالقرآن، وفسّر بذكر الله في النفس، وبذكر الله باللسان، وغير ذلك من أنواع الذكر، وكلها معانٍ صحيحة.

تقلّب القلوب وتصرّفها:

قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يقلّبها كيف يشاء، ويصرّفها كيف يشاء؛ فإذا شاء أن يقيم قلب عبد من عباده أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، فَمِنَ الله تعالى مبدأ استقامة القلوب وزيغها، وثباتها وتقلّبها، ولا ثبات للقلب إلا بتثبيت الله تعالى الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض، ولولا تثبيت الله للقلوب ما ثبت منها قلبٌ واحد؛ فإذا كان خير القلوب وهو قلب النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥] فما الظنّ بقلوب غيره؟!!

ولذلك كان من أعظم دعوات المؤمنين قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

وكان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**».

وفي هذه المعاني المتقدّمة أحاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وآثار عن الصحابة والتابعين وتابعيهم:

١. قال عبد الله بن عمر بن الخطاب: أكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحلف: «**لا ومقلب القلوب**» رواه البخاري في صحيحه وأبو داوود والترمذي والنسائي من طريق موسى بن عقبة عن سالم بن عبد الله عن أبيه، وله طرق أخرى وفي بعضها «**ومصرف القلوب**».

٢. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» رواه مسلم وأحمد والنسائي في الكبرى وغيرهم من طريق حيوة بن شريح قال: أخبرني أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبُلّي أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص فذكره.

٣. وقال شهر بن حوشب: قلت لأمّ سلمة: يا أمَّ المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟

قالت: كان أكثر دعائه: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**».

قالت: فقلت: يا رسول الله ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟

قال: «**يا أمَّ سلمة إنه ليس آدميٌّ إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ**». رواه أحمد والترمذي والطبراني من طريق أبي كعب عبد ربه صاحب الحرير، عن شهر به، وله طرق أخرى.

٤. وقال أنس بن مالك: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**».

قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟

قال: فقال: «**نعم، إنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلّبها كيف يشاء**». رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى والحاكم من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن أنس.

٥. وقال النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه**».

وكان يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه**». رواه أحمد والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم من طريق بسر بن عبيد الله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني عن النواس.

٦. وقال المقداد بن الأسود رضي الله عنه: ما آمن على أحد بعد الذي سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لقلب ابن آدم أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا**» رواه ابن أبي عاصم في السنة والطبراني في مسند الشاميين، والبغوي في شرح السنة من طريق عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه، عن المقداد، وحسّنه الحافظ العراقي وصححه الألباني، وروي نحوه من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن أنس.

٧. وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة يقلّبها الريح ظهرا لبطن**» رواه ابن أبي عاصم في السنة والبزّار في مسنده من طريق يزيد بن هارون: أنبأنا الجريري، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى.

٨. وقال أبو كبشة السدوسي: خطبنا أبو موسى [الأشعري] فقال: «**ألا وإنما سمي القلب من تقلبه، وإن مثل القلب كمثل ريشة بأرض فضاء تطير بها الريح ظهرا لبطن ألا وإن من ورائكم فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب**».

قالوا: فما تأمرنا؟

قال: «**كونوا أحلاس البيوت**». رواه هنّاد بن السري في الزهد.

وأبو كبشة قال عنه الذهبي: لا يُعرف، وقال ابن حجر في التقريب: مقبول.

٩. وذكر بلال بن سعد بن تميم السكوني عن أبي الدرداء قال: كان ابن رواحة يأخذ بيدي ويقول: «**تعال نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا**» رواه ابن المبارك في الزهد.

وبلال بن سعد من خيار التابعين بالشام، كان إمام الجامع بدمشق في زمانه، ولأبيه صحبة، وكان من العلماء العبّاد الصالحين الثقات، قال أبو زرعة الدمشقي: «**كان بالشام مثل الحسن البصري بالعراق**».

وأبو الدرداء هو أخو عبد الله بن رواحة لأمّه.

والمقصود أن حاجة المرء إلى سؤال الله تعالى تثبيت قلبه وهدايته حاجةٌ دائمة متجددة، وقد ذكر بعض أهل العلم من حِكَم الأمر بالدعاء في كلّ ركعة بقولنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] الإعانة على تثبيت القلوب على الهداية والازدياد منها، وأنّ الحاجة إلى ذلك متكررة متّصلة بالمرء ما اتّصلت به الحياة، وذلك أنّ المؤمن يحتاج إلى البصيرة والإعانة على الطاعة في كلّ أمر من أموره؛ وبهما تحصل الهداية وتكمل.

وأصل الهداية هو دخول المرء في الإسلام، لكنّه يحتاج بعد ذلك إلى هدايات كثيرة متنوّعة، وتعترضه في يومه وليلة فتن كثيرة متنوّعة، ومن لم يهده الله ضلّ بها، ومن لم يثبّته الله لم يثبت.

فإنّ مجرّد العلم بالحقّ لا يحصل به الاهتداء إن لم يتبعه التوفيق للعمل.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته في «أمراض القلوب وشفائها»: (الذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم؛ فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين) اهـ.

فحاجة المؤمن إلى هذا الدعاء أشدّ الحاجات، والله تعالى يحبّ من عباده أن يدعوه بهذا الدعاء، ولذلك فرضه عليهم فرضاً متكررا دائماً، وأحبّ الأعمال إلى الله ما افترضه على عباده.

والهداية للصراط المستقيم شاملة لكلّ مراتب الهداية من الإرشاد والتوفيق، والعلم والعمل، وإذا حصلت الهداية حصل ما يترتب عليها من النصر والرزق والتوفيق وأنواع الفضائل والبركات، وما تطلبه النفس من أحوال السعادة.

وهذه الهداية المتّصلة وما يترتّب عليها من التثبيت على الإيمان والقول الثابت منّةٌ من الله تعالى، لا يبلغها العبد بمجرّد كسبه وذكائه ومعرفته لولا توفيق الله تعالى وتثبيته، كما قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فأسند هذه الأفعال إليه سبحانه.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل»: (قد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظراً ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظراً ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول

ولا قوة إلا به؛ فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته خُذل، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة كثيراً ما يقول: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** ويقول في يمينه: **«لا ومقلب القلوب»**)ا.هـ.

وهذا التثبيت له أسباب من أهمّها سؤال الله تعالى التثبيت كما في قول الله تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]

وكما تقدّم في الأحاديث التي فيها سؤال التثبيت، وفعل الأسباب التي يثبّت الله بها قلوب عباده المؤمنين، ومن أهمّها اتّباع ما وعظ الله به عباده كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦-٧٠].

والحذر من زيغ القلوب وتقلّبها يعلّق قلب المؤمن بالله تعالى؛ فيبقى متوكلاً عليه في تثبيت قلبه وأن لا يزيغه، ومن توكّل على الله كفاه.

اللهمّ يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهاب.

الباب الرابع: أدواء القلوب وشفاؤها

• تمهيد

للقلوب أدواء وآفات تعرض لها، فإذا أصيب القلب ببعضها مرض وأصابه نوع فساد، ولكل داء دواءٌ ولكلّ آفة وقاية وعلاج، وصيانة القلب من الأدواء والآفات أهون وأسلم من معالجتها بعد تمكّنها من القلب وأخذها ببعض شعبه. وصاحب القلب الصحيح يشعر بمرض قلبه إذا مرض ويجد أثره؛ فيبادر إلى مداواته وتحصينه.

ولذلك كان الصالحون إذا أحسّوا من قلوبهم تغيّراً أنكروها وبادروا إلى إصلاحها.

وأمراض القلوب على أصناف:

- فمنها **أمراض شكّ وريبة**، وهي أمراض سببها الشبهة، وأثرها فساد التصور؛ وقد تفضي بالعبد إلى الكفر أو النفاق أو ضعف التصديق، أو ضعف أثره.

- ومنها **أمراض غلظ وقسوة**، وسببها الشهوة المقترنة بالظلم والعدوان، وإرادة العلوّ في الأرض والفساد، وأثرها فساد الإرادة وانحراف القصد عن الصراط المستقيم بالبغي والظلم.

- ومنها **أمراض ضعف ووهن**، وسببها الشهوة المقترنة بالذلّ والعجز، وأثرها مسكنة القلب وتذلّلـه لما تعلّق به ولمن تسلّط عليه.

وقد تجتمع في بعض القلوب أدواء من هذه الأصناف في أحوال مختلفة، فيكون غليظ القلب قاسياً على من دونه، وضعيف القلب ذليلاً لمن هو فوقه، وصاحب شكّ وارتياب.

وأدواء القلوب كثيرة، وأصولها: الجهل والعيّ، والشكّ والارتياب، والحرص والشحّ، والعُجْب والكِبْر، والغلّ والحسد، والشهوة والغضب، والغفلة والقسوة، والهوى والوَهَن.

- **الجهل والعيّ**

فأمّا الجهل والعيّ فهو أصل علل القلوب، لفقدان صاحبه البصيرة بما ينفع، ابتداء أو عقوبة.

فالجهل الأصلي فتنة لصاحبه، والجهل الذي يكون بعد قيام الحجة والإعراض عن الذكر عقوبة لصاحبه.

والسائر في الطريق بلا بصيرة يحصل له من الأذى بسبب التخرّص والتوهّم والتردد ما يجعله غير مطمئنّ القلب في ذلك الشأن.

فالجهل مرض في القلب شفاؤه الإنابة إلى الله، وطلب العلم، وحسن التصديق؛ فيحصل له بهذه الأمور من البصيرة في الدين والفرقان بين الحقّ والباطل، ما يكشف له حقائق الأمور وعواقبها، فيسير في طريقه على بيّنة من ربّه، والله تعالى يهدي إليه من أناب، ويوفّقه لفقه خطابه، والانتفاع بما يتعلّم، ومن صدقت إنابته إلى الله وبذل ما يستطيع من أسباب التعلّم وفّق لحسن التصديق.

وسبيل العلم التعلّم كما صحّ عن جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وروي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إن الرجل لا يولد عالما، وإنما العلم بالتعلم**» رواه وكيع في الزهد ومن طريقه أحمد بن حنبل في الزهد وابن أبي شيبة وأبو خيثمة في كتاب العلم كلهم من طريق وكيع عن سفيان الثوري أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمّه أبي الأحوص عن ابن مسعود.

- وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقه**». رواه أبو خيثمة في كتاب العلم والبيهقي في شعب الإيمان وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله من طرق عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة الكندي عن أبي الدرداء.

وهذا هو المحفوظ في هذا الحديث وقفه على أبي الدرداء كما ذكر الدارقطني في العلل؛ فقد رواه عن عبد الملك بن عمير موقوفاً: وكيع، وجرير بن عبد الحميد، وأبو عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكري.

ورجاء لم يدرك أبا الدرداء.

وقد روي مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان بأسانيد فيها ضعف، لكن مجموع هذه الأحاديث والآثار يدلّ على أنّ له أصلاً، وقد علّقه البخاري في صحيحه مرفوعا بصيغة الجزم؛ فقال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» و«**إنما العلم بالتعلم**»).

وقد يعرض للمرء عِيٌّ في مسألة من المسائل فيحصل له بها تأثر وحيرة واضطراب، وقد يسري بذلك إلى القلب علّة بسبب فقدان البصيرة أو خطأ التصور؛ فيكون على خطر من الوقوع في مصيبة أو فتنة، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى شفاء العيّ بقوله: «**شفاء العِيّ السؤال**» وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس، وجابر، وعليّ بن أبي طالب، وزيد بن أنيس.

فمن ابتلي بما يعيا به، ولم يتبيّن له الحقّ، ولم يكن أهلاً للاجتهاد؛ فلا ينبغي له أن يخبط في دينه خبط العشواء، وليسأل أهل العلم حتى يسير في دينه على بصيرة.

والعيّ نوع من الجهل لكنّه مخصوص بما يعيا به، ولذلك قد يقع للعالم عِيٌّ في مسائل تشكل عليه.

قال أبو سليمان الخطّابي: (يقال: عَيَّ الرجلُ بأمره يَعْيَا عِيًّا إذا لم يهتد له).

ويصحّ في الفعل الماضي أن يقال: عَيَّ، وعَيِيَ.

وقد كان من أهل هذا الشأن إذا عرضت لهم مسألة نازلة ولا سيما ما يستجدّ عليهم في عصرهم من الفتن سألوا من يتوسّمون فيه العلم والبصيرة في الدين عنها، والمسائل في علم السلوك في كتب السلف كثيرة جداً، وكان من أهل العلم من يتتبّع سير الأئمة في هذا الباب ويتعرّف أخبارهم وهديهم فيما يعرض لهم من الفتن ومعاملة الناس على اختلاف أصنافهم، وقد تقدّم قول أبي داوود السجستاني في أحمد بن أبي الحواري: (ما رأيت أحداً أعلم بأخبار النسّاك منه)، بل إنّ بعض المصنّفين في كتب الزهد رتّبوا كتبهم على سير الصالحين، وجمعوا فيها أخبارهم ووصاياهم.

- وقد قال ابن وهب: (حدثني مالك أن محمد بن سيرين قد ثَقل وتخلَّف عن الحج، فكان يأمر من يحج أن ينظر إلى هدي القاسم ولَبوسه وناحيته؛ فيبلّغوه ذلك؛ فيقتدي بالقاسم). رواه الفسوي وابن عساكر.

والقاسم هو بن محمد بن أبي بكر الصديق من الفقهاء السبعة من التابعين، نشأ في حجر عمّته عائشة رضي الله عنها وتربّى في بيت النبوة وأخذ من علماء الصحابة رضي الله عنهم علماً غزيراً مباركاً وكان صاحب علم وعبادة وهدي صالح، حتى قال عمر بن عبد العزيز في خلافته: «**لو كان لي من الأمر شيء لولّيت القاسم الخلافة**» رواه أبو يوسف الفسوي في المعرفة، فلذلك كان ابن سيرين يقتدي به، حتى أخذ منهجه في التحديث فكان القاسم يحدّث بالحديث على حروفه ولا يحدّث بالمعنى.

ومعرفة سير الصالحين من أهل العصر وغيرهم يستفاد بها شفاء العيّ فيما قد يعرض للسالك من مسائل قد يعيا بها لو لم يعدّ لها عدّتها.

• الشكّ والارتياب

وأمّا الشك والارتياب فهو أخطر أمراض القلوب، ويحصل لصاحبه ألم معنويّ لا يزول إلا بالعلم واليقين، وسبب الشك والارتياب عدم تصديق الله تعالى وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، والإعراض عن القرآن وهجره والإعراض عن اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلّ من لم يؤمن بالله ولم يتّبع الرسول فهو واقع في حيرة وشكّ يلازمانه، ولا يزولان عنه إلا بتحقيق الإيمان والاتّباع.

وقد يقع في قلوب بعض المسلمين ضعف تصديق؛ فيلتزم التصديق بقوله واعتقاده، لكنَّ حاله لا يصدّق ما قاله تمام التصديق، فلذلك يسري إلى القلب علل توقعه في نوع تردد وضعف أو جزعٍ ووَهَن.

وشفاء هذه العلّة بالازدياد من اليقين، وسبيله تدبّر القرآن والتبصّر ببصائره، واتّباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، والتفكّر والتذكّر.

• الغلّ والحسد

وأمّا الغلّ والحسد؛ فهما من أمراض القلوب الغالبة على كثير من الناس، وهم قرينان يتساعدان على إفساد القلب وتحسيره وتشتيت همّه.

فأمّا الحسد فحقيقته تمنّي زوال النعمة عن المحسود، وأصل العلّة التي تحمل الحاسد على الحسد إعجابه بنفسه وازدراؤه للمُنعَم عليه، وظنّه أنّه أولى بالنّعمة منه، وفي هذا سوء ظنّ بالله تعالى، وسوء أدب معه جلّ وعلا، وتحجّر لفضله الواسع.

والحاسد يتألّم من وجود النعمة على محسوده، وزوال تلك النعمة يرفع عنه هذا الألم؛ فيلتذّ بزوال النعمة عنه، وإن لم يكن له نفعٌ بزوالها.

وإذا استرسل الحاسد مع حسده أفضى به إلى البغضاء وهي الحالقة، ثم إلى أنواع من البغي والظلم والعدوان.

وشفاء الحاسد من الحسد: أن يُعالج ما في قلبه من سوء الظنّ بالله، والعُجب، وازدراء المحسود، وأن يبرّك عليه، ويسأل الله من فضله، ويرضى بما قسم الله له.

- وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي العلاء بن الشخير قال: حدثني أحد بني سُليم، ولا أحسبه إلا قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أن الله يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله له، بارك الله له فيه، ووسَّعه، ومن لم يرض لم يبارك له**».

واليقين بالله تعالى والتفكّر في أسمائه وصفاته وآثارها، واشتغال المرء بإصلاح قلبه ومداواة علله، والاستعداد للموت قبل نزوله، وتحقير شأن الدنيا في القلب، وتعظيم ما عند الله جلّ وعلا، كلّ ذلك مما يعين الحاسد على معالجة قلبه من الحسد حتى يشفى بإذن الله.

وإن خطر له خاطر حسد وجد أثره في نفسه فليكتمه، وليبرّك لأخيه، فمن كتم الحسد، وأنكره من نفسه، وعمل ما أرشد إليه لم يضرّه ما يجد من خواطر الحسد، بل هو مجاهد مأجور على مدافعتها.

- قال يونس بن عبيد: عجبت من كلمة محمد بن سيرين: «**ما حسدت أحداً على شيء من الدنيا، إن كان من أهل الجنة؛ فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار؛ فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو صائر إلى النار**». رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير.

وأمّا الغِلّ فهو داء دويّ ينغلّ في القلب فيورثه الحقد والضغينة وإضمار الشرّ وإرادة السوء، وهو متفاوت في قلوب المصابين به؛ فشرّهم من يكون الغلّ في

قلبه لعامّة المسلمين أو أئمّتهم أو لطائفة عظيمة منهم، ومنهم من يكون غلّه لفرد أو أفراد.

وقد أرشد الله تعالى عباده أن يدعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وفي التوسل إلى الله تعالى باسميه الرؤوف والرحيم لطلب السلامة من الغلّ ما ينبّه على خطر الغلّ، وأن من رأفة الله تعالى بعبده المؤمن ورحمته إيّاه أن يعافيه من الغلّ.

- وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «**ثلاث خصالٍ لا يُغِلّ عليهن قلبُ مسلم أبدا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**». رواه أبو داوود الطيالسي وأحمد والدارمي كلّهم من حديث شعبة بن الحجاج عن عمر بن سليمان بن عاصم بن عمر بن الخطاب عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه عن زيد بن ثابت، ورجاله ثقات، وله طرق أخرى، وروي أيضاً من حديث أنس بن مالك، وابن مسعود، وجبير بن مطعم، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، ومعاذ بن جبل، وأبي قرصافة الليثي، والنعمان بن بشير، وشيبة بن عثمان، وفي بعض هذه الأحاديث أن ذلك من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسجد الخيف بمنى.

قوله: «لا يغِل» ضُبط بضمّ الياء وفتحها وكسر الغين، ويُغلّ أي يورثه الغلّ، ويَغِلّ يزيغ.

- قال ابن القيّم رحمه الله في مدارج السالكين: (أي لا يبقى فيه غلّ، ولا يحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل تَنْفِي عنه غِلَّه، وتنقّيه منه، وتخرجه عنه)ا.هـ.

وشرح ذلك بكلام حسن مسهب في مفتاح دار السعادة، وخلاصته أنّ المخلص لله تعالى يمنعه إخلاصه غلّ قلبه لانصراف الدواعي إلى إسلام القلب لله تعالى والتعبّد إليه بأسمائه وصفاته، والله تعالى يصرف السوء والفحشاء عن أهل الإخلاص، والغلّ من السوء.

والنصيحة تطهّر القلب من الغلّ، وهو من معالجة الداء بضدّه المطهّر له؛ فالنصيحة ترياق الغلّ، ولا يجتمع الغل والنصيحة في موضع أبداً.

ولزوم جماعة المسلمين تطهّر القلب من الغلّ لأنها تحمل المسلم على أن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، فيسرّ لما يسرّهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم كحال أكثر أهل البدع والشقاق فإنّ قلوبهم ممتلئة غلّاً على جماعة المسلمين.

ومن لزم جماعة المسلمين أصابته دعواتهم الطيّبة لأنه منهم، فيحصل له من بركات دعواتهم ما له أثر كبير في تطهير قلبه من الغلّ، بخلاف من عزل نفسه عنهم أو غشّهم أو كان في قلبه غلّ عليهم فإنّه ليس منهم.

والخلاصة أنّ تمام الشفاء من الغلّ يحصل بما تقدّم ذكره من إرشاد الآية الكريمة إلى الاستعاذة بالله تعالى من الغلّ وما تضمنه هذا الحديث من إرشادات جليلة.

ومن كان غلّه على فرد أو أفراد فليجتهد في مدافعة ذلك، وأن لا يجعل بُغضه لأخيه بغضاً عامّا، وليعلم أنّ عواقب الأمور بيد الله جلّ وعلا؛ فإذا رأيت من أخيك ما يسوؤك في أمر، فقد ترى منه غداً ما يسرّك في أمور، وقد يُحدث الله أمراً تنقلب به العداوة إلى مودّة.

وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه**».

وحبّ الخير للمسلم ترياق الغلّ؛ ويهوّنه على المرء أن يجاهد نفسه على أن يكون حبّه لله وبغضه لله؛ فيحبّ من أخيه ما يأتي من طاعة الله، ويؤدّي له ما وجب من حقوق الإسلام، وإن كان ذا قرابة أدّى له حقّ القرابة طيّب النفس متقرباً بذلك إلى الله تعالى؛ فإنّه لا يلبث حتى يجعل الله له عاقبة حسنة؛ فيستفيد مع طهارة قلبه من الغلّ تلك العاقبة الحسنة بسبب اتّباعه هدى الله جلّ وعلا.

ومن كان سبب غلّه ظُلم وقع عليه من أخيه المسلم فإنّ طهارة القلب من الغلّ لا تقتضي إهدار حقّه، فله أن يطالب بحقّه غير متعدّ، فإن أعطيه انتفى موجِب الغلّ، وإن لم يُعطه بعد بذله أسباب المطالبة على وجهها وكل أمره إلى الله، ولم يجاوز ما يحلّ له من المطالبة بحقّه إلى الغلّ والحسد، ومن توكّل على الله كفاه، وإن عفا فهو أفضل وأكمل.

الحرص والشحّ

وأمّا الحرص والشحّ فهما من أدواء القلوب التي تمرضها وتعيث فيها فساداً، وتورثها آفات كثيرة.

فأما الحرص فإنه إذا لم ينضبط حمل صاحبه على تعدّي حدود الله في سبيل اكتساب المال والجاه والرئاسة والعلوّ في الأرض؛ فتسري إلى القلب آفات عظيمة من تضييع الفرائض، وارتكاب المحرمات، وشتات القلب، وتعلقه بالدنيا وغيرها.

وهو داء ينشأ من شدّة محبة الدنيا والشّره في طلب متاعها ومِنْ ضعف التوكّل على الله والرضا بما قسم.

- قال كعب بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»** رواه أحمد وابن ابي شيبة والدارمي والترمذي والنسائي في الكبرى وابن

حبان والبيهقي في شعب الإيمان من طريق زكريا بن أبي زائدة، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه.

ولابن رجب رسالة مفردة قيّمة في شرح هذا الحديث، ذكر فيها مراتب الحرص المذموم على المال والشرف، والمقصود بالشَّرف هنا ما يَشْرُف به المرء على غيره ويعلو عليه من الرئاسة والجاه والمراتب الدنيوية.

وخلاصة ما ذكره أنّ الحرص المذموم على مرتبتين:

الأولى: الحرص على المباحات في أصلها لكنّه بحرصه عليها أنزلها فوق منزلتها وعلّق قلبه بها، فسرى الفساد إلى القلب من هذه الجهة، فأشغل القلب بها، وضيّع ساعات عمره في طلب دنيا زائلة، وغفل عن اكتساب ما يبلّغه الدرجات العلى والنعيم المقيم.

والمرتبة الثانية: الحرص الذي يحمل صاحبه على اكتساب المال الحرام والمداهنة في الدين وبذل الرشا والحيل المحرمة، وهو داء أشدّ من الأوّل.

وأشدّ منه وأنكى أن يطلب الدنيا بعمل الآخرة؛ فيتعلّم العلم ليصرف وجوه الناس إليه، ويماري به العلماء، ويكتسب به المناصب؛ فمن أصيب بهذا الداء فالنار موعده إلا أن يرجع ويتوب.

وقال في صدر رسالته: (فهذا مثل عظيم جداً ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين يأتيا في الغنم، وقد غاب عنها رعاؤها ليلا، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل).

والشفاء من الحرص يكون بعلاج سببه الحامل عليه وتوجيه قوّة الحرص الكامنة في النفس إلى الحرص على ما ينفع كما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «**المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل**

خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» رواه مسلم وابن ماجه والنسائي في الكبرى من طريق ربيعة بن عثمان التيمي، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وله طرق أخرى.

فقوله: **«احرص على ما ينفعك»** عامّ في أمور الدين والدنيا، لكنّه في أمور الدنيا مخصوص بما لا يُخرجه إلى الحدّ الذي يُضرّ به دينَه؛ فإنّه حينئذ لا يكون حرصاً على ما ينفع، بل على ما يضرّ.

وقوله: **«واستعن بالله ولا تعجز»** جمع فيه بين الأمر بالاستعانة بالله وعدم الركون إلى النفس وجهدها أو إلى الخلق ومنّهم، والنهي عن العجز وهو ترك السبب الممكن.

فإذا انصرفت قوّة الحرص الكامنة في القلب إلى الحرص على ما ينفع، وكفّ المرء نفسه عن الهوى فقد شُفي من داء الحرص، وعوفي من بلائه.

ومما يسهّل على العبد صرف حرصه إلى ما ينفعه أن يوقن بأنّ كلَّ ما تطلبه النفس مما يُغضب اللهَ تعالى قد أبدل الله المؤمنين خيراً منه وأسلم، بل يأتيه ما يطلبه بالإخلاص لله تعالى على أكمل وجه وأحسنه، حتى الثناء الذي تستلذه كثير من النفوس عوّض الله أهل الإخلاص عن التعرّض لطلبه من الناس بأن تولّى الثناء عليهم في الملأ الأعلى، وأين ثناء الخالق العظيم من ثناء المخلوقين الضعفاء.

وعوّضهم عن طلب رضا الناس بسخطه بأن جعل لهم ودّا في قلوب عباده، والودّ هو صفو المحبة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

قال ابن عباس: «**محبة في الناس في الدنيا**».

وقال مجاهد: «**يحبهم ويحببهم إلى خلقه**».

وقال قتادة: «**ما أقبل عبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه، وزاده من عنده**».

وقال ابن كثير رحمه الله: (يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه)ا.هـ.

- كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً فأحبه.**

قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء.

قال: ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض عبداً، دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه.

قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه.

قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض». هذا لفظ مسلم.

- وفي صحيح ابن حبان من حديث محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من التمس رضي الله بسخط الناس رضي الله تعالى عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**» وقد رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والترمذي وهناد وغيرهم بلفظ مقارب.

فتبيّن بذلك أنّ صرف قوّة الحرص إلى ما ينفع المرء في دينه ودنياه فيه خير له وأسلم من الحرص المذموم، بل لا مقارنة بين ما يحصّله صاحب الحرص المحمود من الخيرات والبركات والسلامة وبين ما يطلبه صاحب الحرص المذموم الذي عرّض نفسه للهلكة بجريه وراء سراب المطامع الدنيوية الزائلة.

قال ابن رجب: (وبكل حال؛ فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف الدنيا، وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه، وطلب شرف الدنيا يمنع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيد من آثر الباقي على الفاني، كما في حديث أبي موسى، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى**»).

وأمّا الشحّ فهو داء دويّ، يأمر صاحبه بالبخل والقطيعة، ويمنعه أداء الحقوق الواجبة، ويوقعه في خصال ذميمة، وإذا استشرى الشحّ في قوم وقع بينهم من الشقاق والخلاف ما لا تأتلف معه القلوب، ولا يستقرّ به الحال، بل ربما أفضى بهم إلى الفجور وانتهاك الحرمات وسفك الدماء.

وإذا استشرى في قلب أفسده؛ فزاد تعلّقه بالدنيا، ومنع الحقوق الواجبة، وأصابه بالجزع والضجر وسوء الخلق، فإن أصابه خير اغتمّ به، في حفظه ومنع إنفاقه، وإن أصابه شرّ اشتدّ جزعه.

ولا يكاد يسلم الشحيح من الحرص، وهو من موانع الفلاح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩] في موضعين من القرآن.

- وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اتقوا الظلمَ؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإنَّ الشح أهلك من كان قبلكم، وحملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**» رواه مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند من طريق داود بن قيس عن عبيد الله بن مقسم عن جابر.

- وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والشح، فإنه دعا من قبلكم فاستحلوا محارمهم، وسفكوا دماءهم، وقطعوا أرحامهم**». رواه الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، من طرق عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

- وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وبالبخل فبخلوا، وبالفجور ففجروا**» رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داوود والنسائي في الكبرى وغيرهم من طريق عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن أبي كثير زهير بن الأقمر الزبيدي، عن عبد الله بن عمرو.

- وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**شرُّ ما في رجل شحٌّ هالع، وجبن خالع**». رواه أحمد وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة وأبو داوود وغيرهم من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عبد العزيز بن مروان عن أبي هريرة.

وفي رواية عند البيهقي في شعب الإيمان عن موسى بن علي بن رباح قال: (الهالع: المحزن، والخالع: المخيف الذي يخلع القلب من شدته).

وقال ابن جرير: (الهلع: شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر).

وهو كما فسّره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢١] فهذه صفة الهَلوع.

- وقال أبو هريرة أيضاً رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يجتمع الشح والإيمان في جوف عبد أبداً**» رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وسعيد بن منصور وأبو داود الطيالسي وابن أبي شيبة والنسائي في الكبرى وغيرهم من طريق صفوان بن أبي يزيد، عن القعقاع بن اللجلاج، عن أبي هريرة.

- وقال أبو الهيَّاج الأسدي: (كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلا يقول: «**اللهم قني شحَّ نفسي**». لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: «**إني إذا وقيت شحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئا**» وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف). رواه ابن جرير في تفسيره والفاكهي في أخبار مكة من طريق سفيان الثوري عن طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن أبي الهيّاج.

- وقال الأسود بن هلال: (جاء رجل إلى عبد الله [ابن مسعود] فقال: خشيت أن تصيبني هذه الآية: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩] الآية، ما أستطيع أن أعطي شيئا أطيق منعه، قال عبد الله: «**ذاك البخل، وبئس الشيء البخل**») رواه ابن أبي شيبة.

وقد دلّت هذه الأحاديث والآثار على أنّ الشحّ أعمّ من البخل من وجوه:

أحدها: أنّ البخل متعلّق بالمال، والشحّ متعلّق بكلّ ما تطمع النفس فيه من مال ومنفعة وشهوة وغيرها.

والثاني: أن الشحّ صفة كامنة في النفس؛ والبخل ثمرة الشحّ؛ فمن بخل فقد أطاع شحّ نفسه، ومن لم يبخل فقد عصى شحّ نفسه.

فالشحّ يأمر بالبخل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وبالبخل فبخلوا، وبالفجور ففجروا**».

فهو يأمر بأشياء أعمّ من إمساك المال، ولذلك قال شيخ الإسلام قال ابن تيمية: (كل شحيح بخيل، وليس كل بخيل شحيحاً).

والعرب قد تطلق على البخيل وصف الشحيح مبالغة في التشنيع وتنبيهاً على ما في نفسه من الشحّ الذي أمره بالبخل، والشحّ شرٌّ من البخل.

والثالث: أنّ البخل متعلّق بالإمساك، والشحّ متعلّق بالطلب والإمساك، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩].

فهؤلاء المنافقون في حال القتال يشحّون على المسلمين بأنفسهم وأموالهم، فإذا ذهب الخوف وحضرت الغنيمة سلقوهم بألسنة حدادٍ أشحّة على الخير أي الغنيمة؛ فيحملهم شحّهم وشرَهُ أنفسهم على المزاحمة والأذية ودعوى ما ليس لهم والعيب والطعن على المسلمين ليجدوا لأنفسهم وسيلة إلى الغنيمة، وفي بعض الحروف [صلقوكم] بالصاد، والصلق رفع الصوت بالأذية.

قال ابن جرير: (فأخبر أن سلقهم المسلمين شحّا منهم على الغنيمة والخير، فمعلوم إذ كان ذلك كذلك، أن ذلك لطلب الغنيمة).

والمقصود أنّ شحّهم الأول كان في مقام البذل فشحوا بأنفسهم وأموالهم عن بذلها في سبيل الله.

وشحَّهم الآخر في مقام الطلب والطمع.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيه أنّ الشحّ والإيمان لا يجتمعان، كما جاء في الحديث.

وقال الكلحبة العرني:

إنا نعفّ فلا نريب حليفنا ... ونكفّ شحّ نفوسنا في المطمع

والرابع: أنّ البخل متعلّق بمال المرء نفسه، ولا يعنيه بذل غيره للخير، بل ربما وجد له نفعاً، وأمّا الشحيح فضيق نفسه وخبثها يكره فعل الخير حتى من غيره وتضيق به نفسه.

والناس يتفاوتون في الشحّ؛ فمنهم من يكون شديد الشحّ وهذا من شأن المنافقين، ومنهم من يكون في نفسه شحّ يطيعه أحياناً ويعصيه أحياناً أخرى فإذا قوي في نفسه داعي الإيمان والتقوى عصى شحّه، وإذا ضعف إيمانه وحضره شحّه أطاعه.

ومن الناس من لا يجد في نفسه شحّاً في حال السعة؛ فإذا كان في موضع مطمع أو إنفاق أو نزاع حضره شحّ النفس كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ١٢٨﴾ [النساء: ١٢٨].

- وقال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن: ١٦].

- وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩].

فدلّت هذه الآيات على سبيل الشفاء من الشحّ، وأن أصله: الاستعاذة بالله، والتقوى والإحسان.

- فقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فيه تنبيه على أنّ الذي يقي الناسَ شُحَّ أنفسهم إنما هو الله جلّ وعلا، فيلجأ المؤمن إلى ربّه ويسأله أن يقيه شُحَّ نفسه، ويبذل من الأسباب التي أرشد الله إليها ما يرجو أن تحصل له به تمام الوقاية من شحّ النفس.

- والأمر بالتقوى في هذه الآيات فيه تنبيه على العصمة من الشحّ؛ فيتقي العبد ربّه فلا يأخذ ما لا يحلّ له، ويتقي ربّه في جانب البذل فلا يُمسك ما يجب عليه بذله من مال أو غيره، فهذه هي الدرجة الأولى من التعافي من الشحّ، ثم يأخذ نفسه بالإحسان والإنفاق حتى تطيب نفسه بما يبذل، ولا يجد في نفسه حاجة مما

أوتي إخوانه المسلمون فيكون سليم الصدر سخيّ النفس فيحصل له بذلك تمام البراءة من الشحّ بإذن الله.

- قال نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك يقول: «**سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل، ومروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء**». رواه ابن الشجري في أماليه.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: ١٢٨] إشارة إلى أنّه ينبغي للمؤمن أن يتفكّر في أعماله وما فيها من تقصير فيعفو ويتسمّح لأخيه ولا يستقصي منه لما يقوم في قلبه حينئذ من خشية أن يستقصي الله عليه إن استقصى على أخيه، فيسهل عليه العفو رجاء أن يعفو الله عنه.

- وقال خالد بن زيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**برئ من الشحّ مَن قرى الضيف، وأدى الزكاة، وأعطى في النائبة**» رواه هناد في الزهد وابن زنجويه في الأموال وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني والنسائي في السنن الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير من طريق مجمّع بن يحيى عن خالد بن زيد، وقد اختلف فيه فقيل هو خالد بن زيد بن جارية، وقيل ابن حارثة، وقد ذكره البخاري في التابعين، وقال ابن حبان: مرسل.

وروراه ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان من طريق إسماعيل بن عياش، قال: حدثنا مجمع بن جارية الأنصاري، عن عمه يزيد بن جارية الأنصاري، عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**برئ من الشحّ من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة**».

وروي أيضاً من حديث جابر وابن عمر ومن قول الأوزاعي، وفي أسانيده اضطراب، وقد ضعّفه الألباني.

لكن لا ريب أنّ من أدّى الحقّ الواجب واتّقى الله فلم يأخذ ما لا يحلّ له فقد برئ من الشحّ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «**من لم يأخذ شيئًا لشيء**

نهاه الله عزّ وجلّ عنه، ولم يدعه الشحّ على أن يمنع شيئًا من شيء أمره الله به، فقد وقاه الله شحّ نفسه، فهو من المفلحين». رواه ابن جرير.

العجب والكبر

وأما العجب والكبر فداءان قبيحان من شرّ أدوية القلوب، يجلبان مقت الله وسخطه، وظلمة القلب، والبغضة في نفوس الخلق، ومحق بركة العمل، وسوء العاقبة، وهما من أعظم أسباب الخذلان والخسران، والعياذ بالله.

فأمّا العجب فهو داء وبيء يسري إلى القلب فيُفسده، ويحبط العمل، ويجلب المقت، وسببه رؤية النفس واستعظامها، والعماية عن تقصيرها وقصورها، والغفلة عن منّة الخالق جل وعلا.

والعجب يوقع في آفات كثيرة، منها ضعف التوكّل، والاعتماد على النفس، والاستبداد بالرأي، وحبّ العلوّ في الأرض، وازدراء الناس، وردّ النصيحة، والشماتة بالمخطئ والمبتلى؛ فإن تمادى قاد إلى الكبر والخيلاء.

وقد صحّ في التحذير من العجب أحاديث وآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، ولم يزل أهل العلم يحذّرون منه، وينبّهون على شدّة خطره.

- قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجّل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**» رواه البخاري ومسلم من حديث محمد بن زياد عن أبي هريرة، وله طرق أخرى، وروي من حديث ابن عمر أيضاً.

- وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا**». روي عنه من حديث أنس بن مالك وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن أبي أوفى

وعبدالله بن عمر، وطرقه كلها لا تخلو من ضعف، وبعض تلك الطرق معتبر، وقد حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

- وقال طلحة بن عبيد الله بن كريز: قال عمر: «**إن أخوف ما أتخوف عليكم شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء برأيه، وهي أشدهن**» رواه ابن أبي شيبة، وروي عن عمر أيضاً من طريق مجاهد عن سعيد بن المسيب.

- وقال أبو الدرداء: «**لولا ثلاث صلح الناس: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**». رواه ابن المبارك في الزهد، وأبو داوود في الزهد من طريقين عن أبي الدرداء.

- وقال مسروق بن الأجدع: «**كفى بالمرء علما أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بنفسه**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش القتباني، عن يزيد بن قوذر قال: قال كعب [الأحبار] وأتاه رجل ممن يتبع الأحاديث: «**اتق الله وارض بدون الشرف من المجلس، ولا تؤذين أحدا، فإنه لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العجب ما زادك الله به إلا سفالا ونقصا**» رواه أبو نعيم في الحلية، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.

- وقال حزم بن أبي حزم: سمعتُ الحسنَ يقول: «**لو كان كلام بُنيَّ آدم كله صدقا، وعمله كله حسنا، يوشك أن يخسر**».

قال: وكيف يخسر؟

قال: «**يعجب بنفسه**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال الحارث بن نبهان: سمعت محمد بن واسع، يقول: «**وأصحاباه، ذهب أصحابي**».

قلت: يرحمك الله أليس قد نشأ شباب يقرءون القرآن ويقومون الليل ويصومون النهار ويحجون ويقرءون؟

قال: «**أفسدهم العجب**» رواه الإمام أحمد في الزهد.

- وقال سفيان بن سعيد الثوري: قال أبو حازم: «**أَخْفِ حسنتك كما تخفي سيئتك، ولا تكونن معجباً بعملك فلا تدري أشقي أنت أم سعيد**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال مطرف بن عبد الله: «**لأن أبيت نائما وأصبح نادما، أحب إلي من أن أبيت قائما، وأصبح معجباً**». رواه ابن المبارك في الزهد.

- وقال معاوية بن قرة: «**كانوا يرون أنه يموت مذنبا نادما أحبّ إليهم من أن يموت معجبا**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعد يقول: «**إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته**». رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق.

- وقال عبد الله بن المبارك: «**ولا أعلم في المصلين شيئا شرا من العجب**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وقال ذو النون المصري: «**دوام الفقر إلى الله مع التخليط أحب إلي من دوام الصفاء مع العجب**». ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة وابن القيّم في طريق الهجرتين.

ومن خطر العُجب أنّه يعرّض صاحبه للفتنة فيما أعجب به، وقد يعرّضه للخذلان من جهته كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وكان هذا العجب قد وقع من بعض الصحابة ولم يقع من النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعض فقهاء الصحابة وكبارهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحذر من العجب، كما في مسند الإمام أحمد ومصنف ابن أبي شيبة والسنن الكبرى للنسائي من طريق ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أيام حنين يحرّك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله فقلنا: (يا رسول الله، إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله فما هذا الذي تحرك شفتيك؟).

قال: «**إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء فأوحى الله إليه: أن خيّر أمتك بين إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت، فشاورهم، فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت، فأرسل عليهم الموت، فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا**».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فأنا أقول الآن** -حيث رأى كثرتهم-: **اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل**».

والشفاء من العُجْب يكون بالبصيرة والإخلاص والتوكل والتفكّر في السوابق والعواقب، وبها تُعالج أسباب العجب وآثاره؛ فيتفكّر في نفسه وتقصيرها وقصورها، وأنه لا يبلغ شكر نعمة ربّه مهما عمل، ولا سبيل له إلى طاعة إلى بتوفيق من الله تعالى وحده، وأن يعلم أنّ كلّ عمل لا يُراد به وجه الله فهو باطل، فيقوده ذلك إلى ابتغاء وجه الله في عمله، واطّراح رؤية النفس التي لا ينجيها إلا رحمة الله تعالى، وعدم الاعتماد عليها.

والسوابق هي ما سبق للمرء في علم الله أشقيّ هو أم سعيد، والعواقب تشمل عواقب كلّ عمل، وغايتها عاقبة نفسه في دار الجزاء.

- قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: «**إذا أنتَ خفتَ على عملك العجب؛ فاذكر رضا من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب، وأي عافية تشكر، وأي بلاء تذكر؛ فإنك إن ذكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينيك ما قد عملت**». رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وأمّا الكبر فدَاء عظيم الخطر شديد الضرر على القلب، صاحبه ممقوت مذموم، ومخذول محروم، مطموس البصيرة، عظيم الجريرة، متعرّض للوعيد الشديد بالعذاب الوبيل.

والنصوص في ذمّ الكبر كثيرة:

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: ٢٣].

- وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: ٦٠].

- وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧٣﴾ [النساء: ١٧٣].

- وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

- قال السدي: «**سأصرفهم أن يتفكروا في آياتي**». رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ الأصبهاني.

- قال سفيان بن عيينة: «**أنزع عنهم فهم القرآن، فأصرفهم عن آياتي**» رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ الأصبهاني.

وتفسير ابن عيينة هو من باب الاستدلال بعموم اللفظ ثم التمثيل عليه بأمر قد يُغفل عنه، وإلا فإنّ سياق الآيات كان في بني إسرائيل بعد نزول التوراة، ولم يكن القرآن قد أنزل عليهم، لكن لا ريب أنّ من عمل من هذه الأمة بمثل العمل الذي ذمّ الله به عصاة بني إسرائيل فهو مستحقّ لعقاب من جنس عقابهم.

ولفظ «الآيات» عامٌّ في كلّ ما يستدلّ به على وحدانية الله تعالى وصدق رسله صلوات الله وسلامه عليهم فيما أخبروا به، ومن ذلك البعث والجزاء وما يجب على المكلّف من العمل لينجو من سخط الله وأليم عقابه، وينال فضله ورحمته ورضوانه.

وصرفهم عن التفكّر في الآيات هي من عقوبة تكبّرهم الذي حملهم على عدم الإيمان بكلّ آية رأوها، واختيارهم سبيل الغيّ على سبيل الرشد، وتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها لإعراض قلوبهم عن التفكّر فيها.

وفي هذا تحذير عظيم لهذه الأمّة؛ بأنّ التكذيب بآيات الله والغفلة عنها يوقعان في هذه البلايا العظيمة من سلوك سبيل الغيّ، واجتناب سبيل الرشد فلا تنفع قلوبهم المواعظ ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤۡمِنُواْ﴾ [الأعراف: ١٤٦] فإذا فعلوا ذلك استحقّوا العقوبة العظيمة بالصرف عن آيات الله والختم على قلوبهم.

لأن حقيقة هذه الأعمال الجامعة لها قائمة على الاستكبار عن آيات الله وعدم التفات قلوبهم إلى التفكر فيها.

والكبر كما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم: هو بطر الحقّ وغمط الناس؛ فبطر الحقّ ردّه تعاظماً عليه، وغمط الناس ازدراؤهم وتنقّصهم واحتقارهم.

والكبر على درجتين:

إحداهما: الكبر في أصل الدين؛ فيمنعه من الدخول في دين الله وعبادته، وهذا هو بلاء كثير من الكفار والمشركين.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

ومعلوم أنّ الذي يستكبر عن عبادة ربّه جلّ وعلا فهو كافر لا حظّ له في الإسلام سواء أكان كفره كفراً أصلياً أو ردّة عن الدين، وهو الذي يسمّيه بعض أهل العلم «كِبْر الكفر» كما في شرح السنة للبغوي وغيره.

والدرجة الثانية: كبر يحمل صاحبه على بطر بعض الحقّ وغمط بعض الناس، وإن كان في أصل الدين خاضعاً لله تعالى منقاداً له، وهو كبيرة من الكبائر وقد يوصل إلى الكفر في أحوال فيلتحق بالدرجة الأولى، لكن الفرق بين الدرجة الأولى والثانية، أن الكبر الذي يُعدّ كبيرة وليس كفراً في الأصل ليس مراد صاحبه التكبّر عن الانقياد للدين، لكنّه قد يردّ بعض الحقّ ولا سيما إن جاءه عن طريق من يكره، ولو عرفه في نفسه، فيردّه كبراً وتعاظماً على من أتى به وأنفة من أن يكون تابعاً في ذلك الحقّ.

وقد يقع منه غمط لبعض الناس واحتقار لهم وازدراء وترفع عليهم بعدم السلام أو ردّه، وبأن لا يراهم أهلاً لأن يؤدي لهم حقوقهم في الدين.

وهذا الكبر محرّم بإجماع العلماء، وقد وردت النصوص في التحذير الشديد منه.

- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة.

قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس» رواه مسلم والترمذي من حديث إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود.

ورواه أحمد في مسنده من طريق آخر عن ابن مسعود وفيه تسمية ذلك الرجل وهو مالك بن مرارة الرهاوي.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم: وكان رجلا جميلا، فقال: يا رسول الله، إني رجل حُبّب إليَّ الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال: بشراك نعلي، وإما قال: بشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟

قال «**لا، ولكن الكبر من بطر الحق، وغمط الناس**» رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داوود من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة.

قال البيهقي: (قوله: «**بطر الحق**»: يعني الكبر عند الحق فلم يقبله، وقوله: «**غمط الناس**»: يعني احتقرهم).

وهذا النصّ من نصوص الوعيد؛ فهو ليس نصّا في تكفير من كان في قلبه شيء من الكبر من أهل الإسلام؛ فقوله: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر**» نصّ عام في جميع أنواع الكبر، ومنعه من دخول الجنّة مع وجود مثقال ذرّة من كبر، هو نظير منع من كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان من الخلود في النار.

فهو متوعّد بالعذاب حتى يتطهّر من الكبر كلّه فلا يدخل الجنّة إلا نفس طيّبة قد ذهب عنها خبثها، وهذا لا يكون إلا لمن كان في قلبه إيمان، وأما من حمله كبره على ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام من غير عذر جهل ولا تأويل ومات على ذلك فهو كافر مرتدّ عن دين الإسلام، ويلتحق بأصحاب الدرجة الأولى.

وإذ كان هذ النصّ من نصوص الوعيد التي لا تقتضي كفر من كانت فيه؛ فيكون حكمه حكم أهل الكبائر، فمنهم من يُعذّب، ومنهم من تدركه رحمة أرحم الراحمين فيغفر له تكرماً منه أو يهيّئ له سبباً من أسباب العفو كشفاعة الشافعين، والحسنات الماحية، ودعوات المسلمين، والملائكة، وأعمال صالحة جرت له بعد موته، أو مصائب وبلايا أصيب بها في حياته، أو عذاب في قبره أو في عرصات يوم القيامة، فإن لم تنفعه هذه الأسباب وكان في قلبه إيمان عُذّب في النار حتى يذهب خبث نفسه ويتطهّر مما فيه من الكبر، ثم تدركه بعض هذه الأسباب برحمة الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن في قلبه مثقال ذرة من هذا يوجب له أن يجحد الحق الذي يجب عليه أن يقر به وأن يحتقر الناس فيكون ظالما لهم معتديا عليهم فمن كان مضيعا للحق الواجب؛ ظالما للخلق. لم يكن من أهل الجنة ولا

مستحقا لها؛ بل يكون من أهل الوعيد. فقوله: «**لا يدخل الجنة**» متضمن لكونه ليس من أهلها ولا مستحقا لها، لكن إن تاب أو كانت له حسنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه ونحو ذلك زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة؛ فيدخلها أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه؛ فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر).

قال: (ولهذا قال: من قال في هذا الحديث وغيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب؛ لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة؛ فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار. فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة ولا يدخلها بلا عذاب بل هو مستحق للعذاب لكبره كما يستحقها غيره من أهل الكبائر ولكن قد يعذب في النار ما شاء الله فإنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد وهذا كقوله: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**» وقوله: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**» وأمثال هذا من أحاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفي المسلمين).

- وقال في موضع آخر: (كثير من المنتسبين إلى العلم يُبتلى بالكِبْر كما يُبتلى كثيرٌ من أهل العبادة بالشرك ولهذا فإن آفة العلم الكِبْر وآفة العبادة الرياء وهؤلاء يُحْرَمون حقيقة العلم كما قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال أبو قِلابة: «**منع قلوبهم فهم القرآن**» ولهذا كان الكِبْر كثيرًا في اليهود وأشباه اليهود الذين يعلمون الحقَّ ولا يتبعونه والشرك كثير في النصارى وأشباه النصارى الذين يعملون ويعبدون بغير علم.

والمهتدون هم الذين يعلمون الحق ويعملون به كما قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوبٌ عليهم والنصارى ضالون)ا.هـ.

والمقصود التفريق بين الكبر المخرج من الملة، والكبر الذي يعدّ من كبائر الذنوب ولا يخرج من الملّة بمجرّده، مع شدّة خطره وإشراف صاحبه على الهلكة.

ومن تأمّل الأحاديث والآثار الواردة في التحذير من الكِبر تبيّن ما فيها من شدّة الترهيب من الكِبر:

- فعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «**العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني بشيء منهما عذبته**» رواه البخاري في الأدب المفرد ومسلم في صحيحه من حديث أبي إسحاق عن أبي مسلم الأغرّ عنهما، ورواه أحمد وابن ماجه وأبو داوود من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي مسلم الأغرّ عن أبي هريرة بلفظ: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما قذفته في النار**».

- وقال حارثة بن وهب الخزاعي: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟**».

قالوا: بلى.

قال: «**كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره**».

ثم قال: «**ألا أخبركم بأهل النار؟**».

قالوا: بلى.

قال: «**كل عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر**». رواه أحمد والبخاري ومسلم من حديث معبد بن خالد القيسي عن حارثة.

- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال**» رواه عبد الله بن المبارك في الزهد، وأحمد في المسند، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي والنسائي في الكبرى، وغيرهم من طرق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهو إسناد حسن، وقد حسّنه الترمذي وابن حجر والألباني.

والمقصود أن الكبر من أعظم أدواء القلوب، ومن أعظم ما يفسد التصوّر، وينحرف بالإرادة، وهو من أسباب حرمان العلم والبصيرة في الدين.

قال مجاهد: «**لا ينال العلم مستحي ولا مستكبر**». علقه البخاري في صحيحه، ووصله البيهقي في المدخل من طريقٍ ابن وهب عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

والشفاء من الكبر يكون بالتوبة الصادقة إلى الله تعالى، والتواضع لله، والتواضع للخلق، ومداواة العجب الذي هو أصل الكبر.

ومما يعين على ذلك:

١: التفكّر فيما يؤول إليه الكبر من الذلّ العظيم والشقاء والحرمان كما تقدّم في النصوص والآثار، والتفكر فيما يلزم المتكبّر من الذلّ في حاله.

- قال عمران بن موسى المؤدب: قرأت في بعض الكتب: «**ما رأيت أحداً قط تكبر على من دونه إلا وبذلك المقدار يجود بالذلة لمن فوقه**». رواه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق».

٢: توطين النفس على قبول الحقّ ممن جاء به وإن كان صغيراً.

- قال ابن رجب: (قال بعض السلف: التواضع: أن تقبل الحق من كل من جاء به، وإن كان صغيرا، فمن قبل الحق ممن جاء به، سواء كان صغيرا أو كبيرا، وسواء كان يحبه أو لا يحبه، فهو متواضع، ومن أبى قبول الحق تعاظما عليه، فهو متكبر.

وغمص الناس: هو احتقارهم وازدراؤهم، وذلك يحصل من النظر إلى النفس بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص).

٣: حبّ المساكين، وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**وأسألك حبّ المساكين**» فحبّهم ينفي التكبّر عليهم من القلب.

٤: ومداواة القلب متى خاف المرء على نفسه الكبر بأعمال فيها تواضع لله تعالى ولخلقه من غير مهانة فيهذّب بها نفسه، ويزيل ما فيها من الكبر، وقد روي في ذلك آثار عن السلف؛ فكان منهم من يخدم العامّة ببعض أعمال الخدمة التي يأنف منها أهل الكبر وليس فيها امتهان للنفس ومنافرة الطبع.

٥: وتهذيب القوّة الداعية إلى الكبر في نفسه بصرفها إلى مصارف محموده من الاجتهاد في إعلاء كلمة الله تعالى، والجهاد في سبيله ومراغمة أعداء الدين تقرّباً إلى الله تعالى.

- وفي حديث عبد الرحمن بن جابر بن عتيك عن أبيه رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة، وإن من الخيلاء ما يبغض الله، ومنها ما يحب الله، فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال، واختياله عند الصدقة، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي**» وفي رواية: «**والفخر**». رواه أبو داوود والطحاوي والطبراني والطبراني وابن حبان من طرق عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن ابن جابر بن عتيك.

وفي سيرة ابن إسحاق عن معاوية بن معبد بن كعب بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رأى أبا دجانة يتبختر: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن**» وهو مرسل.

وقد اختلف العلماء في معنى الاختيال الذي يحبّه الله عند الصدقة على أقوال منها: أن حقيقته اختيال على النفس الشحيحة، أو على الشيطان، قيل غير ذلك.

والأقرب أن ذلك مخصوص بالصدقة التي يكون المرء أسوة لغيره فيتصدّق بصدقة جزلة علانيةً يكون فيها نفع للمحتاجين ويدفع غيره للاتساء به مع تحقيقه الإخلاص لله تعالى في ذلك؛ فيكون اختياله بالصدّقة في معنى إظهاره لها ومشيه بها بانبساط نفس وأريحية.

ويفسّره ما في صحيح مسلم وغيره من حديث المنذر بن جرير، عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر فتمعَّر وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] إلى آخر الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١] والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] «**تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره** -حتى قال- **ولو بشق تمرة**» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل، كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**».

والله تعالى أعلم.

الشهوة والغضب:

الشهوة والغضب صفتان جبليّتان وقوّتان فطريتان في بني آدم، وهما أصل قوّة الطلب والدفع في القلب الذي هو محلّ الإرادة.

فالشهوة جامعة لكلّ ما تميل إليه النفس من متع الحياة، والغضب باعثه إرادة دفع المضرة كما يتصوّرها صاحبها.

ولذلك فإنّ الشهوة والغضب هما الأصلان الجامعان لأمراض القلوب، وبهما ينصب الشيطان شراكه لبني آدم، فمن هذّبهما، وفطن لحبائل الشيطان فيهما، وصرفهما فيما أذن الله به، فقد وقي شرّهما، ومن وقي شرّهما فقد وقي من آفات كثيرة، وبلايا عظيمة.

- قال ابن القيم رحمه الله: (الله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان - بل وسائر الحيوان - على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية وشهوانية، وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جِبلّةِ كل حيوان:

فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه.

وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها.

فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص.

وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة.

فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد.

وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبدا به: أورثه الحسد.

فإن ظفر به: أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح.

وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم، ومنه يتولد: الكبر والفخر والخيلاء؛ فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب، وتزوج أحدهما بصاحبه)ا.هـ.

فأمّا الشهوة فهي مصدر شَهِيتُ الشيءَ واشتهيته شهوة واشتهاءً، ثمّ أطلق على كل ما يُشتهى اسم «الشهوة» من باب تسمية المفعول باسم المصدر، فلذلك تطلق الشهوة على فعل المشتهي بقلبه، وعلى ما يشتهيه فهو شهوة له، والجمع شَهَوات.

والشهوات على أنواع منها: شهوة الطعام، وشهوة الشراب، وشهوة النكاح، وشهوة المال، وشهوة الملبس، وشهوة المركب، وشهوة الكلام، وشهوة النظر، وشهوة السمع، وشهوة الرئاسة، وشهوة المجالسة، وشهوة الفضول، وغيرها.

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وهذه أصول ما يشتهيه بنو آدم من متع الحياة بما جُبلوا عليه، ثم من الناس من تفسد فطرته وتنتكس فيشتهي ما ينكره أصحاب الفطر السليمة.

وبُني الفعل «زُيّن» لما لم يُسّم فاعله لاختلاف أحوال الناس فيما يُزيّن لهم، فأصحاب الفطر السليمة والتقوى إنما زُيّن لهم منها ما أباحه الله، واستعملوه فيما أذن الله به، والله تعالى هو الذي زيّن لهم منّة منه عليهم، ولولا ذلك ما طابت حياتهم، ولا وجدوا متعة فيما يتناولون من الشهوات المباحة.

ومن الناس من يُزيّن له الشيطان أو تزيّن له نفسه الأمّارة بالسوء ما حُرّم عليه أو يُبالغ له في تزيين ما هو مباح في الأصل.

فما كان من التزيين متمحضاً للخير والصلاح فهو من تزيين الله تعالى، وما كان من تزيين محرّم أو مغالاة في مباح الأصل فهو من تزيين النفس والشيطان، والله تعالى لا يُنسب إليه الشر.

ولذلك إذا ذكر الخير المحض صرّح بنسبته إلى الله تعالى لأنّه هو المانّ به كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧].

وإذا ذكر الشرّ المحض صرّح بنسبته إلى من هو أهله إلا لفائدة أجلّ، كما في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وقوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: ٢٤].

وإن كان لا يقع شيء في ملكوت الله تعالى إلا بإذنه وتقديره، ولذلك لما أريد بالتزيين الأمر الكوني القدري في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾ [النمل: ٤]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨] صُرّح فيه بإسناد التزيين إلى الله تعالى خلقاً وتقديراً.

وفي هذه المسألة بسط ليس هذا موضعه.

ومن الشهوات ما هو خفيّ غير ظاهر، وقد تختل إلى القلب في ثوب القصد الصالح وحقيقتها شهوة دنيوية خفية.

- قال شداد بن أوس رضي الله عنه: «**إن أكثر ما أن أخاف على هذه الأمة الرياء والشهوة الخفية، إنكم والله لتؤتون من قبل الرؤوس الذين إذا أمروا بخير أطيعوا، وإذا أمروا بشرّ أطيعوا**». رواه أبو داوود في الزهد من طريق الزهري عن محمود بن الربيع عن شداد، وإسناده صحيح.

- قال أبو داود: «**الشهوة الخفية: حب الرياسة**».

قلت: هذا من باب التمثيل، كأن يُنكر المنكر لأجل أن يُسمع كلامه ويطاع أمره فيترأس على من حوله بذلك، والشهوات الخفيات كثير ويجمعها أن يعمل عملاً صالحاً ثم تداخله شهوة محرمة في نيته فتنقص أجره أو تحبطه.

والشهوات على صنفين:

الصنف الأول: شهوات مباحة في أصلها ما لم يتعدّ المشتهي فيها حدود الله عزّ وجل.

والصنف الثاني: شهوات محرّمة، وهي أن يشتهي محرّما لا يحلّ له أن يشتهيه.

فالشهوة إذا جاوزت القدر المباح فهي مرض؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (هو مرض الشهوة؛ فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها بخلاف القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه؛ فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض).

والشهوة باعثها خَطْرة تهيج رغبة كامنة في القلب، ثم تتولّد منها الفكرة ثم تنتج الإرادة ثم تقوى تلك الإرادة فتكون عزيمة ثم يتمّ الفعل.

وتناول المرء ما يشتهيه من المباحات لا يضرّه ما دام قلبه سليماً من التعلّق بها، ذاكراً ربّه، مؤدّياً شكر نعمه، لكن إذا انصرف الفكر إلى شهوة محرّمة أو أسرفَ في شهوة مباحة سرت إلى قلبه غفلة بحسب مبلغ تلك الشهوة وتمكنها من قلبه؛ فإن تمادى ولم يكفّها بسلطان التذكّر والتبصّر أمدّه الشيطان بالوساوس والخطرات والتزيين حتى يقع في الغيّ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

وإذا تعلّق القلب بالشهوة وأدمن تذكّرها وانقطع فكره إليها حتى تكون هي غذاء قلبه فيسكر بها سُكْرَاً أشدّ من سُكْرِ شارب الخمر، فإنّ شارب الخمر يسكر ساعات ثمّ يفيق، وأما المولع بالشهوة فإنه لا يفيق من سكرته ما دام سلطانها عليه كما قال الله تعالى في قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

وهذه السكرة تحجب البصيرة، فيغفل القلب ويقسو، وتولع صاحبها بما اشتهاه وتعلّق قلبه به، حتى يذهل عن نفسه وما يصيبها من ألم ومشقة في سبيل تلك الشهوة لم يكن ليحتملها لولا قوّة سلطان الشهوة على قلبه.

وإذا فقد تلك الشهوة وجد لفقدها ألماً لا يحتمله قلبه؛ فتتأثّر به الروح، وتضطرب، وربّما بكى من شدّة ما يجد، وذهل عمّا حوله، بل ربّما أصابه خلل في عقله إذا اشتدّ به البلاء ولم يوفّق لما يشفيه أو يخففه أو يسليه عنه، كما هو حال كثير من العشّاق.

وبعض من يُصاب بهذا الداء ثمّ يسلو مدّة قد يهيّجه إليه أدنى شيء يذكّره به، كما قال جران العود:

ذكرت الصبا فانهلّت العين تذرف ... وراجعك الشوق الذي كنت تعرف
وكان فؤادي قد صحا ثم هاجني ... حمائم ورقٌ بالمدينة هُتف

فهيّجه على العشق صوت هديل الحمام لما فيه من الحزن.

ومن العُشّاق من يشتدّ به العشق حتى يُجنّ به، وأخبار العشّاق في ذلك كثيرة، والعشق مرض يأتي الحديث عنه إن شاء الله.

والذين يتبعون الشهوات على صنفين:

الصنف الأول: من يفضي بهم اتّباعهم للشهوات إلى الكفر بترك الصلوات أو ارتكاب نواقض أخرى؛ فهؤلاء لا نجاة لهم إلا بالتوبة الإيمان والعمل الصالح

كما قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: ٥٩-٦٠].

ومعنى إضاعة الصلوات في هذه الآية قد اختلف فيه المفسرون على قولين، أرجحهما ما رجّحه ابن جرير أنه بمعنى تركها.

وأما من أخّر الصلاة عن وقتها من غير أن يتركها فهو مفرّط ظالم لنفسه بتأخيرها، وقد شابه هؤلاء الذين ذمّهم الله فيُخشى عليه أن يعاقب ببعض عقابهم.

والصنف الثاني: من يفضي بهم اتّباعه للشهوات إلى أنواع من الفسوق والعصيان لا تبلغ بهم الكفر، ولهم مع ذلك أعمال صالحة؛ فهؤلاء من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وشفاء المخلّطين في سبعة أمور أرشد الله تعالى إليها بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٢-١٠٥].

فأولها: الاعتراف بالذنب.

والثاني: حسن الظنّ بالله ورجاء مغفرته ورحمته، دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

والثالث: تطهير القلب وتزكيته بالصدقة.

والرابع: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ولها أثر عجيب في تسكين القلب، فإنّ من قارف ذنوب الشهوات وفي قلبه حياة اضطرب قلبه ووجد

للمعصية ألماً وانزعاجاً شديداً يحتاج معه إلى تسكين، ومن صلى على النبي صلى الله عليه وسلم صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشراً.

والخامس: التوبة الصادقة ورجاء القبول من الله، والتصديق برحمته وتوبته على عباده وقبوله للصدقات.

والسادس: العمل الصالح، وصحبة المؤمنين.

والسابع: مراقبة عالم الغيب والشهادة، ومحاسبة النفس قبل القدوم على الله في يوم ينبّئ العباد فيه بما كانوا يعملون.

فمن استكمل هذه الأشفية السبعة شُفي من آثار تخليط الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، وصار لقلبه من القوّة والعزيمة على الاستقامة ما يرجى له به صلاح قلبه وعمله.

وكلام العلماء في الشفاء من الشهوة المحرمة ودفع شِرَّتها عن القلب يتلخّص في أمور:

أولها: التوكل على الله والاستعانة به؛ فإنّه لا شفاء إلا به جلّ وعلا.

والثاني: تقوى الله بتهذيب الشهوة وصرفها فيما أباحه الله من غير إسراف ولا تعلّق قلب، فليس المطلوب استئصال الشهوة كما غلط في ذلك من غلط، وإنما المطلوب تهذيبها.

وإذا ابتلي المؤمن بأمر يهيّج عليه شهوته فليأت مما أباحه الله ما يقطع عنه نهمة النفس واشتغال القلب بهذه الشهوة، وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئة لها؛ فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه، فقال: «**إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه**».

والمنيئة: الجلد أول ما يوضع في الدباغ، والمعس: الدلك، أي أنها كانت تعمل في شأن بيتها.

ويُعمل في سائر أنواع الشهوات بمثل هذه السنّة.

والثالث: مراقبة الله مدافعة الخطرات المهيجة للشهوات المحرمة؛ فإنّ مدافعتها أيسر من مدافعة ما بعدها، وصيانة القلب بحفظ الجوارح؛ ومن ذلك غضّ البصر.

- قال إسحاق بن سويد: سمعت العلاء بن زياد يقول: «**لا تتبع بصرك حسن رداء المرأة؛ فإن النظر يجعل الشهوة في القلب**» رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي الدنيا في كتاب الورع ووقع عنده «ردف» بدل «رداء».

والرابع: تغيير ما في النفس، ومن ذلك قطع العلائق الداعية للشهوات المحرمة، واستجلاب علائق صالحة تعين على الأعمال الصالحة؛ فمن كان في بلد اعتادت نفسه فيه على أعمال الفساد ودربت عليها خطواته وصارت له به علائق تشدّه إلى الشهوات المحرمة، وخشي من ضعف نفسه فعليه أن ينتقل منه إلى بلد أصلح لقلبه، وكذلك يُقال في أنواع العلائق الأخرى.

والخامس: تغذية القلب بغذائه الذي يقوّيه، من ذكر الله والعمل الصالح وأفضله الصلاة على وقتها وإقامتها كما أمر الله بطهارة قلب وإقبال على الله؛ فإنها من أعظم ما يقوّي القلب ويعينه على دفع الأدواء، والشهوة المحرمة لا تتسلّط على القلب إلا على حين ضعف منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥].

والسادس: الصبر، وهو رأس الإيمان، ولما أباح الله تعالى نكاح الإماء لمن لم يجد طولا للحرائر وخشي على نفسه العنت قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

والسابع: التفكّر في العواقب، وهو خاصّية العقلاء.

- قال ابن القيم: (وأما الشهوة فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعيا في حرمانها إياها وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعيا في إيصالها إليها على أكمل الوجوه).

فصل في العشق:

ومما يتصل بالحديث عن الشهوة المحرمة الحديث عن العشق، وهو داء وبلاء عظيم، وهو حبّ زائد مفرط ناتج عن طغيان المحبوب على القلب، واستيلاؤه على التفكير؛ فيؤثره بالحبّ والتذكّر والطاعة، حتى يرتكب لأجله بعض المحرّمات، أو يفرّط في بعض الواجبات.

وقد اختلف في العشق؛ فقيل: هو فساد في الإرادة وهو المشهور، **وقيل:** فساد في التصوّر.

والتحقيق أن منشأه فساد في الإرادة ثمّ يؤول إلى فساد التصوّر، فأوّله حبّ فاسد؛ ثم يستحكم حتى يكون حبّا مضراً يؤثّر في بدن العاشق وعقله ويفسد قلبه؛ فيولع به صاحبه مع معرفته بضرره، ولذلك يعدّه بعضهم من الأمراض النفسية؛ لأن صاحبه كالمريض الذي يشتهي ما يضرّه فإن تناوله أضرّه، وإن منع منه تألّم لحرمانه منه.

ويزداد العشق باتّصال العاشق بمعشوقه مشاهدةً أو ملامسةً أو سماعاً، ويضرّه التفكير فيه، والتخيّل له.

وعدّ العشقُ من أمراض القلوب لأنّه يفسدها فساداً عظيماً، ولو كان المعشوق مما تباح محبّته في الأصل كالزوجة، وإذا كان في محبّة الممنوع كان ضرره وإفساده أعظم.

والشفاء من العشق يكون بأمور ترجع إلى ما تقدّم ذكره من علاج الشهوة، لكن البلاء فيه أشدّ، وقد لا يملك العاشق نفسه إلا أن يمنّ الله تعالى عليه فيعينه على ما يشفيه به.

ومن أجود ما قيل في علاج العشق وأجمعه قول أمّ الضحّاك المحاربية، وكانت قد تزوجت رجلا أحبّته حبّا عظيماً ثمّ طلّقها وارتحل، فهامت به عشقا، وأنشدت فيه القصائد، حتى أضرّ بها حبّه، وسألت عن الشفاء فنظمت ما أُجيبت به في أبيات حسنة ذكرها أبو علي القالي في أماليه، قالت فيها:

سألتُ المحبين الذين تحمَّلوا ... تباريح هذا الحبّ من سالف الدهر
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما ... تبوأ ما بين الجوانح والصدر
فقالوا شفاء الحب حبٌّ يزيله ... لآخر أو نأيٌّ طويلٌ عَلَى هجر
أو اليأس حتى تذهل النفس بعدما ... رجَتْ طمعاً واليأس عونٌ عَلَى الصبر

فذكرت أدوية ثلاثة:

أولها: مزاحمة الحبّ بحبّ آخر يزيله، والحبّ الفاسد يُزال بالحبّ الصالح؛ فإنّ القلبَ لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه أو خوف ضرر تجرّه عليه تلك المحبّة؛ فتكون السلامة أحبّ إليه؛ فإذا تفكّر في ضرر العشق وتفويته محبّة ما هو خير له وأنفع أعانه ذلك على التعافي من العشق، ومن سعادة المرء أن يكفيه الله بحلاله عن حرامه.

والدواء الثاني: الهجر والنأي الطويل، وهو من قطع العلائق التي تقدّم ذكرها؛ ولا بدّ مع البعد عمّا يهيّج الحبّ من احتمال ما يكون من الألم في أوّل الأمر إلى أن ينتزع هذا الحبّ من قلبه، وهو كمثل الشوكة الكبيرة المؤلمة التي داخلت الجسد فلا بدّ من الصبر على ألم نزعها.

والدواء الثالث: اليأس والسلوّ بذهول النفس عن المحبوب، فاليأس يزيل الطمع؛ فيضعف الحبّ لانقطاع إمداده الذي يغذّيه ويقوّيه، واليأس عون على الصبر كما ذكَرَتْ، وهذا لا يتأتّى إلا بقطع العلائق.

وإذا سلا العاشقُ خفّ ما به كما قال كثيّر عزة:

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه	**وللنفس لما وطّنت كيف ذلّت**
وللعين أسراب إذا ما ذكرتها	**وللقلب وسواس إذا العين ملّت**
وإني وتهيامي بعزة بعدما	**تخليت مما بيننا وتخلت**
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما	**تبوأ منها للمقيل اضمحلت**
كأني وإياها سحابةُ ممحل	**رجاها فلما جاوزته استهلت**
فإن سأل الواشون فيم هجرتها	**فقل نفس حرّ سليت فتسلت**

ولا يتمّ شفاء العاشق إلا بزوال الحبّ المذموم من قلبه، كما لا يتم شفاء المريض إلا بزوال مرضه.

ومِن أعظم ما يصون القلب عن العشق الصدق في محبة الله تعالى ومداومة ذكره؛ فإنّ القلب إذا كان محبّا لله تعالى وحده لم يُبتل بحبّ غيره أصلاً، فضلاً عن أن يبتلى بالعشق.

ومَن ابتلي بالعشق فلنقصٍ محبّته لله وحده، وتوحيده إيّاه، ولذلك سلم يوسف عليه السلام من العشق، وشقيت به امرأة العزيز مدّة من عمرها.

والقلب الصالح فيه صارفان يصرفانه عن العشق: صدق محبّته لله، وخوفه منه؛ فما دام هذان الصارفان يعملان في قلبه فهو في عافية من العشق بإذن الله، ومن ضعف في بعض أحواله فعشق ثم عفّ وصبر أثيب على صبره وتقواه لله.

وأمّا الغضب فهو صفة جبليّة في النفس البشرية، يبعثها رغبة دفع المضرّة والأذى عن النفس كما يتصوّرهما صاحبها؛ فإذا رأى ما يكره أن يؤذيه غضب

ليدفع ذلك الأذى، والأصل في الغضب أنه صفة كمال إذا كان بالعدل وفي مواضعه الصحيحة، لأنّها من قوام النفس البشرية، وإنما **ينشأ الخلل في الغضب في حالين:**

أحدهما: أن يغضب في غير موضع صحيح للغضب.

والآخر: أن يجاوز في غضبه الحدّ المشروع له فيحمله ذلك على الظلم والعدوان وأذى النفس والعماية عن مقتضى البصيرة.

ولذلك فإنّ **تهذيب الغضب لا يكون بطلب استئصاله من القلب، وإنما يكون بأمرين:**

أحدهما: صرف هذه القوّة إلى الغضب في المواضع المشروعة وهي إما واجبة وإما مندوبة وإما مأذون بها.

والآخر: إلزام النفس بالعدل في الغضب؛ فلا يتعدّى حدود الله ولا يظلم، وإن كان غضبه لله في الأصل، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل ربّه «**العدل في الغضب والرضا**» وفي رواية «**كلمة الحق**» وفي رواية أخرى «**كلمة الحكم**»، وهي روايات تأتلف ولا تختلف، وقد رواها الإمام أحمد وابن أبي شيبة والنسائي وأبو يعلي والطبراني وابن حبان وغيرهم من طرق عن عمّار بن ياسر رضي الله عنه.

وفي الصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

فمن ألزم نفسه العدل والتقوى في غضبه لم يكن عليه بأس منه

والاعتدال في الغضب كمال بين نقيصتين، وهدى بين ضلالتين:

أحدهما: الاعتداء في الغضب ومجاوزة الحدّ المشروع بقول أو فعل.

والآخر: ذهاب الغيرة لمحارم الله.

فمن كان لا يتمعّر وجهه في الله، ولا يغضب لله إذا رأى محارمه تُنتهك فهو ضعيف الإيمان أو عازبه.

- قال ابن القيّم رحمه الله: (وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس؟!! كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزّن المتلمّظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذلَ وتبذل وجدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء -مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم- قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب؛ فإنه القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل، وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرا «**أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال: به فابدأ؛ فإنه لم يتمعر وجهه في يوما قط**»)ا.هـ.

وكثير من العلماء الذين رفعهم الله وجعلهم أئمة يُقتدى بهم كان من أسباب رفعتهم وتوفيقهم قيامهم بأمر الله، والقيام بأمر الله يقتضي حياة القلب وغضبه لله غضباً يدفعه إلى العمل والاجتهاد في نصرة دين الله وردّ عدوان المعتدين على دينه وأوليائه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والمقصود أنّ الغضب إذا كان لله وقام صاحبه بالحقّ من غير تعدٍّ كان غضبه محموداً، وقد صحّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب في مواضع، وكلّها لله تعالى، وكان هديه فيها أحسن الهدي.

- قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد

غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**» رواه البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**أهدى إلي النبي صلى الله عليه وسلم حلة سيراء، فلبستها، فرأيت الغضب في وجهه فشققتها بين نسائي**» رواه البخاري ومسلم من حديث شعبة بن الحجاج عن عبد الملك بن ميسرة عن زيد بن وهب، عن علي.

- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فتمعّر وجهه، وفي رواية فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**». رواه البخاري من حديث أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود.

- وقال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان، مما يطيل بنا؛ فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: «**يا أيها الناس إنَّ منكم منفّرين، فأيكم أَمَّ الناسَ، فليوجز فإن من ورائه الكبيرَ والضعيفَ وذا الحاجة**» رواه أحمد والبخاري ومسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود.

وهذه الأحاديث إنما ذكرتها للتمثيل، وبيان هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وأنّه كان يغضب لله، لكن لم يكن يحمله غضبه على تعدٍّ ولا ظلم، حاشاه صلى الله عليه وسلم.

وهذا كلّه في شأن الغضب لله.

وأما الغضب للنفس فهو المقصود هنا وهو على درجتين:

الدرجة الأولى: غضب لا يُلام عليه العبد إذا كان له سبب صحيح ولم يحمله على ظلم واعتداء، فإنْ كظم غيظه وعفا فهو من أهل الإحسان، كما قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى: ٣٦-٣٧].

فهؤلاء قد وُقوا شرّ فتنتي الشهوة والغضب.

والدرجة الثانية: الغضب المذموم، وهو الذي وردت النصوص في النهي عنه، والتحذير منه، وهو المرض الذي إذا سرى في القلب وتمكن منه جرّ على صاحبه مصائب عظيمة في دينه ودنياه، وحرمه خيراً كثيراً.

وكم من إنسان هوَت به بعض غضباته إلى مهاوي الردى؛ فبقي سنوات من عمره في مكابدة بعض آثار تلك الغضبات، وذلك لأنّه لم يملك غضبه فاعتدى بقول أو فعل، وربما كان غضبه على أمرٍ لا يسوغ له الغضب فيه أصلاً.

ومن الناس من يكون في طبعه حدّة فيكون سريع الغضب، فإنْ ملك غضبه وكتم غيظه فهو من المتقين، ومنهم من تبدر منه بوادر اعتداء بقول أو فعل؛ فمنهم من يكون سريعة الفيئة والرجوع والتحلل ممن اعتدى عليه؛ فهذا أقرب إلى السلامة، ومنهم من يكون بطيء الفيئة فيُخشى عليه من مغبّة تعدّيه في غضبه.

وقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة العصر بنهارٍ، ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال:

فذكر أحاديث، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «**ألا إنَّ الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالأرض الأرض، ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء وسريع الغضب سريع الفيء فإنها بها**»). رواه أبو داوود الطيالسي والحميدي ومعمر بن راشد، وأحمد بن حنبل، والترمذي وغيرهم من طرق عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة العبدي عن أبي سعيد، وقد رواه عن عليّ بن زيد بن جدعان: حماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، ومعمر بن راشد، وعلي بن زيد ضعّفه بعض أهل العلم، لكنّه لم ينفرد به، تابعه عطاء بن ميسرة عند الطبراني في الأوسط وصرّح بالتحديث، وله شاهد من حديث عبد الرحمن بن شريك عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عند البزار والطبراني في الأوسط وغيرهما؛ فالحديث حسن إن شاء الله.

وقد دلّ هذا الحديث على سبب الغضب وأنّه جمرة توقد في جوف ابن آدم، ولذلك فإنّ الغضبان يجد حرارة في نفسه، ومنهم من يحسّ كأنّ في جوفه جمرة، وهي من شأن الأرواح، لكن لما للروح من اتّصال بالجسد فإنّ أثر هذه الجمرة يظهر على الجسد.

والغضب نزغة شيطان، وهو من حبائل الشيطان التي اصطاد بها كثيراً من بني آدم فأزلّهم حتى أوقعهم في سفك الدماء، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، واللعن، والسباب، والهجر، والتدابر، وغيرها من المعاصي.

ومن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم المحفوظة عنه الوصية بترك الغضب، وهو محمول على الغضب المذموم.

- قال أبو هريرة رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: مُرْني بأمر، قال: «**لا تغضب**».

قال: فمرَّ أو فذهب، ثم رجع، قال: (مرني بأمر).

قال: «لا تغضب».

قال: فردد مرارا كل ذلك يرجع، فيقول: «لا تغضب». رواه أحمد والبخاري من حديث أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة.

وقد ذكر بعض أهل العلم في مقاصد وصايا النبي صلى الله عليه وسلم وتنوّعها لمن استوصاه أنه كان يوصي كلّ رجل بما هو أصلح لحاله، وقد يكون في الأمّة من يكونون على هذه الأصناف.

وقد فسّر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب» بمعنيين صحيحين:

أحدهما: لا يقع منك غضب، وهو بمعنى الأمر بالتحلّم حتى يكون حليماً، ويعينه على ذلك اجتناب أسباب إثارة الغضب وكظم غيظه عند نزغ الشيطان له.

والثاني: لا تكن كصاحب الغضب المذموم الذي يتملّكه غضبه فيقوده إلى الظلم والعدوان، بل املك نفسك عند الغضب، ولا تعمل بمقتضى غضبك، فالغضب إذا تملّك كان كالسلطان الآمر الناهي وقد قال الله تعالى في شأن غضب موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وعلاج الغضب على مراتب:

المرتبة الأولى: وقاية النفس منه قبل وقوعه بالتحلّم واجتناب أسباب إثارة الغضب، والاستعاذة بالله من شر الغضب، وصحبة أولى الحلم، ونحو ذلك.

والمرتبة الثانية: مداواة الغضب إذا بدرت بادرته، وأحسّ الإنسان بنزغ الشيطان له، وذلك بأمور منها: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وكظم الغيظ، وذكر الله، والوضوء، والصمت عما يهيّج الغضب ويزيده من السباب ونحوه، والنأي بالنفس عن حالة الانتقام؛ فإن كان قائماً جلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع.

وقد روي في أكثر هذه الأدوية أحاديث.

والمرتبة الثالثة: مداواة الغضب بعد نفاذه وحصول المكروه من الاعتداء بالقول أو العمل، وذلك بإسراع الفيئة، والتوبة إلى الله، والتحلل من المعتدى عليه، وإتباع السيئة الحسنة.

ومن جاهد نفسه على ترك الغضب المذموم رُجي له أن يوفّق لتركه، والله المستعان.

الغفلة والقسوة

الغفلة والقسوة داءان من شرّ أدواء القلوب، وهما حجابان حاجزان للقلب عمّا ينفعه من التذكّر والتفكّر والعلم النافع والبصيرة في الدين.

- قال أحمد بن أبي الحواري: «**ما ابتلى الله عبداً بشيء أشدّ من الغفلة والقسوة**». رواه ابن عساكر.

- **فأمّا الغفلة** فهي داء مستشرٍ في كثير من الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢]، وهي بريد اتباع الهوى، وطول الأمل، وتفضي بالعبد إلى قسوة القلب؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

وقد قرن الله تعالى بين الغفلة واتباع الهوى فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

والغفلة سبب لأدواء كثيرة:

- قال عون بن عبد الله: «**ما أحسب أحدًا يفرغ لعيب النّاس إلّا عن غفلةٍ غفلها من نفسه، ولو اهتمّ لعيب نفسه ما تفرّغ لعيب أحدٍ ولا لذمّه**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال أحمد بن خضرويه: (لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رقّ أ مْلَكُ من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة). ذكره ابن الجوزي في ذمّ الهوى.

أسباب الغفلة

والسبب الحامل على الغفلة هو الجهل الأصلي أو العارض؛ فيجهل الغافل حقيقة الحياة الدنيا، ويجهل ما أُمر به وما نهي عنه، وما أمامه من الحساب والجزاء؛ فتضعف حياة القلب وبصيرته وتستولي عليه الشهوات والشبهات فتقوده إلى المهالك.

ويتولّد من ضعف البصيرة وطول الأمل غفلة تعتلي القلب تحجبه عن الاعتبار بالآيات المتلوّة والمشاهدة، وتُنتج له استحباب الحياة الدنيا وإيثارها على الآخرة.

وذلك أنّ القلب إذا غفل عن الذكر واشتغل بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها، ونَسِي ما ذُكّر به حتى يأخذ الهوى وحبّ الدنيا بزمام قلبه حدثت فيه غفلة أخرى هي غفلة اكتسابية تورثه النفور عن الذكر، وتُفضي به إلى قسوة القلب، وهي غفلة تسبّب فيها بتعمّده صرفَ قلبه عن الذكر، وتدسية نفسه، وانغماسه في الغفلة، كما قال الله تعالى في الكفار: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٨-٣٩].

فهم اليوم في غفلة انغمسوا فيها حتى حجبت عنهم منافذ الذكر إلى القلب من السمع والبصر فلا يعتبرون بما يرون حتى إذا كشف الغطاء يوم الحسرة فإذا هم شديدو السمع حديدو البصر، وهذا يبيّن شدّة أثر الغفلة، وأنها تحجب السمع والبصر عما ينفع.

أنواع الغفلة

ومما ينبغي أن يُعلم أنّ الغفلة على نوعين:

النوع الأول: الغفلة التي سببها عدم العلم الأصلي، وهذه الغفلة لا يُعذّب الله بها، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣١].

والنوع الثاني: الغفلة التي سببها التمادي في الإعراض عن ذكر الله؛ فتصيب القلبَ غفلةٌ من شدّة التهائه بما يصدّه عن ذكر الله؛ وهذه الغفلة لا يُعذر صاحبها بل هو متوعّد عليها كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهذه الغفلة قد تكون عقوبة لصاحبها بسبب إعراضه عن ذكر الله وتماديه في الإعراض كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول على أعواد منبره: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين».

والغفلة تفتح باب الوسوسة، كما قال ابن عباس في تفسير قول الله تعالى: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ٤] قال: «**الشّيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس**». رواه ابن أبي شيبة وأبو داوود

في الزهد من طريق جرير بن عبد الحميد، عن منصور بن المعتمر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

ورواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سفيان الثوري عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**ما من مولود إلا على قلبه الوسواس، فإن ذكر الله خنس، وإن غفل وسوس، وهو قوله تعالى** ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤] ».

دركات الغفلة:

والغفلة داءٌ غالبٌ على قلوب الكفار والمنافقين، وقد يُصاب به بعض المسلمين، ويختلف أثر الغفلة في قلوبهم باختلاف إخلاصهم بمراتب العبودية التي سبق بيانها.

١- فمن كانت غفلته تفضي به إلى هدم أصل إسلامه بارتكاب ما ينقضه أو ترك الصلاة مطلقاً ونحو ذلك؛ فهذا غفلته غفلة كفر ونفاق، وهو ملتحق بالكفّار والمنافقين والعياذ بالله كما قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٠٧ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٠٨﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

٢- ومن كانت غفلته لا تفضي به إلى ما ينقض إسلامه، وإنما قد يرتكب بها بعض المحرمات ويترك بها بعض الواجبات؛ فهذا غفلته غفلة فسق وعصيان، يُخشى عليه من العقوبة، وهو على خطر إن استمرأ الغفلة أن تفضي به إلى الانسلاخ من الدين والعياذ بالله فيلتحق بمن قبله، وإن هو تاب وأناب رُجي له الخير.

٣- ومن كانت غفلته لا تفضي به إلى ترك واجب ولا فعل محرم، وإنما قد يغفل عن بعض الأعمال المستحبة التي فيها فضل عظيم، أو تقوده غفلته إلى فعل

بعض المكروهات؛ ولديه من حياة القلب والذكر ما يحجزه عن المحرمات وعن ترك الواجبات؛ فهذا من المتقين، وما يصيبه من الغفلة أحياناً هي من غفلات الصالحين، وقد يرتكب ذنباً ثمّ يتوب منه، فهو ليس ممن استحكمت الغفلة على قلبه، ولا ممن يطول أمدها به.

وقد تصيب بعض الصالحين غفلة هي من رحمة الله بهم كما قال مطرف بن عبد الله: «**وجدت الغفلة التي ألقى الله عز وجل في قلوب الصدّيقين من خلقه رحمة رحمهم بها، ولو ألقى في قلوبهم من الخوف له على قدر معرفتهم به ما هنأهم العيش**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الكاتب رضي الله عنه وكان من كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟

فقلت: نافق حنظلة.

قال: سبحان الله ما تقول؟

قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات؛ فنسينا كثيرا.

قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: (نافق حنظلة يا رسول الله).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وما ذاك؟**».

قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين؛ فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات.

دواء الغفلة

ودواء الغفلة يتركب من أمرين:

أحدهما: ذكر الله تعالى، والذكر على أنواع: منها ذكر المرء ربّه في نفسه، والذكر باللسان، ومنه تلاوة القرآن، وتدبّره، والتفكّر في معانيه، وفي حال العبد، ومآله، وعواقب أعماله.

ومما يعين على الذكر أيضاً: محاسبة النفس، ومجالسة الصالحين،

الآخر: تجنّب أسباب الغفلة من الملهيات المحرّمة والمكروهة، وترك التوسع في فضول المباحات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ومَن ذَكر الله في نفسه هذا الذكر قاده إلى أداء ما افترض الله عليه والانتهاء عما نهى الله عنه.

- قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ في ليلة مائة آية لم يكتب من الغافلين، أو كتب من القانتين». رواه محمد بن نصر المروزي في قيام الليل، وابن خزيمة في صحيحه من حديث أبي حمزة السكري، عن الأعمش،

عن أبي صالح، عن أبي هريرة، وقوله: «أو» شكّ من بعض الرواة بين جملتين، والثانية أرجح، وقد رواه الحاكم في المستدرك بلفظ: «كتب من القانتين» من غير شكّ، وبها جزم الألباني رحمه الله، وصحح إسناد الحديث.

- وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين». رواه أبو داوود وابن خزيمة وابن حبان والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي سوية عن ابن حجيرة الخولاني قاضي مصر عن ابن عمرو، وإسناده جيد.

- وقد صحّ عن ابن عمر وتميم الداري رضي الله عنهما أنهما قالا: **«من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين»**.

- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **«من قرأ في ليلة بخمسين آية لم يكتب من الغافلين»** رواه ابن أبي شيبة والدارمي.

- قال ابن القيم رحمه الله: (ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء؛ فإذا ترك الذكر صَدِئ، فإذا ذكر جلاه.

وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه.

فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً.

وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي.

فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً).

وأمّا القسوة فقد تقدّم الحديث عنها، وهي داء داويّ من أخطر أدواء القلوب، بل قيل هو أخطرها، وسببها التمادي في الإعراض عن ذكر الله تعالى، واتباع الهوى، وطول الغفلة، والإسراف في المعاصي حتى ترين الذنوب على القلوب فتقسو، ويغلظ حجابها؛ لانقطاع المدد الذي يحييها ويليّنها من الذكر والمواعظ الحسنة، فكان كالشجرة التي انقطع عنها الماء فجفّت وتيبّست وقست.

والقسوة تتفاوت فيكون قلب أقسى من قلب، وتشتدّ قسوة بعض القلوب حتى تكون كالحجارة أو أشدّ قسوة.

وقسوة القلب تورث فساد التصوّر، وانحراف الإرادة؛ والجسارة على الباطل، فلا يهتدي صاحب القلب القاسي للحقّ، ولا يبصره، ولا يريده؛ لاشتغال قلبه باتّباع الهوى، وغفلته الشديدة عن آيات الله، وإذا تمادت القسوة في القلب أفضت بصاحبها إلى أن يتخذ إلهه هواه حتى يُختم على قلبه؛ فلا ينفذ إليه الهدى؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولقسوة القلب آثار تظهر على العبد، منها النفور عن الذكر، وجمود العين، ومحبة اللهو الباطل، وكراهة ذكر الموت، وتعظيم الدنيا، والجراءة على الظلم

والعدوان، ومتى أحسّ الإنسان في نفسه شيئاً من علامات قسوة القلب فعليه بمداواة قلبه بما يليّنه، ويذهب قسوته قبل أن تستفحل تلك القسوة في قلبه.

ودواء قسوة القلب: يكون بالإنابة إلى الله تعالى، والاعتراف بالذنب، والتوبة والاستغفار، وطلب العفو من الله تعالى، وكثرة ذكره، ومعالجة أسباب الغفلة التي أدّت به إلى القسوة، وعمل الأعمال التي ترقق القلب وتليّنه، وتذكّر الموت ومنازل الآخرة؛ حتى يتطهر القلب من آثار الذنوب التي رانت عليه، ويجلوه الذكر حتى يصفو ويلين بإذن الله تعالى، وينشرح الصدر بعد ذلك لذكر الله تعالى وتوحيده وإسلام القلب والوجه له تعالى.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

الهوى والوهن

الهوى

فأمّا الهوى فهو داء مفسد للقلب، ينحرف به عن إرادة الحقّ ومحبته؛ ولا يزال داء الهوى يتعاظم في النفس ويتمادى بصاحبه، حتى يفسد الحبّ والبغض في القلب؛ فيحبّ ما يهوى على خلاف الحق، ويحبّ لأجل ما يهوى ما تضرّه محبّته، ويبغض ما لا يهوى وإن كان نافعاً له، ويبغض لأجل بغضه ما قد يضرّه بغضه ويحرمه خيراً كثيراً.

وإذا استحكم الهوى في القلب أفسد التصوّر، وزُيّن لصاحبه سوء عمله؛ فصار يرى ما أشرب من هواه حقاً، ويرى ما خالفه باطلاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد: ١٤].

وللهوى سلطان على النفس يأمرها وينهاها، ويدعوها إلى ما فيه ضلالها وهلاكها، ولذلك نهى الله تعالى عن اتّباع الهوى؛ فقال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

– قال ابن شهاب الزهري عن سالم بن عبد الله، عن أبي هريرة، قال: كان عمر بن الخطّاب إذا خطب النّاس يقول في خطبته: «**أفلح منكم من حُفظ من الهوى والطّمع والغضب، ليس فيما دون الصّدق من الحديث خيرٌ، من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك، إيّاكم والفجور، وما فجور عبدٍ خلق من ترابٍ، وإلى التّراب يعود، وهو اليوم حيّ، وغدا ميّتٌ؟!! اعملوا يومًا بيومٍ، واجتنبوا دعوة المظلوم، وعدّوا أنفسكم من الموتى**». رواه أبو داوود في الزهد.

– وقال مهاجرٍ العامريّ، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**إنّ أخوف ما أتخوّف عليكم: طول الأمل واتّباع الهوى؛ فأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، وأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، ألا إنّ الدّنيا قد ولّت مدبرةً، والآخرة مقبلةٌ، ولكلّ واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، فإنّ اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغدًا حسابٌ ولا عملٌ**». رواه وكيع في الزهد، وأحمد في الزهد، وغيرهم.

وقد جعل الله الإعراض عن الاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم علامة بيّنة على اتّباع الهوى، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

والنفس تنشط في اتّباع ما تهوى لأجل ما يحصل لها من اللذة بذلك، وأصل الهوى ميل النفس إلى ما يشبع رغبتها، ويوافق طبعها، ويكون ذلك في الأمور المادية والأمور المعنوية، ولذلك فإن اتباع الهوى يدخل من باب الشهوات ومن باب الشبهات.

- فأما اتباع الهوى في الشهوات فالذي يُذمّ منه ما جاوز الحدّ المشروع.

- وأما اتباع الهوى في الشبهات فالذي يذمّ منه ما خالف الهدى.

واتباع الهوى في الشبهات أعظم أثراً، وأشدّ خطراً، لأن الذي يرتكب الشهوات المحرمة وهو معترف بذنبه أقرب إلى التوبة وأخفّ جرماً ممن يعتقد خلاف الحقّ، ويبتدع في دين الله، وهو يرى أنه محسن فلا يتوب.

- قال ابن القيم: (الهوى ما خالط شيئا إلا أفسده؛ فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين، حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة؛ فما قارن شيئاً إلا أفسده).

والناس في اتباع الهوى على أربعة أصناف:

الصنف الأول: من كان هواه تبعاً لما يحبّه الله ورسوله؛ فهذا مؤمن مستكمل الإيمان كما في سنن أبي داوود وغيره من طرق عن القاسم بن عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»، وللحديث شواهد لا تنزله عن درجة الاحتجاج.

وأما حديث «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**» فضعيف لا يصحّ، وقد أخرجه الحسن بن سفيان النسوي في كتاب الأربعين، والبيهقي في المدخل إلى السنن، والبغوي في شرح السنة من طريق نعيم بن حماد قال: حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عقبة بن

أوس، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**».

وللحديث طرق أخرى معلولة.

وعلى تقدير صحّته فالمراد به نفي كمال الإيمان، أي لا يؤمن أحد إيماناً كاملاً حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويصدّق ذلك ما جاء في بعض روايات الحديث: «**لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به**».

والصنف الثاني: من كانت نفسه تنازعه إلى شيء مما فيه مخالفة لأمر الله تعالى، وهو ينهاها، ويخالف هوى نفسه؛ اتباعاً لرضوان الله تعالى، وخشية له، فهؤلاء لا يضرّهم ذلك شيئاً، بل هم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

والصنف الثالث: من اتّبع هواه بفعل بعض المحرمات، أو ترك بعض الواجبات، مع بقاء أصل الإيمان في قلوبهم، فهؤلاء آثمون لاتباعهم بعض أهوائهم في معصية الله تعالى، وهم الذين أصاب قلوبهم داء اتّباع الهوى.

والصنف الرابع: الذين اتبعوا أهواءهم حتى ضلوا ضلالا بعيداً بالوقوع في الشرك أو الكفر، من الكفار الأصليين، أو المرتدّين.

فمثال الأول: ما ذكر في قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

ومثال الثاني: ما ذكر في قول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

ودواء اتّباع الهوى بنهي النفس عنه، والاستجابة لله ورسوله، فيحيا القلب بعد مواته، ويصحّ تصوّره، وتصلح إرادته.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٨].

ولما ذكر الله عقوبة الظالمين لأنفسهم من الكفار والمشركين وما أعدّ لهم من العذاب؛ ذكر لهم المخرج الوحيد لنجاتهم مما هم فيه ما داموا في هذه الحياة فقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

وكذلك من ابتلي بشيء من اتباع الهوى في معصية الله من المسلمين فذلك لضعف في استجابته لله ولرسوله، ويدخل على قلبه من فساد التصور وانحراف الإرادة بقدر ما أخلّ به من واجب الاستجابة، ولا يحصل له التعافي من هذا الداء إلا بتصحيح الاستجابة.

ويحصل له بتصحيح الاستجابة: تصحيح التصور، وتقويم الإرادة.

ومما يعين على تصحيح التصور ما يحصل به التذكّر والتبصّر، وتنمية اليقين في القلب، وذلك بالتبصر ببصائر القرآن والسنة؛ والتفكّر في آيات الله تعالى، وكثرة ذكره، والإنابة إليه.

ومما يعين على تقويم الإرادة صبرُ النفس على اتباع الحق، ومجاهدتها في ذلك، ومحاسبتها، وكثرة تعاهدها في ذلك.

- قال إبراهيم بن أدهم: «**أشدّ الجهاد جهاد الهوى، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدّنيا وبلائها، وكان محفوظًا معافًى من أذاها**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

ومن أعظم ما يعين على التخلص من داء اتباع الهوى تعظيم مخافة الله تعالى في القلب، ولذلك قرنه الله تعالى بنهي النفس عن الهوى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠].

- قال إبراهيم بن أدهم: «**الهوى يُردي، وخوف الله يشفي، واعلم أنّ ما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت من تعلم أنّه يراك**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

وأما الوهن فهو داء عضال ينشأ من حبّ الدنيا وضعف الاحتمال، فيدبّ إلى القلب خوَر وفتور، وضعف واستكانة، وتهيّب مذموم عن معالي الأمور، فيتثاقل عن الطاعات، ويخلد إلى الأرض.

- قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

- وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود وغيرهما من طرق عن ثوبان بن بجدد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها».

قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟

قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن».

قال: قلنا: وما الوهن؟

قال: «حب الحياة وكراهية الموت».

- وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: «**لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزّقين، ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر الله دارت حماليق عينيه كأنه مجنون**». رواه البخاري في الأدب المفرد.

المتحزّق هو المتشدد على ما في يده ضنّاً به.

وقد اجتمع ذمّ الوهن واتباع الهوى في قول الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فالإخلاد إلى الأرض سببه وهن القلب وخوره وضعفه.

ودواء الوهن الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فالثبات في جانب التصديق، ويحصل به تصحيح التصور، ويفضي إلى اليقين.

والعزيمة على الرشد في جانب الأمر والنهي، ويحصل بها تصحيح الإرادة، وتفضي إلى الاستقامة.

وإذا تمكّن اليقين من القلب وحصلت الاستقامة ذهب الوهن من القلب بإذن الله تعالى.

شفاء القلوب

أدواء القلوب منها ما يفسد التصوّر، ومنها ما يفسد الإرادة، ومنها ما يفسدهما معاً.

ولذلك فإنّ **شفاء القلوب قائم على أصلين:**

الأصل الأول: البصيرة في الدين، وتحصل بصحّة العلم؛ ومن أثرها أن يرى الحقّ حقاً، والباطل باطلاً، والحسن حسناً، والقبيح قبيحاً.

والأصل الثاني: الرشاد، ويحصل بالاستقامة على أمر الله واتّباع هداه؛ فيرغب فيما رغّب الله فيه، ويرهب مما رهّب الله منه، ويحبّ ما أحبّه الله، ويبغض ما أبغضه الله.

وهذان الأصلان يرجعان إلى تصحيح العلم، وإصلاح العمل، **ويردان بألفاظ كثيرة منها:** الإيمان وعمل الصالحات، والهدى والرشاد، واليقين والاستقامة.

واستمداد شفاء القلوب إنما هو بالقرآن والسنة، وقد جعل الله فيهما شفاء لما في الصدور من أمراض الشبهات والشهوات.

- ففيهما من البصائر والبيّنات ما يشفي القلب من مرض كلّ شبهة.
- وفيهما من الحكمة والموعظة ما يشفي القلب من مرض كلّ شهوة.

• فالقرآن والسنة فيهما الشفاء التام للعلل المفسدة للتصوّر والإرادة؛ فيصلح القلب، وتستقيم الجوارح، ويعود القلب إلى فطرته التي فطره الله عليها.

ولا بدّ للقلب من غذاء يقوّيه، وحماية تقيه من الآفات والعلل؛ وبذلك تحصل له الحياة والزكاة، وحاجة القلب إلى التغذية والحماية أعظم من حاجة البدن؛ وأثر الغذاء فيه أسرع من أثر غذاء البدن.

- قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً).

- وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر: (فصل الخطاب في هذا أنه ينبغي أن يقاوم المرض بضده: فمن كان قلبه قاسيا شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفّه عن الخطأ قوّم ذلك بذكر الموت، ومحاضرة المحتضرين.

فأما من قلبه شديد الرقة، فيكفيه ما به؛ بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك، لينتفع بعيشه، وليفهم ما يُفتى به، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمزح، ويسابق عائشة رضي الله عنها، ويتلطف بنفسه؛ فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام، فهم من مضمونها ما قلته من ضرورة التلطف بالنفس).

الباب الخامس: في المحبة، وبيان أنها أصل أعمال القلوب

المحبة أصل أعمال القلوب، وفيها مباحث مهمة تتصل بأبواب كثيرة، وقد اجتهدت في جمع أطرافها، وتقريب مسائلها، والله الموفق والمعين.

ومقاصد هذا الباب ثلاثة:

المقصد الأول: التأصيل العلمي لمسائل هذا الباب.

والمقصد الثاني: بيان المحبة الصحيحة والدعوة إليها والتعريف بفضائلها ودلائلها وأسبابها وآدابها.

والمقصد الثالث: التحذير من التفريط في محبة الله عز وجل، وبيان أسباب الضلال في هذا الباب.

معنى المحبة:

لفظ المحبة من الألفاظ التي لا تحيط بها العبارة، ولا تفي ببيان حقيقتها ومدلول معناها، وإنما يُستفاد من معرفة ما يذكر من تعريفاتها تقريب الصورة للذهن لا أكثر، وما أحسن ما قال ابن القيم رحمه الله، وهو ممن أوسعَ هذه المسألة بحثاً في عدد من كتبه، وخلص إلى ما قاله في المدارج: (لا تحدّ المحبة بحدٍّ أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء؛ فحدُّها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة).

ثم ذكر خمسة معاني لغوية لمادة (حب) وما يتصرف منها هي: **الصفاء والبياض**، **والعلو والظهور**، **واللزوم والثبات**، **واللبّ**، **والحفظ والإمساك**.

وذكر شواهدها ومناسبة اشتقاقها لمعنى المحبة ثم قال: (ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة).

ثم ذكر ثلاثين تعريفاً للمحبة انتقاها من عبارات المصنّفين في علم السلوك، وما أُثر عن العُبَّادِ والعارفين المتقدمين مما يفهم منه تعريف المحبة، وهذا من دلائل سعة اطلاعه -رحمه الله- في هذا العلم ومعرفته بمصادره وأئمته وحسن فقهه لمسائله.

وكتبه: مدارج السالكين، وطريق الهجرتين، والوابل الصيب، والرسالة التبوكية، والفوائد، وروضة المحبين من أنفس ما كتب في هذا العلم.

فلذلك نتجاوز الكلام في تعريف المحبة اكتفاء بما خلص إليه ابن القيم رحمه الله.

المحبة أصل الدين وأصل أعمال القلوب:

أصل الدين ومبناه على محبة الله عز وجل؛ وبيان ذلك من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن أعمال العبد الدينية إنما يحمله عليها محبة الله تعالى ومحبة ثوابه ومحبة النجاة من عقابه؛ ولذلك فإن الخوف والرجاء مبناهما على المحبة أيضاً؛ لأن الراجي يطمع فيما يحب من رضا محبوبه وثوابه، والخائف يخاف على ما يحب من السلامة ويخاف من سخط محبوبه، ويخاف من فوات ما يحب من الثواب.

وكذلك التوكل والخشية والإنابة والتوبة وغيرها كلها صادرة في الأصل عن محبة الله تعالى وما يتبعها من محبة رضاه وثوابه والنجاة من عقابه.

الوجه الثاني: أن أعمال العبادة إنما سميت عبادة لكونها صادرة عن أعلى درجات المحبة فهي محبة عظيمة مقرونة بالتعظيم والخضوع والانقياد كما سبق بيانه؛ ولذلك فإن المحبوب الذي لا يُعَظَّم ولا يُذَلُّ له ولا يُنقادُ لأمره ليس بمعبود، وكذلك المعظَّم الذي لا يُحَبّ.

الوجه الثالث: أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصاً له جل وعلا، وإرادة وجه الله وحده لا شريك له هي ثمرة المحبة الصادقة من المؤمن لربه جل وعلا؛ فكل أعمال العبد التي يتقرب بها إلى الله عز وجل وحده لا يشرك معه فيها أحداً إنما الحامل عليها هو هذه المحبة العظيمة الخالصة لله جل وعلا؛ فالله تعالى هو المحبوب لذاته في قلب المؤمن، وهذه المنزلة لا تنبغي إلا لله تعالى.

فتبيَّن بذلك أن محبة الله تعالى هي أصل الدين، وهي كذلك أصل أعمال القلوب لأن الأعمال بالنيات، والنية محلها القلب.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة قيمة سماها قاعدة في المحبة بيَّن فيها أن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن المحبة؛ وأن العبد حارث وهمَّام يسعى فيما يحب ويهمّ بما يحب، وأن هذه المحبة تنقسم إلى محمودة ومذمومة، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

والمقصود هنا بيان أن محبة الله تعالى وما يتبعها من محبة كتابه ودينه ورسوله صلى الله عليه وسلم هي أصل الدين وأجلّ قواعده وأعظمها، بل هي الفارقة بين الإيمان والنفاق، كما في صحيح البخاري وغيره من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً، وكان يُضحِكُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلَده في الشرابِ؛ فأُتِي به يوماً فأُمِرَ به فجُلد؛ فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (من المعلوم أن كل مؤمن فلا بد أن يحب الله ورسوله، ولكن في المظهرين للإسلام مَن هم منافقون؛ فأولئك ملعونون لا يحبون الله ورسوله).

وهذا مما يبين لك عظم شأن المحبة وجلالة قدرها؛ فلولا أنه يحب الله ورسوله لكان من المنافقين، فهو وإن لم تُرفع عنه عقوبة الجلد، بل عوقب على معصيته إلا أن محبَّته لله ورسوله قد نجَّته من النفاق.

المحبة الصحيحة:

ليس كل دعوى محبةٍ لله تعالى تكون مقبولة ونافعة لصاحبها، **فلصحة المحبة شرطان عظيمان لا تصحّ دعوى المحبة إلا بهما:**

أحدهما: أن تكون هذه المحبة خالصة لله تعالى؛ فلا يحب مع الله أنداداً كما يفعل المشركون؛ فإنهم وإن ادَّعوا محبةَ الله فمحبتهم باطلة لا تقبل ولا يثابون عليها، وكل أعمالهم مردودة عليهم لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً إذا ماتوا على ذلك.

والشرط الآخر: أن يتبع المحبّ هديَ النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

فلم يجعل الله محبتهم معتبرةً إلا بشرط اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وإذا خلت من شرط الاتباع فهي محبة غير صحيحة، وإنما هي محبة شركية أو دعوى باطلة.

وهذان الشرطان متلازمان، ومتى جمعهما العبد فمحبته صحيحة مقبولة عند الله عز وجل، ويثاب عليها بأن يحبه الله ويغفر له ذنوبه، ومن تخلف عنه أحد هذين الشرطين فمحبته غير صحيحة ولا مقبولة عند الله عز وجل، وإن ادعى ما ادعى من شدة المحبة فهو غير صادق فيها إذ لو كان صادقاً لأخلص العبادة لله وحده لا شريك له، واتبع رسوله صلى الله عليه وسلم.

والمسلمون في محبتهم لله تعالى على درجات متفاضلة تفاضلاً كبيراً كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وإنما المقصود هنا تقرير أن محبة الله تعالى عبادة لا تصح إلا بشروط صحة العبادة من الإخلاص والمتابعة، وأن من خالف أحد هذين الشرطين فدعواه للمحبة باطلة غير معتبرة شرعاً.

وإياك أن تستهين بهذا التقرير وتكتفي باعتباره من البدهيات في الدين؛ فإن الفتنة في مخالفة هذين الشرطين عظيمة، وقد وقع بسبب الإخلال بهما من الفتن والضلالات ما الله به عليم.

المحبة الباطلة:

مما سبق تعلم أن **المحبة الباطلة على نوعين**: **محبة شركية** و**محبة بدعية**

فأمّا المحبة الشركية؛ فهي محبَّة المشركين لله عز وجل؛ فإنها محبَّة قد أشركوا فيها غير الله معه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال الزجَّاج: (﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي: يسوّون بين هذه الأوثان وبين الله عزّ وجلّ في المحبة.

وقال بعض النحويين: يحبونهم كحبكم أنتم لله، وهذا قول ليس بشيء، ودليل نقضه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾)ا.هـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: (فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الندَّ كما يحب الله تعالى، وأنَّ المؤمن أشد حباً لله من كلّ شيء، وقال أهل النار في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحبّ والتأله والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط أن الصنم أو غيره من الأنداد مساوٍ لرب العالمين في صفاته وفي أفعاله وفي خلق السماوات والأرض وفي خلق عباده أيضاً، وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة)ا.هـ.

والله تعالى لا يرضى أن يُشرَكَ معه أحد في هذه المحبة، وفي الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**».

فكلّ محبة شركية يُسوَّى فيها بين الله وغيره؛ فهي محبة باطلة لا يقبلها الله عز وجل ولا يرضاها.

وهذا أصل عظيم يتبيّن به أن من يدّعي محبة الله وهو يدعو غيره إنما هو مبطل مشرك، ولو أنشد المدائح الإلهية وأكثر من التعبير عن دعوى المحبة كما وقع في ذلك طوائف من غلاة الصوفية وأصحاب الطرق الشركية، فإنَّ دعواهم من جنس دعوى اليهود والنصارى إذ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] حتى بلغ بهم الاغترار بدعواهم أنِ ادَّعوا أنَّ الجنة حصر عليهم لا يدخلها غيرهم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١١٢﴾

[البقرة: ١١١-١١٢].

وكثير من أصحاب الطرق الشركية ممن ينتسب إلى الإسلام يدَّعون أن طريقتهم هي الموصلة لله والمبلّغة لرضوانه، وأنَّ غيرهم في ضلال عن الوصول لله وإدراك رضاه، وأنهم هم أولياء الله وأحباؤه، وهم يقعون في أنواع من الشرك بالله، ويُعرضون عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون في كلامهم من التعبير عن محبة الله ما يدهش السامعين.

ويكون في هذا فتنة لهم ولتابعيهم ومن يسمعهم؛ وينجّي الله المؤمنين الذين جعل الله لهم فرقاناً ونوراً يمشون به؛ فيعلمون أنَّ كل دعوى للمحبة لا تكون خالصة لله عز وجل لا يقبلها الله ولا يرضاها.

فإن الله تعالى لم يقبل إلا محبة من أسلم وجهه لله وهو محسن؛ فبإسلام الوجه يتحقق شرط الإخلاص، وبالإحسان يتحقق شرط المتابعة، وبذلك يكون من أهل الجنة، وبقدر رفعة درجاته في هذين الأمرين -إسلام الوجه وحسن العمل- يكون نصيبه من أجره عند ربه؛ فهي عنديّة خاصة وربوبية خاصة جعلها الله لأهل محبته الذين أسلموا له واتبعوا رسوله.

ويكون بذلك من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإنما يقع العبد في شيء من الخوف والحزن بسبب تقصيره في تحقيق الإخلاص وتجريد الاتباع، وأمَّا من كمَّل هذين المقامين فلا يتخلف عنه وعد الله أبداً؛ لأنه استمسك بالعروة الوثقى التي لا أوثق منها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢].

وأما المحبة البدعية فدليل بطلانها قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]؛ فلم يعتبر الله محبة المعرض المتولّي عن الطاعة والمتابعة شيئاً، بل سماه كافراً، وبيَّن أنه لا يحبه.

ومن تأمَّل أحوال أئمة الكفر من أصحاب الطرق الشركية البدعية الذين يدَّعون محبَّة الله وجدهم كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

فهم من أشد الناس تنفيراً عن المتابعة، وذمّا لمن يأمر باتباع الرسول، ويجتهدون في صرف أتباعهم عن الحق والهدى، ويسمون لهم الأمور بغير اسمها، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

ومحبةُ الله تعالى عبادةٌ من أجلّ العبادات فلا يُقبل فيها إلا أن تكون على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

إلا أن البدع تنقسم إلى قسمين: بدع مكفِّرة وبدع مفسِّقة.

فأما البدع المكفرة فهي التي تشتمل على ناقضٍ من نواقض الإسلام كدعوى بعض الفرق أن بعض معظميهم يعلمون الغيب، وأنَّ لهم تصرفاً في الكون، ومِن ذلك ما يفعله عبَّاد القبور والأولياء من تقديم النذور لهم والالتجاء إليهم والتضرع إليهم واعتقاد النفع والضر فيهم.

ومن ذلك أيضاً اعتقاد بعض المريدين أن بعض معظميهم هو الدليل على الله فلا يوصَل إلى الله إلا من طريقه، ويكون في كلامهم من تعظيم هؤلاء ما لا يصلح إلا لله جل وعلا، أو ما لا يصلح إلا للرسول صلى الله عليه وسلم.

فهذا ونحوه من البدع المكفرة والعياذ بالله، ولو زعموا أنهم إنما توجهوا إلى أوليائهم ليقربوهم إلى الله؛ فهم كما قال أسلافهم فيما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر: ٣].

فإن هذا المقصد لا يُدخلهم في الإسلام، وإنما يدخلهم في الإسلام إخلاص الدين لله تعالى كما قال الله تعالى في أول هذه الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فالله تعالى لا يقبل ديناً يُشرك معه فيه غيره، ويعظَّم فيه سواه، حتى يسوَّى بينه وبينه في العبادات من الدعاء والتضرع والنذر واعتقاد النفع والضر وغير ذلك من العبادات.

فأيما مدَّعٍ للمحبة وجدتَه يدعو غير الله تعالى ويلتجئ إليه ويصرف له أنواعاً من العبادات فاعلم أنه مشرك كافر ولو زعم ما زعم من محبة الله، ولو زعم أنَّ الذين يدعوهم إنما هم أولياء الله وأهل الله، وأنه إنما يدعوهم ليقربوه إلى الله زلفى، وأن الله تعالى لا يرد شفاعتهم، ويقرّب من يحبهم ويخدمهم؛ فكل ذلك من الضلالات والفتن التي فُتن بها طوائف ضلّت في هذا الباب عن الصراط المستقيم.

وأما البدع المفسّقة فهي البدع التي فيها جور عن اتباع السنة ولا تبلغ بالعبد مبلغاً يرتكب فيه ناقضاً من نواقض الإسلام؛ فلا يدعو غير الله ولا يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وإنما قد يقع منه تخصيص لبعض الأمكنة أو الأزمنة ببعض العبادات المخصوصة ونحو ذلك، فكل ما ابتدعه في الدين فهو رد عليه لا يقبله الله منه، ولا يقبل اللهُ من العمل إلا ما كان على هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن هؤلاء أخف درجة من أصحاب البدع المكفرة؛ فإن هؤلاء يشملهم اسم الإسلام، ويرجى لهم ما يُرجى لعصاة المسلمين من العفو والمغفرة وتنفعهم دعوات المسلمين، وتنفعهم حسناتهم فيكفر بها من سيئاتهم، وهم مع ذلك يُخشى عليهم من العذاب الأليم على ما أحدثوا من البدع فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في خُطبه ليبيّن للناس بياناً عاماً حتى يحفظوه ويعوه: «إنَّ

أصدقَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمَّد، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالة في النار». رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان وأصله في صحيح مسلم من حديث جابر، وروي نحوه من حديث العرباض بن سارية.

فتأمَّل هذه الكلمات ما أبينها وما أجزلها، وقد جعلها المسلمون شعاراً في خطبهم لإشهارها ومداومة التذكير بها، لعظم شأنها، ولتقوم بها الحجة على من تبلغه.

فكلُّ محبة تحمل على بدعة فهي غير مقبولة، ولا تنفع صاحبها، وإنما ينفعه اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم والتقرّب إلى الله بما شرع.

وأصل ضلال أصحاب المحبة البدعية أنهم يتقربون إلى الله بما يحبون لا بما يحبه الله، ويتبعون الظن وما تهوى الأنفس.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢].

وقال تعالى في الحديث القدسي: [ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه]. رواه البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا.

والعمل الخالص الحسن ينفع وإن كان قليلاً، والعمل الذي فيه شوب بدعة أو ما يقدح في الإخلاص يذهب كثير منه هباءً، ولا ينفع منه إلا ما أخلص منه صاحبه وأحسن باتباعه النبي صلى الله عليه وسلم من غير غلوّ ولا تفريط.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن جعفر الخلدي أنه قال: رأيت الجنيدَ في النوم فقلت ما فعل الله بك؟

قال: (طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفَنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنَّا نركعها عند السَّحَر).

والمقصود أن المحبة الباطلة هي التي تخلَّف عنها شرطا القبول من الإخلاص والمتابعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فلمّا صار كثيرٌ من الصوفية النسّاك المتأخرين يدّعون المحبة ولم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوعٌ من الشرك واتباع الأهواء.

والله تعالى قد جعل محبته موجبةً لاتباع رسوله؛ فقال ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله وليس شيءٌ يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيءٌ يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه؛ فصار محبوب الربّ ومدعوّ الرسول متلازمين، بل هذا هو هذا في ذاته وإن تنوعت الصفات.

فكل من ادَّعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول؛ فقد كذب، ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبّه فهي محبة شركٍ؛ فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله؛ فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول؛ فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع فمن قال: إنه من المريدين لله المحبين له، وهو لا يقصد اتباع الرسول والعمل بما أمر به وتَرْكِ ما نهى عنه؛ فمحبته فيها شوبٌ من محبة المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدعة.

فإن البدع التي ليست مشروعةً وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروفٍ ونهى عن كل منكرٍ) ا.هـ. وهو كلام حسن متين جليل القدر.

ولشيخ الإسلام في الرد على أهل البدع الذين وقعوا في المحبة الباطلة بنوعيها وحصل بسببهم فتن عظيمة مقامات مشهورة مشكورة، وسأنتقي لكم من كلامه المتفرق في كتبه نقولاً مقتضبة تكفي في بيان ما أردتُ توضيحَه.

فمن ذلك:

١: قوله في الذين يفتنون مريديهم بما يدَّعُون من الكرامات وتظهر عليهم بعض الخوارق التي يتوصلون إليها بأنواع من الحيل والتمويه، والرياضات النفسية، والأعمال السحرية، واستخدام الجن، والإلقاءات الشيطانية، فيدَّعون بذلك أنهم أولياء الله وأن هذه كرامات لهم ودلائل على أنهم على الحق، وأنهم من أهل الله الذين يحبهم ويحبونه.

قال: (قال أهل العلم والدين - كأبي يزيد البسطامي وغيره - : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي.

وقال الشافعي: لو رأيتم صاحب بدعةٍ يطير في الهواء فلا تغتروا به؛ فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١] وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين وأولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين)ا.هـ.

٢: **قوله في شأن بعضهم:** (عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما من ثلاثةٍ في قريةٍ لا يؤذَّن ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان**»، فأيّ ثلاثةٍ كانوا من هؤلاء لا يؤذَّن ولا تقام فيهم الصلاة كانوا من حزب الشيطان الذين استحوذ عليهم، لا من أولياء الرحمن الذين أكرمهم، فإن كانوا عُبَّادًا زُهَّادًا ولهم جوعٌ وسهرٌ وصمتٌ وخلوةٌ كرهبان الديارات والمقيمين في الكهوف والمغارات، كأهل جبل لبنان، وأهل جبل الفتح الذي بأسوان وجبل ليسونٍ ومغارة الدم بجبل قاسيون وغير ذلك، من الجبال والبقاع التي قصدها كثيرٌ من العباد الجهال الضلال، ويفعلون فيها خلواتٍ ورياضياتٍ من غير أن يؤذَّن وتقام فيهم الصلاة الخمس، بل يتعبدون بعباداتٍ لم يشرعها الله ورسوله، بل يعبدونه بأذواقهم ومواجيدهم، من غير اعتبارٍ لأحوالهم بالكتاب والسنة،

ولا قصد المتابعة لرسول الله الذي قال الله فيه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية.

فهؤلاء أهل البدع والضلالات من حزب الشيطان، لا من أولياء الرحمن، فمن شهد لهم بولاية الله فهو شاهد زورٍ كاذبٌ، وعن طريق الصواب ناكبٌ.

ثم إن كان قد عَرف أنَّ هؤلاء مخالفون للرسول وشهد مع ذلك أنهم من أولياء الله فهو مرتد عن دين الإسلام، إما مكذبٌ للرسول، وإما شاك فيما جاء به مرتابٌ، وإما غير منقادٍ له، بل مخالفٌ له إما جحودًا أو عنادًا أو اتباعًا لهواه، وكل من هؤلاء كافرٌ.

وأما إن كان جاهلًا بما جاء به الرسول وهو معتقدٌ مع ذلك أنه رسول الله إلى كل أحدٍ في الأمور الباطنة والظاهرة وأنه لا طريق إلى الله إلا بمتابعته صلى الله عليه وسلم لكن ظن أن هذه العبادات البدعية والحقائق الشيطانية هي مما جاء بها الرسول ولم يعلم أنها من الشيطان لجهله بسنته وشريعته ومنهاجه وطريقته وحقيقته؛ لا لقصد مخالفته ولا يرجو الهدى في غير متابعته فهذا يُبيَّن له الصواب ويُعرَّف ما به من السنة والكتاب؛ فإن تاب وأناب وإلا ألحق بالقسم الذي قبله، وكان كافرًا مرتدا، ولا تنجيه عبادته ولا زهادته من عذاب الله، كما لم ينج من ذلك الرهبان وعُبَّاد الصلبان وعُبَّاد النيران وعُبَّاد الأوثان مع كثرة من فيهم ممن له خوارق شيطانيةٌ ومكاشفاتٌ شيطانيةٌ قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

قال سعد بن أبي وقاصٍ وغيره من السلف: «**نزلت في أصحاب الصوامع والديارات**»)ا.هـ.

٣: قوله: (والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم [أي محبة الله]؛ ولهذا أنزل الله للمحبة محنةً يمتحن بها المحبّ فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي

﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فلا يكون محبا لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية.

وكثيرٌ ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته، ويدعي من الخيالات ما لا يتّسع هذا الموضع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته).

٤: قوله في الرد على أصحاب السماع البدعي: (قولهم إن هذا السماع يحصل محبوب الله وما حصل محبوبه فهو محبوب له قول باطل، وكثير من هؤلاء أو أكثرهم حصل لهم الضلال والغواية من هذه الجهة؛ فظنوا أنَّ السماع يثير محبة الله، ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب وبكمالها يكمل، وهي فيما يذكره أبو طالب وغيره نهاية المقامات، وربما قال بعضهم: هي المقام الذي يلتقي فيه مقدمة العامّة وساقة الخاصة، ويقول من يقول منهم: إن السماع هو من توابع المحبة، وأنهم إنما فعلوه لما يحركه من محبة الله سبحانه وتعالى إذ السماع يحرك من كل قلب ما فيه؛ فمن كان في قلبه حب الله ورسوله حرك السماع هذا الحب وما يتبع الحب من الوجد والحلاوة وغير ذلك، كما يثير من قلوب أخرى محبة الأوثان والصلبان والإخوان والخلان والأوطان والعشراء والمردان والنسوان.

ولهذا يُذكر عن طائفة من أعيانهم سماع القصائد في باب المحبة كما فعل أبو طالب.

فيقال: إنَّ ما يهيّجه هذا السماع المبتدَع ونحوه من الحبّ وحركة القلب ليس هو الذي يحبه الله ورسوله، بل اشتماله على ما لا يحبه الله وعلى ما يبغضه أكثر من اشتماله على ما يحبه ولا يبغضه، وصدُّه عما يحبه الله ونهيه عن ذلك أعظم من تحريكه لما يحبه الله، وإن كان يثير حبًّا وحركة ويظن أن ذلك يحبه الله وأنه مما يحبه الله فإنما ذلك من باب اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ا.هـ.

٥: قوله في بعض غلاتهم: (وهذا في هؤلاء من يرى جواز قتل الأنبياء، ومنهم من يرى أنه أفضل من الأنبياء، إلى أنواع أخر، وذلك لأنه حصل لهم من الأحوال الشيطانية والنفسانية ما ظنوا أنها من كرامات الأولياء؛ فظنوا أنهم منهم؛ فكان الأمر بالعكس.

وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبّه النفس، وأما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبّونه ولا يريدونه وحده، ويرون أنهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسلُه حطّ لهم عن منصب الولاية؛ فيحدثون محبة قوية وتألها وعبادة وشوقا وزهدا ولكن فيه شرك وبدعة.

ومحبة التوحيد إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١] فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم، يحبون لله ويبغضون له) ا.هـ.

درجات محبة الله تعالى:

إذا تبيَّن تقرير ما سبق من أن المحبة الصحيحة المقبولة عند الله عز وجل هي المحبة التي جمعت شرطا القبول من الإخلاص والمتابعة فاعلم أن هذه **المحبة الصحيحة على ثلاث درجات، قائمة على درجات تحقيق العبودية التي سبق بيانها:**

فالدرجة الأولى: هي المحبة التي تحمل العبد على الدخول في الإسلام فيوحّد الله عز وجل ولا يدعو معه غيره، ويؤدي من الفرائض ما يبقى به إسلامه ويجتنب نواقض الإسلام، وهو مع ذلك يقع في أنواع من التفريط في الواجبات وارتكاب المحرمات .

فهذه المحبة تنفع صاحبها وتعصمه من الخلود في النار لكنَّها لا تعصمه من العقوبة على ما اكتسب من الإثم.

وأما الدرجة الثانية: فهي المحبة التي تحمل العبد على أداء الفرائض واجتناب المحرمات، وهذه هي درجة عباد الله المتقين، وهي الدرجة التي يسلم بها العبد من العذاب، ويُثاب بها بأنواع من الثواب.

وأما الدرجة الثالثة: فهي درجة المقربين، وهم أهل الإحسان في العبادة الذين حملتهم محبة الله تعالى والشوق إلى لقائه على عبادة الله كأنهم يرون الله، فأدوا الفرائض واستكثروا من النوافل في اقتصاد وتسديد ومقاربة حتى بلغوا من رضوان الله عز وجل مبلغاً عظيماً كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

فغاية ما يرجوه أهل محبة الله في الدنيا ما تضمنه هذا الحديث.

وهؤلاء هم الذين استمسكوا بأوثق عرى الإيمان التي لا أوثق منها؛ كما في مسند أبي داوود الطيالسي من حديث معاوية بن سويد بن مقرن عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه و سلم فقال: «أتدرون أيَّ عرى الإيمان أوثق؟».

قلنا: الصلاة.

قال: «الصلاة حسنة، وليست بذلك».

قلنا: الصيام؛ فقال مثل ذلك، حتى ذكرنا الجهاد؛ فقال مثل ذلك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله عز و جل والبغض في الله».

وهؤلاء هم الذين استكملوا الإيمان كما في سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان».

قال ابن القيم رحمه في إغاثة اللهفان شارحاً هذا الحديث: (فإن الإيمان علم وعمل، والعمل ثمرة العلم، وهو نوعان: عمل القلب حباً وبغضاً، ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلاً وتركاً، وهما العطاء والمنع؛ فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى كان صاحبُها مستكملَ الإيمان، وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه)ا.هـ.

والعطاء في الحديث يشمل جميع ما يُعطى من علم ومال وجاه ووقت وجهد وغيرها من أنواع الخير، وكذلك المنع.

فكان حبّهم لله، وبغضهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، فيَرضون لرضا الله، ويغضبون لغضب الله، ويوالون في الله، ويعادون في الله، ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم.

وهؤلاء هم الذين يرضى الله تعالى لرضاهم ويغضب لغضبهم، ويحارب من يعاديهم، فهم أولياء الله وأهل محبته الذين يحبهم ويحبونه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في طائفة فيهم سلمان وصهيب وبلال: «لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربَّك» وذلك لما مرَّ بهم أبو سفيان في غزوة أحد فقالوا: «**ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها**» فعاتبهم أبو بكر، وهم إنما قالوا ما قالوا غضباً لله جل وعلا؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم ما قال حتى رجع إليهم أبو بكر فقال: «**يا إخوتاه هل أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك**». وخبرهم في صحيح مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزني رضي الله عنه.

والمقصود هنا بيان أن المحبة على درجات بحسب ما تحمل عليه من الإخلاص وحسن الاتباع؛ فأصحاب الدرجة الثالثة سابقون بالخيرات، وأصحاب الدرجة

الثانية مقتصدون، وأصحاب الدرجة الثالثة ظالمون لأنفسهم، وهؤلاء كلهم موعودون بدخول الجنة كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٤].

قال الإمام الشنقيطي: (والواو في يدخلونها شاملة للظالم والمقتصد والسابق على التحقيق. ولذا قال بعض أهل العلم: حقٌّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين، فوعده الصادق بجنات عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن، ولم يبق من المسلمين أحد خارج عن الأقسام الثلاثة، فالوعد الصادق بالجنة في الآية شامل لجميع المسلمين ولذا قال بعدها متصلا بها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦] إلى قوله: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧])ا.هـ.

درجات مخالفة مقتضى المحبة:

إذا عرفت درجات المحبة وأحكام أصحابها، فاعلم أن **مخالفة ما تقتضيه محبة الله عز وجل على درجات:**

الدرجة الأولى: مخالفة ما تقتضيه محبة الله تعالى في أصل الدين، وهي الدرجة الأولى من درجات تحقيق العبودية، وأصحاب هذه الدرجة هم الذين انتفى عنهم حب الله عز وجل، وهم الخارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله، **وهؤلاء على أصناف:**

الصنف الأول: المشركون الذين يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله؛ وهؤلاء أصحاب المحبة الشركية.

الصنف الثاني: المستكبرون الذين كفروا كبراً وعناداً ولا يحبون الله أصلاً، بل منهم من يصرّح ببغض الله عز وجل.

الصنف الثالث: الملاحدة الذين ينكرون وجود الله.

الصنف الرابع: المنافقون النفاق الأكبر.

الصنف الخامس: أصحاب البدع المكفرة من المنتسبين للإسلام كأهل الطرق الشركية من غلاة الصوفية والرافضة وأضرابهم.

الدرجة الثانية: مخالفة مقتضى المحبة بارتكاب بعض المحرمات والتفريط في بعض الواجبات مع اجتناب ما ينقض الإسلام.

وأصحاب هذه الدرجة هم عصاة المسلمين، وهؤلاء لديهم أصل محبة الله، ولهم نصيب من ولاية الله تعالى، ويرجى لهم بإسلامهم، لكن يخشى عليهم العذاب بسبب ما وقعوا فيه من العصيان، ومآلهم إلى الجنة بإذن الله؛ فإنَّ الله تعالى قد وعد أصناف المسلمين الثلاثة بدخول الجنة.

فكان ما مع هؤلاء من محبة الله نافعاً لهم صحيحاً مقبولاً عند الله عز وجل، ومحبتهم مع هذا ناقصة غير تامة، إذ لم يقوموا بما تقتضيه المحبة الواجبة.

الدرجة الثالثة: مخالفة مقتضى المحبة بالتفريط في النوافل وفضائل العبادات، مع القيام بما أوجب الله من الفرائض، واجتناب ما حرَّم الله.

وهذا أمر قد يقع فيه بعض المتقين، وهم وإن لم يكونوا آثمين مستحقين للعقاب إلا أنهم قد فرَّطوا في فضل عظيم، وقد عاتب النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه في ذلك عتاباً لطيفاً بكوا منه جميعاً، وذلك في الحديث العظيم الذي فيه بيان قصة حديث النزول المشهور وذلك لَمَّا انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد بيعة الرضوان.

قال رفاعة بن عرابة الجهني رضي الله عنه:

أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى إذا كنا بالكديد -أو قال: بقُديد- فجعل رجال منا يستأذنون إلى أهليهم فيأذن لهم، فقام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**ما بال رجال يكون شقُّ الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليهم من الشق الآخر؟!!**».

قال: (فلم نر عند ذلك من القوم إلا باكيًا).

فقال أبو بكر الصديق: (إن الذي يستأذنك بعد هذا لسفيه).

فحمد الله، وقال حينئذ: «**أشهد عند الله لا يموت عبدٌ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صدقًا من قلبه، ثم يسدد إلا سُلِكَ به في الجنة**».

ثم قال: «**وقد وعدني ربي عز وجل أن يدخل من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوَّءُوا أنتم ومن صلح من آبائكم وأزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة**».

وقال: «**إذا مضى نصف الليل -أو قال: ثلثا الليل- ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا فيقول: لا أسأل عن عبادي أحدًا غيري، من ذا يستغفرني فأغفر له؟ من ذا الذي يدعوني أستجيب له؟ من ذا الذي يسألني أعطيه؟ حتى ينفجر الصبح**».

وهذا الحديث رواه أبو داوود الطيالسي وأحمد وابن خزيمة وغيرهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء ابن يسار عن رفاعة الجهني، وهو إسناد على شرط الشيخين، ولذلك عدَّه الدارقطني في الإلزامات مما يلزم الشيخين إخراجه على شرطهما ومذهبهما.

فأعدْ قراءة الحديث وتأمَّل مناسبة أوَّله لآخره، واعرف سرَّ العتاب اللطيف الذي أبكى المحبين، وتنبَّه إلى أنَّ أهلَ الإحسان يعدّون هذا الجفاء سفاهة.

درجات التقديم على محبة الله ورسوله:

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

وفي رواية لمسلم: «**لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**».

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب؛ فقال له عمر: «**يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي**».

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**».

فقال له عمر: «**فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي**».

فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «**الآن يا عمر**».

وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال ابن جرير: (﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقول: أحق بالمؤمنين به ﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم، فيجوز ذلك عليهم).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وتقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على ثلاثة درجات وهي درجات الاتباع ودرجات تحقيق العبودية المتقدم ذكرها:

الدرجة الأولى: وهي التي لا يصح الإسلام إلا بها وهي تقديم محبته فيما يلزم منه البقاء على دين الإسلام، والمخالف في هذه الدرجة كافر.

الدرجة الثانية: درجة الوجوب، فيطيع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أمر وجوب، ويجتنب ما نهى عنه نهي تحريم، والذين يؤدي هذه الدرجة هو مؤمن مؤدٍّ للطاعة الواجبة، والمخالف فيها هو الذي يقدم ما تحبه نفسه وتهواه على طاعة الرسول عاص مخالف للأمر مستحق للعقاب بقدر مخالفته.

الدرجة الثالثة: درجة الاستحباب والكمال، وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أمر وجوب أو استحباب على ما يستطيع العبد، واجتناب ما ينهى عنه نهي تحريم وكراهة، وهذه الدرجة من حقَّقها فهو من أهل الإحسان.

ومن خالف فيها بما لا يلحقه بالمخالفين في الدرجة الثانية فهو غير آثم، لكن يفوته من الخير والفضل بقدر ما فرَّط فيه.

فتبيَّن أن تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على هذه الدرجات الثلاث: منها ما لا يصح الإسلام إلا به، ومنها ما هو واجب ومنها ما هو كمال مستحب.

ويكون معنى نفي الإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه ...** ».

على ثلاث درجات:

١ : **نفي أصل الإيمان**، وهذا للمخالفين في الدرجة الأولى.

٢ : **نفي الإيمان الواجب**، وهذا للمخالفين في الدرجة الثانية.

٣: نفي كمال الإيمان، وهذا للمخالفين في الدرجة الثالثة.

أسباب محبة الله عز وجل:

الكلام في أسباب محبَّة الله تعالى على نوعين:

النوع الأوَّل: الأسباب التي يُحبُّ الله تعالى لأجلها.

والنوع الثاني: الأسباب التي يحصِّلُ بها العبد محبَّةَ الله عز وجل.

فالنوع الأول أشبه بجواب سؤال: كيف نُحِبُّ الله؟

والنوع الثاني: أشبه بجواب: كيف ننال محبة الله؟

ومعرفة النوع الأول داخلة في النوع الثاني؛ لأنك إذا عرفت لماذا تحب الله، فإن ذلك مما يعينك على تحقيق محبة الله تعالى، والفوز بحبّه إيّاك.

فأمَّا النوع الأول: فخلاصة الكلام فيه أن الله تعالى يُحبُّ لأمرين:

الأمر الأول: لأنه تعالى هو وحده المستحق للحب لذاته، لما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا؛ ولأنه هو خالقنا وحده لا شريك له، وقد خلقنا لعبادته، ومن عرف الله حقَّ المعرفة أحبَّه؛ فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها عليا، وأفعاله كلها في غاية الحسن، لا يأمر إلا بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا يكلف عباده ما لا يطيقون، يرضى منهم بالقليل من العمل، ويجزيهم عليه الجزيل من الثواب، من تقرب إليه شبراً تقرَّب إليه ذراعاً، ومن تقرَّب إليه ذراعاً تقرَّب إليه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة.

يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه، وهو غني عنهم، يدلهم على أسباب فضله ورحمته ورضوانه، ويريهم في آياته ومخلوقاته آثار أسمائه وصفاته، فيحصل لهم بتدبر الآيات المتلوة، وتأمل الآيات المخلوقة ما يعرفون به ربهم جل وعلا، فيحبونه ويؤمنون به ويشتاقون للقائه، فهو الولي الحفيظ، والكريم الرحيم،

والواسع العليم، وهو خير الرازقين، وخير الحافظين، وهو نعم المولى، ونعم النصير، وهو العلي الكبير، والحميد المجيد، والقوي العزيز، ينتقم لعباده المؤمنين ممن يكيدهم ويؤذيهم، ويعادي من يعاديهم، وأوجب على نفسه نصر أوليائه المؤمنين المتقين وهدايتهم لفضله ورحمته.

ولا يزال العبد المؤمن يتفكر في أسماء الله وصفاته وآثارها حتى يجد هذا الحب ضروريا في قلبه.

والأمر الثاني: محبة الله تعالى لنعمه وإحسانه، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ومن تأمَّل في نعم الله عليه وإحسانه إليه أوجب له ذلك محبة الله في قلبه، وتزداد المحبة بكثرة ذكر النعمة وشكرها.

وأما النوع الثاني: فقد لخصه ابن القيم رحمه الله في عشرة أسباب، فقال في المدارج:

(فصل في **الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة:**

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا

محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب، **وملاك ذلك كله أمران:**

- **استعداد الروح لهذا الشأن.**
- **وانفتاح عين البصيرة.**

وبالله التوفيق) ا.هـ.

دلائل المحبة وآثارها:

إذا صحت محبة الله في قلب العبد قادته إلى الاستقامة على طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فيكون المحبّ في أمن وإيمان وسلامة وإسلام يسير على هدى من ربه ويتقلب في فضله ورحمته ورضوانه، قد ذاق طعم الإيمان،

وحلاوة المناجاة، وعزة الطاعة، ونور العلم، وبرد اليقين، وسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وراحة البال، وسمو الهمة، وصفاء السريرة، وشرف الولاية؛ وكرم المعية؛ فهو أنعم الناس عيشاً في الحقيقة، نسأل الله من فضله.

ومن كملت محبة الله في قلبه كملت طاعته واستقامته، ومن كملت طاعته لم يعذبه الله أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] فالمحبة تمنع العذاب.

وفي مسند الإمام أحمد ومستدرك الحاكم وغيرهما بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله، لا يلقي الله حبيبه في النار».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن الحسن مرسلاً: «**والله لا يعذب الله عز وجل حبيبه، ولكن قد يبتليه في الدنيا**».

فهذا لمن صحت محبته وصفت، وكان قلبه سليماً لله عز وجل؛ فاستقام على ما يحبه الله.

وإنما يقع العبد في الذنوب والمعاصي إذا ضعف إيمانه وقل يقينه، وضعف حبه لله وحبه لثوابه، حتى يؤثر اللذة الفانية على ثواب الله الباقي، فيقع في التقصير ويستحق من العذاب بقدر ما يعمل من المعاصي.

ولو أن العبد عظَّم محبة الله في قلبه لآثر ما يحبه الله ويرضاه على ما تحبه نفسه وتهواه.

وهذه المحبة **لها دلائل وآثار، وخلاصة القول في دلائلها وآثارها أن أصولها ثمانية:**

١: **إخلاص العبادة لله عز وجل**، وتمام ذلك أن يريد العبد وجه الله تعالى في شؤونه كلها.

٢: **اتباع الرسول** صلى الله عليه وسلم، وهو البرهان العظيم على صدق دعوى المحبة هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فالمحبة تستلزم الطاعة.

٣: **الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس،** وهو دليل المحبة الكاملة لأنه بَذْل أغلى ما يملك العبد لله جل وعلا، والجهاد حقيقته الاجتهاد في تحصيل ما يحبه الله، ودفع ما يبغضه الله على هدى من الله.

قال ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد: هو بذل الوسع - وهو كل ما يملك من القدرة - في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق؛ فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه).

٤: **التواضع للمؤمنين والتذلل لهم** (تذلل عطف ورحمة وأخوة) والعزة على الكافرين من غير ظلم لهم، وذلك من أعظم دلائل صحة المحبة، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عدي بحرف على لتضمنه معنى العطف والشفقة، ولم يعدَّ بحرف اللام لئلا يتضمن معنى الاحتياج والافتقار.

٥: **الموالاة في الله والمعاداة في الله،** فإنَّ من أحبَّ الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه الله من جهادهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، و«**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق**»، فمن علامات سلامة القلب وصحة المحبة أن توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله، وتعظم ما عظمه الله، وتحقر ما حقره الله، وترضى لما يرضي الله، وتغضب لما يغضب الله.

٦: **الهجرة إلى الله** بالهجرة الحسية عند وجوبها أو استحبابها، أو الهجرة المعنوية كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

وهذه الهجرة المعنوية شأنها عظيم بل هي أصل الهجرة الحسية، كما أن جهاد النفس أصل سائر أنواع الجهاد.

وهي واجبة في هَجْرِ ما نهى الله عنه نهي تحريم، ومستحبة في هجرِ ما نُهي عنه نَهْيَ كراهة دون نهي التحريم.

والمؤمن مأمور بأن يحقق الهجرة المعنوية وذلك بترك جميع ما نهى الله عنه نهي تحريم أو كراهة من قول أو فعل أو اعتقاد.

وهذه الهجرة تقتضي أن ينيب العبدُ المهاجرُ بقلبه إلى الله عز وجل؛ فيهاجر من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الإساءة إلى الإحسان.

ومن تأمل أحوال هذه الهجرة وجدها تنتظم جميع أعمال العبد وحركاته وسكناته، ومن كان هذا دأبه كان من الأوَّابين المنيبين.

قال ابن القيم رحمه الله في الرسالة التبوكية: (**الهجرة هجرتان:**

الهجرة الأولى: هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا .
وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها.

وهي هجرة تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠])ا.هـ.

وفي مسند الإمام أحمد والتاريخ الكبير للبخاري وشعب الإيمان للبيهقي أن معاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قالوا: إن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تُقُبِّلَتِ التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب؛ فإذا طلعت طُبِع على كلّ قلبٍ بما فيه وكُفِيَ الناسُ العمَلَ».

وفي مسند الإمام أحمد وغيره أن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم: (أي الهجرةِ أفضل؟).

قال: «أن تهجر ما كَرِهَ ربك».

ورواه أبو داوود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو وعبد الله بن حبشي مع إبهام السائل، ولفظه: قيل : فأي الهجرة أفضل؟

قال: «أن تهجر ما حرَّم الله».

٧: أن لا يخاف في الله لومة لائمة؛ فالمحب التام المحبة لا يؤثر فيه لوم اللائم ولا عذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

٨: كثرة ذكر الله؛ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وكثرة الغفلة دليل ضعف المحبة، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

آداب المحبة:

عبادة المحبة ضلت فيها طائفتان:

- طائفة أنكرتها وصرفتها إلى محبة الثواب وهم الجهمية.

- وطائفة أدخلت فيها باطلاً كثيراً من كثرة الانبساط وما لا يليق من الأقوال والأحوال، وهم طوائف من الصوفية، ووصل الأمر بغلاتهم إلى الكفر الصريح وسوء الأدب القبيح.

ومن الأغلاط الشنيعة ما يذكره بعضهم في شأن محبة الله جل وعلا من الأشعار والأقوال التي تحمل معنى الهجر والتجني والصد والقطيعة ونحو ذلك من المعاني في المتحابين من البشر للهوى.

فكل ذلك مما يخالف آداب المحبة وواجباتها؛ فمحبة العبد لربه محبة بإجلال وتعظيم، وتأدب بآداب العبودية، وهي محبة مقرونة بالخوف والرجاء والخشية والإنابة.

الفرق بين المحبة المحمودة والمحبة المذمومة:

كل حركة في الوجود صادرة عن محبة: إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة؛ وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله تعالى، ومن آثارها محبة ما أمر الله به، وما أذن الله بمحبته.

والمحبة المذمومة هي محبة ما يبغضه الله؛ فكل ما يحب لغير الله فمحبته باطلة. وفي سنن الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً**».

الفرق بين حُبّ العبادة وغيره:

لفظ المحبة فيه إطلاق وعموم، وله ثلاث إطلاقات في النصوص:

١: **فيطلق على ما يحمل معنى التعبد،** وهو الحب الذي فيه تذلل وتعظيم وخوف ورجاء ورغبة ورهبة وتعلق القلب بالمحبوب فهذا حب التعبد، وصرفه لغير الله شرك أكبر، وإن كان الحب فيه تعلّق أصغر فهو شرك أصغر كتعلق القلب بالمال والأشخاص حتى يكون في قلبه نوع عبودية لهم.

٢: **ويطلق على ما هو من لوازم محبة الله وآثارها؛** كمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة المؤمنين ومحبة ما يحبه الله من الأمكنة والأزمنة وغيرها.

فمحبة الرسول الله صلى الله وعليه وسلم ليست من جنس محبة الله، وإنما هي تابعة لمحبة الله، ولذلك لا تتضمن معاني تعبدية تصرف للرسول صلى الله عليه وسلم.

وكذلك محبة الصالحين هي تابعة لمحبة الله تعالى، وأما من أحب الصالحين محبة تعبد لهم فقد أشرك بهم من دون الله جل وعلا.

٣: **الحب الجبلّي الطبيعي الخالي من المعاني التعبدية** فهذا قد يكون مباحاً مأذوناً به، وقد يكون محرماً، وقد يكون مكروهاً، بحسب غرضه وأثره.

والكلام في العناصر الثلاثة الأخيرة يحتمل بسطاً أحسن من هذا، لكن خشيت الإطالة؛ فاكتفيت بالخلاصة عن التطويل، والله تعالى أعلم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس: الخوف والرجاء

الخوف والرجاء عملان جليلان من أجلّ أعمال القلوب، وكلام أهل العلم فيهما مستفيض في كتب السلوك والاعتقاد والتفسير وشروح الأحاديث، وتلخيصه في المباحث التالية:

- الخوف
  - منزلة الخوف
  - أنواع الخوف
  - موجِبات الخوف من الله تعالى
  - آثار الخوف من الله
  - الفرق بين خوف العبادة وغيره
  - أقسام الناس في الخوف من الله
- الرجاء
  - حقيقة الرجاء
  - منزلة الرجاء
  - أقسام الرجاء
- الجمع بين المحبة والخوف والرجاء
- أيهما يغلّب الرجاء أم الخوف؟

الخوف

منزلة الخوف

الخوف عبادة من أجل العبادات، بل هو أصل التقوى، وإنما سمِّي المتقي متقيًا لأنه يجعل بينه وبين ما يخاف وقاية؛ فالحامل على التقوى في الأصل هو الخوف.

وقد أمر الله تعالى بإفراده بالخوف وتعظيم مقامه جلَّ وعلا فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

فالخوف من الله تعالى أصل عظيم من أصول الدين، لا يصح الإيمان إلا به، وهو أصل التقوى، ورأس الحكمة، ومفتاح التوفيق، وجُنَّة المؤمن، وقيدُه عن المعاصي والتفريط، **وهو عبادة من أجل العبادات، وقد عرفنا أنه عبادة بأمور:**

أولها: أن الله تعالى أمر به فقال: ﴿وَخَافُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهو يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، وامتثال أمر الله عبادة.

وثانيها: أن الله تعالى جعل الخوف منه شرطاً للإيمان ومقتضى من مقتضياته فقال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وثالثها: أن الله تعالى يحب أن نخاف منه، ووعد الذين يخافون مقامه بالثواب العظيم؛ وقد عرفنا أن كل ما يحبّ الله أن نعملَه عملَ قلبٍ أو عملَ جوارحٍ أو نقولَه فهو عبادة.

ورابعها: أن الله تعالى أثنى على الذين يخافونه ومدحهم بل جعل وَجَلَ القلوب من مخافة الله تعالى شرطاً لحقيقة الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

-وقال تعالى في مدح المصلّين الذين تنفعهم صلاتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج: ٢٦-٢٨].

-وقال تعالى في مدح المنفقين الذين ينفعهم إنفاقهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠].

- وقال تعالى في مدح أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

وهذه العبادات: الصلاة والصدقة والتلاوة والذكر هي أصول أعمال الجوارح، كما أن المحبة والخوف والرجاء أصول أعمال القلوب.

وخامسها: أن الله تعالى أمر بالاتساء بنبيه صلى الله عليه وسلم، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم بفعله وبما أخبر به عن نفسه أحسن الهدي في أعمال القلوب وغيرها، ومنها الخوف من الله عز وجل، فقال: «**أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**». متفق عليه.

فتبيَّن بذلك أن الخوف من الله عبادة من أجل العبادات.

أنواع الخوف:

الخوف له أنواع ثلاثة:

النوع الأول: الخوف من سخط الله تعالى، والحرمان من رضوانه، وهذا هو خوف المحبّين، فإن خوف المؤمن من فوات ما يحبه ويتعلق به قلبه من رضوان الله عز وجل ومحبته وما يتبع ذلك من بركات عظيمة أشد من خوف كل خائف على أعظم كنز عنده، أو صحة نفسه أو حياة حبيبه.

ويكفي في ذلك أن تعلم أن غاية من تعلقت قلوبهم بمحبة الله جل وعلا أن ينظروا إليه، فهذه أغلى الأمنيات وأعز المطالب، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة**».

فأعظم عقوبة للمحب حرمانه من رؤية محبوبه الأعظم ورضاه، وخوفُه على هذا المطلب لا يعادله خوفٌ على غيره، وقد جعل الله من عقوبة الكفار حرمانهم من رؤيته فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين: ١٥-١٦].

فبدأ بعقوبة الحجاب قبل الجحيم؛ والتقديم مشعر بالتعظيم، ويعلم الله ما يكون في قلوبهم من الحسرة العظيمة يوم القيامة بسبب هذا الحرمان.

قال شيخ الإسلام: (فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات ؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقامَ حظهم منه تعالى).

ثم إنَّ أنس المؤمن في حياته ونعيم روحه إنما هو في رضوان الله عز وجل عليه، فإذا تعرَّض لسخط الله باقتراف معصية كان خوفه على فقد أنسه بالله وما تنعُم به روحُه من بركات رضوان الله أعظمَ من خوف أصحاب الأموال على أموالهم، بل إنه في حال الاستقامة يخاف من زوال هذه النعمة، ويخاف أن لا

يدرك درجاتٍ تتوق إليها نفسه ويسعى لبلوغها؛ فيخاف من اقتراف ما يحول بينه وبينها.

وخوف المؤمن من الحرمان من رضوان الله عز وجل في الدنيا ناشئ من شهوده افتقاره الشديد إلى ربّه جلّ وعلا، ومعرفته بضعف نفسه وعجزها وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، وأنه إذا لم يرض الله عنه ولم يهيئ له أسباب رحمته وفضله وبركاته فهو حليف الحرمان والشقاء والعياذ بالله.

فإذا تيقَّن المؤمن ذلك يقينا يحلّ في سويداء القلب، ويجده في نفسه كان أحرصَ شيء على رضوان الله، ولا أخوف عنده على نفسه من أمر يجلب له مقت الله تعالى وسخطه ويحرمه من رضوانه.

وَسَخَطُ الله تعالى له سبب واحد: هو معصية الله، لأن العبد إذا اجتنب فعل المعصية لم يأتِ ما يُعاقَب عليه، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**خمسٌ احفظوهن، لو ركبتم الإبل لأنضيتموهنّ قبل أن تدركوهن: لا يخافنّ العبدُ إلا ذنبه، ولا يرجُ إلا ربَّه، ولا يستحيِ جاهلٌ أن يسأل، ولا يستحيِ عالمٌ إن لم يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد، و لا إيمان لمن لا صبر له**». رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، من طرق لا تخلو من ضعف لكن يشدّ بعضها بعضاً.

فقوله: «**لا يخافنّ العبد إلا ذنبه**» مقصده أن مصدر شقاء العبد وحرمانه وعذابه هو ذَنْبه، ولذلك كان الشيطان أحرص شيء على أن يوقع العبد في الذنب.

النوع الثاني: الخوف من العذاب الدنيوي والأخروي، وهذا الخوف ملازم لقلب المؤمن، قال الله تعالى في صفات المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨].

وأشدّ ذلك وأوقعه في القلب الخوف من عذاب الآخرة، وذلك يشمل عذاب القبر وأهوال يوم القيامة وعذاب النار، وهو مع ذلك يخاف من العذاب الدنيوي أيضاً.

ومن ذلك: أن كل معصية توعد عليها بلعنة الله وغضبه فهي سبب خوف عظيم، وكم من إنسان بقي معذباً سنوات من عمره بسبب لَعنةٍ لُعنها على كبيرة عملها، استهان بها عمل، ونسي وغفل، فلم يتب من ذنبه، ولم يسترح من عذابه.

فهذا من عذاب الدنيا الذي يخافه المؤمنون، فيوجب لهم ذلك محاسبة النفس وتأمل ما يعانونه من العذاب ومناسبته لما يخشون اقترافهم له من الذنوب؛ فإن الغالب أن يكون الجزاء من جنس العمل.

قال ذو النون المصري: (الخوف رقيب العمل).

وبين المحاسبة والخوف تلازم ؛ فالخوف يوجِب محاسبةَ النفس حتى ينظر العبدُ ما ارتكب مما يستحقّ عليه العذاب، ومحاسبة النفس توجب الخوفَ من الله تعالى لأنه إذا حاسب نفسه عرف تقصيره فخاف أن يعاقب عليه.

وأما الخوف من عذاب الآخرة فله شأن آخر في قلوب المؤمنين، وقد أثنى الله عليهم بهذه الخصلة فقال تعالى عن عباده المصلين الذاكرين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

وذَكَر - تعالى - عن عباده الأبرار أنهم يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٥-١٦].

وقال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

فالخوف من العذاب هجيرى قلوب المتقين، ومن خاف سلك سبيل النجاة، ومن أمن العقوبة أساء العمل.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إنَّ أهْوَنَ أهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ يوضعُ في أخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ. مَا يَرَى أنَّ أحَداً أشَدُّ مِنْهُ عَذَاباً، وَأنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَاباً» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

- قال شعبة بن الحجاج: حدثنا موسى بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحابه شيء فخطبَ خطبةً ما سمعتُ مثلها قط، قال: «عرضت علي الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا».

قال: فما أتى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أشد منه، غطَّوا رؤوسهم ولهم خنين). رواه البخاري ومسلم.

- وقال أبو إسحاق السبيعي: سمعت النعمان بن بشير يخطب وهو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ أهونَ أهلِ النار عذاباً يومَ القيامةِ لَرَجُلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجَل والقُمْقُم، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا» رواه البخاري ومسلم.

النوع الثالث: الخوف من فوات الثواب؛ فإن العامل المجتهد يرجو ثمرة عمله، ويخاف أن يخيب سعيه بشيء يقترفه فيخسر ما كان يرجوه من الثواب العظيم، ولذلك اشتد خوف الصالحين من اقتراف محبطات الأعمال، لأنها توبق سعي العبد وتحرمه من ثواب ما عمل.

ولا شيء أخوف عندهم من الشرك لأنه محبط لجميع العمل ولا يعفى عمَّن ارتكبه مهما بلغ من العلم والعبادة، كيف وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

وقال في أنبيائه الذين آتاهم الكتاب والحكم والنبوة: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من محبطات الأعمال عامّها وخاصّها تحذيراً شديداً، فالمحبطات العامة هي التي تحبط جميع العمل وهي نواقض الإسلام، والمحبطات الخاصة هي التي تحبط ثواب بعض الأعمال؛ كالمنَّة في النفقة، والرياء الأصغر في العبادة، وطلب الدنيا بعمل الآخرة في بعض الأعمال، ونحو ذلك.

وهذا التحذير يوجب الخوف من فوات الثواب بسبب ذنب يرتكبه العبد فيوبق سعيه، والعياذ بالله.

موجبات الخوف من الله:

الخوف من الله تعالى منزلة عظيمة توجبها أمور:

الأمر الأول: العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته جل وعلا، فإنَّ من تفكر في أسماء العظمة والجلال، وتفكر في آثارها ومقتضياتها، وتفكر في أفعال الملك العظيمة، وآمن بها أوجب له ذلك الخوف الشديد من الله تعالى؛ وكلما كان

المؤمن أعلمَ بالله كان أخشى له، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» متفق عليه، وفي رواية أخشاكم.

وقد قيل:

على قدر علم المرء يعظم خوفه ... فما عالم إلا من الله خائف
فآمن مكر الله بالله جاهل ... وخائف مكر الله بالله عارف

فمن ذلك: أن تعلم أن الله هو الواحد القهار، والعزيز الجبار، والعلي الكبير، والقوي القدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه شيء، فعال لما يريد، له الكبرياء والمجد، شديد العقاب والبطش، ذو انتقام ممن يعصيه، يغار إذا انتهكت محارمه، ويغضب ويمقت، ويقبض ويمحق، ولا يخاف عاقبة فعله؛ فمن شهد ذلك بقلبه وآمن به حقَّ الإيمان أورثه خوفاً عظيماً من الله، يحول بينه وبين معاصيه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: ٣٣].

الأمر الثاني: الخوف من المقام بين يدي الله جلَّ وعلا، وهو أمر كائن لا محالة لكل مكلَّف محسن أو مسيء، فمن تفكر في هذا المقام وخافه في الدنيا هوَّنه الله عليه يوم القيامة، ومن استخف به في الدنيا شدده الله عليه يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم من عمله، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرةٍ» متفق عليه.

الأمر الثالث: مطالعة آيات الوعيد وأحاديثه، وتأمّلُ ما أعده الله للعصاة من العذاب الشديد، فمن تفكر في ذلك وآمن به أوجب له ذلك الخوف من التعرض لسخط الله وعقابه.

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥] وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤].

الأمر الرابع: كثرة الذكر؛ فإن الغفلة تقسي القلب؛ ولا يزال الغافل يقسو قلبه شيئاً فشيئاً لكثرة ما يرين عليه؛ حتى يختم على قلبه فلا يؤثر فيه زجر ولا وعظ إلا أن يشاء الله أن يتداركه برحمته فيمنَّ عليه بتوبة من عنده.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

الأمر الخامس: تزكية النفس من الأخلاق السيئة ولا سيما الكبر والعجب والشحّ والحسد؛ فإنّها تفسد القلب وتقسّيه، وإذا فسد القلب وقسا ضعف فيه أثر الخوف، وكان إلى عدم المبالاة أقرب، وهو وإن لم يقلها بلسان المقال فلسان الحال ينادي بها.

وهذه الأمور الخمسة في أنواع الخوف الثلاثة التي تقدّم ذكرها، وأما الخوف الذي يوجبه الوقوع في المعصية أو الهمّ بها فقد أحسن العبارة عنه ابن القيّم رحمه الله فقال في طريق الهجرتين: (الخوف من أَجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أَعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أَليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، **ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أُمور:**

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب. فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوءِ عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوءَ مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو. وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب). إلى آخر ما قال وهو فصل طويل نفيس.

آثار الخوف من الله وثمراته:

للخوف من الله تعالى ثمرات عظيمة وآثار جليلة:

منها: أنه يوجب في القلب إجلال الله تعالى وتعظيمه وتوقيره وخشيته، وهذا هو حقيقة التعبد.

ومنها: أنه يدفع العبد للاستقامة والمسارعة إلى الخيرات، والتورع عن الشبهات، والتقلل من فضول المباحات، ومراقبة الجوارح.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ
رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا
كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٢﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**» رواه الترمذي.

قال النووي: («أَدْلَجَ»: بإسكان الدال ومعناه سار من أول الليلِ، والمراد التشمير في الطاعة).

قال أبو عثمان الحناط: سمعت ذا النون وشكا إليه رجل السُّبات فقال له: (لو خفت البيات لم يغلبك السبات). رواه البيهقي في الشعب.

ومنها: أنه سبب للانتفاع بالقرآن العظيم وما يتبع ذلك من بركات عظيمة؛ فإن الخوف هو ثمرة الإنذار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

ومنها: أنه يهذب النفس وينقيها من الأخلاق السيئة، ويطهر القلب من أدوائه؛ فالخوف والكبر لا يجتمعان، إذا حل الوجل في القلب طرد الكبرَ والعجب والشحّ والحسد، وما يتركب من هذه الآفات ويتولد عنها من شرور عظيمة وبلايا جسيمة تودي بصحابها إلى المهالك.

ومنها: أنه يزجر العبد عن الظلم والعدوان ؛ فمن خاف انزجر، فيأمن الناس شرَّه، ويسلم المسلمون من لسانه ويده، بل يجعل الله له في القلوب مودة ومهابة، وقد روى البيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن عبد العزيز وجعفر بن محمد بن زين العابدين والفضيل بن عياض أنهم قالوا: «**من خاف الله أخاف منه كلَّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء**».

وقد روي مرفوعاً من حديث ابن مسعود وحديث واثلة ابن الأسقع ولا يصحان.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: (على قدر حبك الله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر شغلك بأمر الله يشغل في أمرك الخلق). رواه البيهقي في الشعب.

وأما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**» فلم يرد به نفي الخوف عنه، وإنما مراده أن إجلاله لله ومحبته إياه تمنعانه من معصيته.

الفرق بين خوف العبادة وغيره:

الخوف على قسمين:

القسم الأول: خوف العبادة: وهو الذي يحمل معنى العبادة من التذلل والرهبة والخشية من إيقاع الضرر ممن يملك إيقاعه، فيقوم بالقلب عبادات عظيمة من الرهبة والخشية والإنابة والتوكل وتعلق القلب فهذا الخوف لا شك أن صرفه لغير الله جل وعلا شرك أكبر مخرج عن الملة، قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة: ٤٠] وهذا الخوف هو من عمل المشركين، ولذلك إذا أردت أن تعرف معنى الخوف الشركي فاعرف حال المشركين الذي يخافون هذا الخوف، وقد ذكر الله لنا من أخبارهم، قال الله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجته لقومه: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١].

وقال عن عاد قوم هود في مجادلتهم لنبيهم: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦﴾ [الزمر: ٣٦].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: ويخوّفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها، وعيبك لها، والله كافيك ذلك).

وقال قتادة: «**بعث رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم خالد بن الوليد إلى شعب بسُقام ليكسر العزّى، فقال سادنها -وهو قيمها-: يا خالد أنا أحذّركها، إن لها شدّة لا يقوم إليها شيء، فمشى إليها خالد بالفأس فهشّم أنفها**».

وقال مجاهد: «﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ **يعني: يخوفونك بالأوثان التي يعبدون من دون الله عز وجل**».

ومن عبَّاد الأوثان والقبور اليوم من يخوِّف الناس من هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله بأن لهم قدرة وتصرفاً وإذا غضبوا على شخص أرسلوا له من يعذبه ويصيبه بالأمراض وربما يشلّ جسده أو يقتله ونحو ذلك من التخويف الذي لا يجوز لمؤمن أن يخافه.

خوف السر

يذكر بعض العلماء عبارة (خوف السر) ويقصدون به خوف التعبد، كما صرَّحوا بالتمثيل له بخوف عباد القبور والأولياء، وهؤلاء في الحقيقة جمعوا أنواعاً من الشرك منها اعتقادهم أن أولئك الأموات يطلعون على ما يعملون، واعتقادهم قدرتهم على المؤاخذة وإحلال العقوبة والسخط، وخوفهم أن يقطعوا عنهم المدد أو يتخلوا عن الشفاعة لهم ونحو ذلك؛ فلذلك تجد بعضهم إذا سمع أحداً يذكر أحد أولئك الأموات بسوء أو ينهى عن الغلو فيهم يُرى عليه أثر الخوف من غضب ذلك الولي بزعمهم.

وخوف السر هذا فيه معاني التعبد من الرهبة والخشية وتعلق القلب بالمعبود والالتجاء إليه، وهذه عبادات عظيمة من صرفها لغير الله تعالى فقد أشرك، والعياذ بالله تعالى من الشرك.

فالخوف التعبدي عبادة من أجَلّ العبادات صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

القسم الثاني من الخوف: الخوف الطبيعي، وهو ما خلا من معاني التعبد، وهذا حكمه بحسب ما يحمل عليه:

مثاله: خوف العبد من السباع والهوام والظلمة الطغاة، وهو خوف لا يلام عليه العبد بل قد يعذر بسببه في أحوال ويُرخّص له في بعض الأحكام؛ فقد يسقط عن الرجل وجوب صلاة الجماعة للخوف، وقد يجوز له جمع ما يجمع الصلوات بسبب الخوف، ونحو ذلك.

- أما إن حمل هذا الخوف صاحبَه على ترك بعض الواجبات التي لا يعذر بتركها أو ارتكاب محظور لا يعذر بارتكابه فهو محرم لا يجوز.

ومثاله: جماعة من المسلمين ظاهرون في بلد من البدان حملهم الخوف من العدو على ترك الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ وترك إعداد العدة لذلك؛ فهؤلاء مذمومون مفرطون مذنبون بتركهم فريضة الجهاد في سبيل الله عز وجل، وسنة الله تعالى جارية بأن يسلط الله عليهم أعداءهم وينزع مهابتهم من صدور الكافرين بسبب مخالفتهم لاتباع هدى الله جل وعلا، وتقديمهم خوف العدو على الخوف من الله جل وعلا، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي يعظمهم في نفوسكم حتى تخافوهم.

فهذا الخوف من أولياء الشيطان محرم لا يجوز.

بل قد يصل الخوف من غير الله تعالى بالعبد إلى الكفر والعياذ بالله؛ كمن يحمله الخوف على الرضا بالكفر واختياره خوفاً وجبناً كما قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ

بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٩].

وهذا هو أصل خوف الأتباع من المتبوعين من أئمة الكفر كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

فهؤلاء حملهم خوفهم الطبيعي على الكفر والعياذ بالله.

أقسام الناس في الخوف من الله:

الناس في الخوف من الله على درجات:

الدرجة الأولى: السَّابِقون المقرَّبون وهم الذين حملهم الخوف من الله تعالى على المسارعة في الخيرات والتقرُّب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل والورع واجتناب المحرمات والشبهات؛ فهؤلاء بخير المنازل.

وهم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: ٩].

الدرجة الثانية: المقتصدون وهم الذين حملهم الخوف من الله تعالى على اجتناب المحرمات وفعل الواجبات فهؤلاء هم المتقون المقتصدون.

الدرجة الثالثة: المفرِّطون الظالمون لأنفسهم من المسلمين، وهؤلاء معهم أصل الخوف من الله تعالى بحيث يمنعهم من الشرك الأكبر وارتكاب ناقض من نواقض الإسلام والامتناع عن بعض الكبائر، لكنهم لضعف خوفهم من الله تعالى يرتكبون بعض الكبائر ويتركون بعض الفرائض الواجبة والعياذ بالله، فهؤلاء مذنبون مستحقّون للعذاب بقدر ما وقعوا فيه من المخالفة، وهم باقون في دائرة الإسلام.

الدرجة الرابعة: الغلاة المُفْرِطُون وهم الذين حملهم الخوف الشديد على نوع من اليأس من رحمة الله والقنوط من رحمته؛ فهؤلاء مذنبون غلاة، ولا يجوز للمؤمن أن ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته.

الدرجة الخامسة: المشركون وهم الذين صرفوا هذه العبادة العظيمة أو شيئاً منها لغير الله جل وعلا؛ فهؤلاء مشركون كفار خارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله.

فهذه درجات الناس في خوف التعبد وهم في كل درجة تتفاوت منازلهم.

الرجاء

حقيقة الرجاء:

الرجاء نقيض اليأس، وهو طمع القلب في حصول منفعة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال عن أوليائه المتقين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: ١٦].

والرجاء على ثلاثة أصناف:

١: رجاء في محبة الله تعالى ورضاه والزلفى لديه، وهو رجاء المحبين.

٢: ورجاء في ثواب الله تعالى، وهو رجاء الراغبين.

٣: ورجاء في النجاة من سخط الله تعالى وعقابه، وهو رجاء المتقين.

الفرق بين الرجاء والتمني المذموم

وفرق ما بين الرجاء المحمود والتمني المذموم أنّ الرجاء يحفّز للعمل ويدفع إليه، والتمني المذموم يكون معه قعود عن العمل، واتباع للهوى، كما في حديث أبي بكر بن أبي مريم الغساني عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

- وقال قبيصة بن عقبة: سمعت سفيان الثوري يقول: كان مسلم بن يسار قد وقع في ثنيته الدم كانوا يرون أنه من كثرة سجوده ليلاً ونهاراً، فدخل عليه بعض جيرانه فوجده قد سقطت ثنيتاه وهو يدفنهما، فقال له مسلم: دخلت علي وأنا أدفن بعضي!

فقال له الجار: لا أدري الذي أنت فيه إلا أني أرجو الله وأخافه.

قال مسلم: «**يا أخي ما أدري ما معنى الخوف الذي لا يبعد مما تخاف!! ولا أدري ما معنى الرجاء الذي لا يقرب مما ترجو!!**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال مالك بن مغول، عن معاوية بن قرة، أنه جلس ورجلان من التابعين يتذاكران، فقال أحدهما: إني لأرجو وأخاف.

وقال الآخر: «**إنه من رجا شيئاً طلبه، وإنه من خاف من شيء هرب منه، وما حسب امرئ يرجو شيئاً لا يطلبه؟!! وما حسب امرئ يخاف شيئا لا يهرب منه؟!!**». رواه الإمام أحمد في الزهد، والبيهقي في شعب الإيمان.

- قال أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم العيني:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

ما بال دينك ترضى أن تدنّسه ... وثوبك -الدهرَ- مغسول من الدَّنَس

- قال ابن القيّم رحمه الله: (**من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:**

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راجٍ خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**».

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل)ا.هـ.

- وقال في موضع آخر: (والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل: فالأول كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها. ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل).

منزلة الرجاء

الرجاء أصل من أصول العبادات القلبية، وحادي الرغب الذي يحدو القلوب إلى العمل، ابتغاء محبّة الله تعالى والتقرّب إليه، والفوز برحمته وثوابه، والنجاة من سخطه وعذابه.

فالرجاء الصحيح هو الذي يحمل على العمل، وينشّط النفس له.

- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: ٢٩].

- وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: ٩].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

- وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

- وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥].

- قال الأعمش: سمعت أبا صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**قول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرّب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**». رواه البخاري ومسلم.

- وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاثٍ يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**». رواه أحمد، ومسلم، وأبو داوود.

- وقال الوليد بن مسلم: حدثني الوليد بن سليمان يعني ابن أبي السائب، قال: حدثني حيان أبو النضر، قال: دخلت مع واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجرشي في مرضه الذي مات فيه؛ فسلَّم عليه، وجلس قال: فأخذ أبو الأسود يمين واثلة فمسح بها على عينيه، ووجهه لبيعته بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له واثلة: واحدة، أسألك عنها؟

قال: وما هي؟

قال: كيف ظنك بربك؟

قال: فقال أبو الأسود: وأشار برأسه، أي حسن.

قال واثلة: أبشر! إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظنّ عبدي بي، فليظن بي ما شاء**». رواه أحمد في مسنده من هذا الطريق، ورواه ابن حبان من طريق محمد بن المهاجر عن يزيد بن عبيدة عن حيان أبي النضر بنحوه.

- وقال هشام بن الغاز الجرشي: حدثني حيان أبو النضر، قال: دعاني واثلة بن الأسقع وقد ذهب بصره؛ فقال: يا حيان قدني إلى يزيد بن الأسود الجرشي؛ فإنه بلغني أنه عليل؛ فقدته حتى أتينا منزل يزيد بن الأسود؛ فإذا البيت مشحون عوادا، وإذا الرجل يجود بنفسه؛ فلما رأى أهل البيت واثلة تحركوا حتى جعلوا له طريقا؛ فأثبت له وسادة عند رأس يزيد بن الأسود؛ فقلت لواثلة: إن يزيد لا يعقل في الغمرات؛ فقال: نادوه؛ فنادينا أصواتنا: يا يزيد بن الأسود؛ فإذا هو لا يجيب ولا يسمع.

فقلت: هذا أخوك واثلة؛ فبقي من عقله ما عرف اسم واثلة؛ فقال بيده كأنه يلتمس شيئاً؛ فعرفنا ما يريد؛ فأخذت يد واثلة فوضعتها في يد يزيد؛ فلما وجد مسّها وضعها على عينيه ومرّة على فؤاده، واشتد بكاء أهل البيت لما صنع، وذلك لموقع يد واثلة من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال واثلة: ألا تحدثني كيف ظنك بالله في هذا المصرع؟

فناديت: أيا يزيد ألا إنه يقول لكم كذا وكذا؛ ففهمها فقال: اعترضتني ذنوب لي أشفيت على هلكة، ولكن أرجو رحمة الله؛ فكبّر واثلة، وكبّر أهل البيت تكبيرة؛ فقال: أبشر، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عز وجل: قال: «**أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء**». رواه الطبراني في مسند الشاميين.

- وقال كثير بن فائد البصري: حدثنا سعيد بن عبيد، قال: سمعت بكر بن عبد الله المزني، يقول: حدثنا أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **قال الله تبارك وتعالى: [يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني**

غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة]. رواه الترمذي، وله شاهد عند الإمام أحمد والدارمي من طريق شهر بن حوشب عن معدي كرب عن أبي ذر رضي الله عنه.

وشاهد آخر من طريق إبراهيم بن إسحاق الصيني، عن حسن بن الربيع، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

والحديث بمجموع هذه الطرق حسن إن شاء الله.

- قال ابن القيم رحمه الله: (الرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد؛ فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها).

أقسام الرجاء:

والرجاء على قسمين:

القسم الأول: رجاء العبادة.

القسم الثاني: رجاء نفع الأسباب.

- فرجاء العبادة لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا، ومن صرفه لغير الله تعالى فهو مشرك لأنه يحمل معاني العبادة من التذلل والخضوع والمحبة والانقياد واعتقاد النفع والضر وتفويض الأمر وتعلق القلب والتقرب إلى المعبود، وهذه كلها عبادات عظيمة تقتضيها عبادة الرجاء فمن صرفها لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر.

وهذا كرجاء المشركين في آلهتهم التي يعبدونها من دون الله أنها تشفع لهم عند الله أو أنها تقربهم إلى الله زلفى، وكرجاء بعض عباد الأولياء والقبور بأنهم ينجونهم من الكربات ويدفعون عنهم البلاء ويجلبون لهم النفع ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

- **القسم الثاني**: رجاء نفع الأسباب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا، **وهذا على ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: رجاء جائز، وهو رجاء نفع الأسباب المشروعة مع عدم تعلق القلب بها، فهذا جائز، وليس بشرك، وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**خيركم من يُرجى خيره ويُؤمَنُ شرُّه، وشرُّكم من لا يُرجَى خيره ولا يُؤمن شره**». وإسناده صحيح.

فهذا الرجاء ليس هو رجاء العبادة، وإنما هو رجاء نفع السبب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا.

الدرجة الثانية: رجاء محرم، وهو الرجاء في الأسباب المحرمة ليستعين بها على معصية الله جل وعلا.

الدرجة الثالث: شرك أصغر، وهو تعلق القلب بالأسباب؛ كتعلق بعض المرضى بالرقاة والأطباء تعلقاً قلبياً يغفلون معه عن أن الشفاء بيد الله عز وجل؛ فهذا من شرك الأسباب كما تقدم شرحه.

وهذه العبادات قاعدتها واحدة من فقهها سهل عليه معرفة هذه التقسيمات وتيسر له ضبط مسائلها إن شاء الله تعالى.

وهو أن **هذه الألفاظ: المحبة والخوف والرجاء والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والرغبة والرهبة والخشية ونحوها تطلق في النصوص على معنيين:**

المعنى الأول: ما كان يحمل معنى العبادة من التذلل والخضوع والمحبة والتعظيم والانقياد واعتقاد النفع والضر فتكون حينئذ عبادة من صرفها لغير

الله عز وجل فقد أشرك الشرك الأكبر والعياذ بالله، ويكون بذلك كافراً خارجاً عن الملة.

وإذا أردت أن تعرف هذا المعنى فانظر إلى ما يفعله مَن أثنى الله عليهم من الموحدين في هذه العبادات، وما يفعله مَن ذمَّهم الله من المشركين بهذه العبادات.

وبذلك تعرف المعنى التعبدي فيها الذي لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا.

المعنى الثاني: ما ليس فيه معنى العبادة، وإنما هو سبب من الأسباب أو غرض من الأغراض؛ فهذا حكمه بحسب ما يترتب عليه فإن استعين به على طاعة الله فهو طاعة وقربة، وإن استعين به على محرم فهو حرام، وإن حمل على فعل محرم أو ترك واجب لا يعذر بتركه فهو محرم؛ فأما إن تعلّق القلب بالسبب وصار فيه نوع تذلل له مصحوب بخوف ورجاء فيكون حينئذ شركاً أصغر.

الجمع بين المحبة والخوف والرجاء:

اعلم أن هذه العبادات الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء هي أصول العبادات وعليها مدارها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

فالإحسان في العبادة أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء، ومن فعل ذلك كانت رحمة الله قريب منه، ومما يعين على ذلك استحضار الثواب والعقاب؛ وملاحظة الوعد والوعيد.

- قال سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار». رواه البخاري.

- وقال أبو وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**». رواه البخاري.

وهذا يوجب التلازم بين الخوف والرجاء.

- وقال جعفر بن سليمان الضبعي: حدثنا ثابت، عن أنس، قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على شابّ وهو في الموت؛ فقال له: كيف تجدك؟

قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وآمنه مما يخاف**». رواه الترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه.

- وفي وصية أبي بكر إلى عمر لما استخلفه: «**وإن الله ذكر أهل الجنة بصالح ما عملوا، وأنه تجاوز عن سيئاتهم؛ فيقول القائل: ألا أبلغ هؤلاء!**

وذكر أهل النار بأسوإ ما عملوا، وأنه ردّ عليهم صالح ما عملوا؛ فيقول قائل: أنا خير من هؤلاء، وذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً وراهباً، لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يُلقي بيده إلى التهلكة؛ فإن أنت حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائبٌ أبغضَ إليك من الموت، ولن تعجزه». رواه ابن أبي شيبة من طريق إسماعيل بن خالد عن زبيد بن الحارث اليامي، وهو مرسل جيد رجاله ثقات.

- وقال قتادة: حدثنا مطرف، قال: كنا نأتي زيد بن صوحان فكان يقول: «**يا عباد الله أكرموا وأجملوا، فإنما وسيلة العباد إلى الله عز وجل خصلتان: الخوف، والطمع**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وزيد بن صوحان العبدي تابعي عابدٌ مخضرم، من أهل البصرة، وهو أخو صعصعة بن صوحان.

- وقال ضمرة بن ربيعة الرملي، عن عبد الله بن شوذب، عن الحسن البصري قال: «**الرجاء والخوف مطيتا المؤمن**» رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه، وأبو نعيم في الحلية.

- وقال مكحول الشامي: (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد). ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء.

- وقال يحيى بن معاذ الرازي: (الإيمان ثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة، وفي جوف الخوف ترك الذنوب، وفيه النجاة من النار وفي جوف الرجاء الطاعة، وفيه وجوب الجنة، وفي جوف المحبة احتمال المكروهات و به تجد رضا الله عز وجل). رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال ابن رجب: (وقد عُلِم أن العبادة إنما تبنى على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والمحبة، وكل منها فرض لازم، والجمع بين الثلاثة حتم واجب؛ فلهذا كان السلف يذمّون من تعبد بواحد منها وأهمل الآخرين، فإنّ بدع الخوارج ومن أشبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف والإعراض عن المحبة والرجاء، وبدع المرجئة نشأت من التعلق بالرجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسب إلى التعبد نشأت من إفراد المحبة والإعراض عن الخوف والرجاء).

ولذلك كان العلماء يحذرون ممن يُعرف عنه الإكثار من دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية، فالذي يدعي المحبة وهو بعيد عن الخشية واتباع السنة والموالاة في الله والمعاداة في الله والغيرة على حرمات الله فدعواه كاذبة.

وفي الحديث القدسي [المتحابون بجلالي] فقَرَن المحبة بالجلال للتنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحابّ وبذلك يكونون حافظين لحدود الله.

- قال ابن رجب: (وقد كثر في المتأخرين المنتسبين إلى السلوك تجريد الكلام في المحبة وتوسيع القول فيها بما لا يساوي على الحقيقة مثقال حبة، إذ هو عار عن الاستدلال بالكتاب والسنة، وخال من ذكر كلام من سلف من سلف الأمة وأعيان الأئمة، وإنما هو مجرد دعاوى، قد تشرف بأصحابها على مهاوي)ا.هـ.

- وقال ابن القيم رحمه الله: (القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان؛ فهو عرضة لكل صائد وكاسر)ا.هـ.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (اعلم أن محركات القلوب إلى الله عزَّ وجلَّ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: ٦٢] والخوف المقصودُ منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تُلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده؛ فهذا أصلٌ عظيم يجب على كل عبدٍ أن يتنبه له؛ فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكلّ أحدٍ يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره) ا.هـ.

وبيان ذلك أن ما يدفع القلب للعمل ثلاثة أمور: المحبة، والخوف، والرجاء فمن أحب الله أطاعه، ومن خاف الله أطاعه، ومن رجا ثواب الله أطاعه؛ فمن المؤمنين من يغلب عليه دافع المحبة فيطيع الله عز وجل محبة له، مع خوفه من الله ورجائه له، لكن الذي يغلب على قلبه المحبة وصدق التقرب إلى الله عز وجل.

ومن المؤمنين من يغلب عليه الخوف من الله فيطيع الله خوفاً منه، سواء خاف عقابه الدنيوي أو عقابه الأخروي؛ فالذي يحمله غالبا على فعل الطاعات واجتناب المحرمات خوفه من الله.

ومن المؤمنين من يغلب عليه رجاء ثواب الله فتجد أن أكثر ما يحمله على فعل الطاعات واجتناب المحرمات هو رجاء ثواب الله وفضله.

والكمال أن يجمع العبد بين هذه الثلاثة، فيطيع الله محبة له، وخوفاً منه، ورجاء لثوابه وفضله.

والمحبة أعلى مرتبة من مرتبة الخوف والرجاء إذا أردنا المفاضلة بينها، لأن المحبة تبقى في الدنيا والآخرة، وأما الخوف فإنه يزول في الآخرة.

والجمع بين هذه الثلاثة هو منهج السلف الصالح وهو الذي عليه هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه العبادات بينها تلازم؛ فالمحب خائف راجٍ، والخائف محب راجٍ، والراجي محب خائف، وقد سبق شرح ذلك.

قال أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم العيني (ت:٢١١هـ):

لَيسَ يَرجو اللهَ إِلّا خائِفٌ … مَن رَجا خافَ وَمَن خافَ رَجا

وزعم بعض الصوفية أن من يعبد الله محبة له فقط أعلى وأكمل ممن يعبد الله رجاء لثوابه أو خوفاً من عقابه، حتى كان بعضهم يدعو: (**اللهم إن كنت تعلم أني أطيعك رغبة في جنتك فاحرمني منها!!**) وهذا ضلال مبين وخسران عظيم إن لم يرحمه الله لجهله وضعف عقله؛ فإنَّ الله أمرنا أن نسأله من فضله ورغَّب في ثوابه فمن ترك رجاء الله فقد عصى الله.

والله قد حذّر من عقابه وعذابه فمن لم يخف الله فقد عصى الله.

والمقصود أن هدي النبي صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه الجمع بين هذه العبادات العظيمة؛ فيعبدون الله محبة له كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ويعبدون الله خوفاً من عقابه كما أمرهم الله بقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وجعل صفة الرجاء فرقاناً بين المؤمنين والكافرين فقال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ورغَّبهم في ثوابه وأمرهم بسؤاله من فضله فقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

فاللهم إنا نسألك من فضلك يا ذا الفضل العظيم.

ولتوضيح منازل هذه العبادات العظيمة والتلازم الشرعي بينها، وحاجة المؤمن إليها جميعاً في سلوكه الصراط المستقيم يقال: إن من أحب الله سار إليه وتقرب إليه، والسير إليه يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فهو سير معنوي على الصراط المستقيم الذي هو الطريق إلى المحبوب الأعظم.

فمحبة الله تدفع العبد إلى التقرب إليه، وعلى حسب قوة المحبة وضعفها تكون مسارعة العبد في الطاعات ومسارعته في الكف عن المحرمات.

فإن شدة المحبة تحمل على صدق العمل، وتذهل العبد عن المشقة وتخلصه من علل النفس فيخف عليه العمل، ولا يلتفت لعذل عاذل ولا لوم لائم؛ فتقوم النفس بأعمال لا يقوم بها من لم يجد هذه المحبة.

ومن جيد قول سويد بن أبي كاهل:

وكذاك الحب ما أشجعه ... يركب الهول ويعصي من وزع

أي أن الحب الصادق يحمل على الشجاعة فيركب العبد الأهوال، ويجعله لا يلتفت إلى من يعذله ويزعه ليثنيه عن مقتضى الحب، بل ذلك يغريه ويزيده.

والمقصود أن صدق المحبة يحرك قلب العبد المحب إلى العمل.

والخوف من الله يمنعه من الانحراف عن الصراط المستقيم فلا يتعدى حدود الله وهو يخاف عقاب الله.

ورجاؤه لفضل الله يحفزه لفعل الطاعات ويؤمله لقاء الله تعالى والفوز بقربه والتنعم بعظيم ثوابه، والنظر إلى وجهه الكريم.

نسأل الله تعالى من فضله ورحمته وبركاته.

أيهما يغلّب الرجاء أم الخوف؟

الجمع بين الرجاء والخوف واجب، لأن عدم الرجاء يفضي إلى القنوط من رحمة الله، وعدم الخوف يفضي إلى الأمن من مكر الله، وكلاهما هلَكة.

- قال حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت، أنّ مطرفا قال: «**لو وزن رجاء المؤمن خوفه ما رجح أحدهما صاحبه**». رواه أحمد في الزهد، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في شعب الإيمان.

- قال ابن هانئ: قال لي أبو عبد الله [أحمد بن حنبل]: (ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً).

- وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا عثمان المغربي، يقول: «**من حمل نفسه على الرجاء تعطل، ومن حمل نفسه على الخوف قنط، ولكن ساعة وساعة، ومرة ومرة**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

لكن اختلف العلماء أيهما يغلَّب الخوفُ أم الرجاء على مذاهب في السلوك أرجحها أنفعها لقلب السالك، وأحسنها أثراً في صلاح أعماله.

والأكمل اعتدال الرجاء والخوف، وظهور أثر كلّ واحد منهما في حينه؛ فإذا عرضت دواعي المعصية ظهر أثر الخوف من الله؛ فنهى النفس عن الهوى، وإذا حضر ما يُؤمر به أمر وجوب أو ندب وجد في قلبه عزيمة صادقة على العمل.

وإذا خشي العبد من غلبة الخوف عليه ما يؤدي إلى غلوّ أو قنوط فينبغي له أن يعالج قلبه بما يعظّم فيه الرجاء في الله تعالى من ملاحظة نصوص الوعد، والتفكّر في فضل الله ورحمته، وفضائل الأعمال.

وإذا خشي على نفسه من اتباع الهوى واقتراف المعاصي لغلبة الرجاء والانبساط فيه فينبغي أن يعالج قلبه بما يعظّم مخافة الله فيه؛ من مطالعة نصوص الوعيد، والتفكّر في صفات جلال الله تعالى وآثارها، وشدّة عذابه، وأليم عقابه.

فإذا وقع في ذنب وجب عليه الأمران: الخوف والرجاء.

- أما الخوف فلأجل أن يزجر النفس عن الاسترسال في المعاصي، ويبادر بالندم والتوبة.

- وأما الرجاء فلأجل أن يبادر بالتوبة والاستغفار وعمل الأعمال الصالحة ليكفّر بها عن سيئاته؛ فإن للمعصية وحشة في القلب وسطوة على النفس؛ فإذا ضعف الرجاء بعدها خُشي على القلب أن يتسلل إليه القنوط من رحمة الله.

ولذلك كان من إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**». كما في السنن والمسند من حديث أبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما.

فالأمر بعمل الحسنة يستلزم الأمر برجاء ثوابها، ومن ثوابها أنها تمحو السيئة.

- قال أبو عبد الرحمن السلمي، عن عبد الله بن خبيق الأنطاكي صاحب يوسف بن أسباط أنه قال: «**الرجال ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو ثوابها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث: الرجل الكذاب يتمادى في الذنوب، ويقول: أرجو المغفرة، ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغي أن يكون خوفه غالباً على رجائه**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

لكنْ من العبّاد من يكون في طبعهم وما ارتاضت عليه نفوسهم غَلبة الرجاء مع صحة الخوف في قلوبهم؛ فلذلك يغلب عليهم أداء العبادات رغبة في ثوابها.

ومنهم من يغلب عليه الخوف مع بقاء الرجاء صحيحاً في قلبه؛ لكن يكون الغالب عليه أداء العبادات خوفاً من الله واجتهاداً في النجاة من سخطه وعقابه.

فمن كانت غلبة الرجاء لا تخرجه إلى الأمن مكر الله، والتهاون في المعاصي؛ فهو على سبيل سنّة، وصحّة منهج.

وكذلك من كانت غلبة الخوف لا تخرجه إلى القنوط من رحمة الله، واليأس من رَوحه.

واختار جماعة من أهل العلم أن يغلّب الخوف في فتن السراء حتى لا يغترّ بها، ويغلّب الرجاء في فتن الضراء حتى لا يقنط من رحمة ربه، ولتنشط النفس للعمل مع وطأة البلاء، ولا سيما إذا حضره الموت فإنّه يتأكد تغليب حسن الظنّ بالله ورجاء عفوه ورحمته.

ومعنى تغليب الخوف أن يذكّر نفسه بما يعظم به خوف الله في قلبه من التفكر في صفات جلال الله تعالى، ونصوص الوعيد، وقرب الرحيل، وأهوال الآخرة.

وكذلك تغليب الرجاء بما يقابلها.

- قال سوار بن عبد الله العنبري: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: قال لي أبي حين حضرته الوفاة: «**يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله وأنا حسن الظن به**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال أبو زكريا النووي في رياض الصالحين: (اعلم أنَّ المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يمحض الرجاء).

قلت: لعلّه أراد يغلّب الرجاء.

وللعلماء في هذه المسألة مذاهب:

المذهب الأول: اعتدال الخوف والرجاء، وأن لا يغلّب أحدهما على الآخر.

قالوا: لأنه إذا غلب أحدهما على الآخر دلّ ذلك على ضعف في الجانب الآخر، وللضعف أثره على السلوك.

وقد تقدّم ذكر بعض الآثار عن السلف في ذلك.

- وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت منصور بن عبد الله، يقول: سمعت أبا علي الروذباري، يقول: «**الخوف والرجاء هما كجناحي الطير إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص واحد منهما وقع منه النقص، وإذا ذهبا جميعا صار الطائر في حد الموت**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

والمذهب الثاني: تغليب الخوف حتى يكفّ عن المحرّمات ويحترز من المعاصي، وأما المأمورات فإنه إذا أدّى الفرائض كان ما يعمله من النوافل بعد ذلك نافعاً مباركاً وإن كان يسيراً.

وهؤلاء غلب على قلوبهم طلب السلامة.

- قال قبيصة بن عقبة: سمعت سفيان الثوري قال: قال رجل لمسلم بن يسار: (علمني كلمة تجمع لي موعظة نافعة قال: فأطرق طويلا ثم رفع رأسه؛ فقال: «**لا ترد بعلمك غير من يملك ضرك ونفعك**».

قال: زدني.

قال: «**أهملْ رجاءك ولا تستعمله، واستشعر الخوف ولا تغفله**».

قال: زدني.

فقال: «**يوم العرض على ربك لا تنسه**».

قال: ثم سقط لوجهه مكباً). رواه ابن عساكر.

- وقال ابن هانئ في مسائله: سمعت أبا عبد اللهَّ [أحمد بن حنبل] يقول: سمعت ابن السماك -وكان رجلًا صالحًا، وكان من أفاضل من أدركنا من المذكِّرين- يقول: كتب إليَّ رجل: (إن الرجاءَ حبلٌ في القلب، قيد في الرِّجل، فاحلل الحبل من قلبك ينحلّ القيد من رجلك).

قلت: يريد أن الانبساط في الرجاء يُقعد عن العمل؛ فكأنه قيد عن العمل.

- وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني، يقول: «**إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب**». رواه البيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية.

والمذهب الثالث: تغليب الرجاء لأنه أنشط للعمل، والاستكثار من الطاعات، والحسنات يذهبن السيئات.

والمذهب الرابع: في حال الصحة والعافية يغلّب الخوف، وفي حال المرض والابتلاء يغلّب الرجاء.

- قال الحسن بن محمد الإسفراييني: حدثنا سعيد بن عثمان، قال: سمعت السري بن المغلّس يقول: «**الخوف أفضل من الرجاء مادام الرجل صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف**».

فقال له رجل: كيف يا أبا الحسن؟

قال: «**لأنه إذا كان في صحّته محسنا عظم رجاؤه عند الموت وحسن ظنه بربه، وإذا كان في صحته مسيئاً ساء ظنه عند الموت، ولم يعظم رجاؤه**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

والسري بن المغلّس هو السَّقَطيٍ(ت:٢٥٣هـ) شيخ الجنيد، وصاحب معروف الكرخي، وأخذ عن الفضيل بن عياض، وقد روى أبو نعيم في الحلية نحو هذه المقولة عن الفضيل.

الباب السابع: الصدق والإخلاص

تمهيد:

الصدق والإخلاص عملان جليلان من أعمال القلوب، بل لا تصح أعمال القلوب إلا بهما، إذ هما الفرقان بين النفاق والإيمان، وحد الامتياز بين الفائزين والخاسرين، وعليهما مدار الدين، وبهما يُنال رضوان ربّ العالمين.

وبين الصدق والإخلاص تناسب بديع، وتلازم عجيب، فهما أخوان لا يفترقان، وخليلان لصاحبهما ونعم الخليلان، ينقلانه من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ويطهّرانه من أوضار المعاصي ورجز الشيطان، ويسموان به عن دنوّ الهمة ولؤم الطباع، وينزلانه منزلة أولي الزلفى والولاية؛ فيكون محبوباً مقرباً عند الله، وكان قبلهما على غير شيء؛ فأصبح بصحبتهما عظيماً في ملكوت السماء، ذا قلب سليم، وشأن عظيم، ودعاء مستجاب، ونور وفرقان، وعهود ووعود، وأعمال تجري، ودرجات ترتفع، وبركات تتوالى.

فطوبى لمن قرَّت عينه بصحبتهما، والخيبة والخسران لمن طردهما وأعرض عنهما.

فالإخلاص أن لا تشرك بالله شيئاً، وأن لا تريد بعملك إلا وجه الله.

والصدق أن تجمع همتك على إحسان العمل؛ فتكون صادق القول والعمل.

فصحة الإخلاص تستلزم وجود الصدق، والصدق يقتضي الإخلاص.

وقد عبَّر ابن القيم رحم الله عن التناسب بينهما بعبارة حسنة فقال: وقال أيضا: (إن للعبد مطلوباً وطلباً؛ فالإخلاص توحيد مطلوبه، والصدق توحيد

طلبه؛ فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسماً، والصدق أن لا يكون الطلب منقسماً؛ فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب).

وقال أيضاً: (الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة؛ فهذه الأركان الثلاثة: هي أركان السير وأصول الطريق التي من لم يَبْنِ عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع وإن ظن أنه سائر؛ فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعَد والمقيَّد، وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلى قُدَّام رجعت عشرة إلى خلف.

فإنْ عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبذل جهده ويوحّد طلبه سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له الثلاثةُ فذلك الذي لا يجاري في مضمارِ سيرِه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)ا.هـ.

ومن جمع الصدق والإخلاص فقد نصح لله ورسوله، وبذلك يكون من المحسنين، وهذه غاية مطالب السالكين.

تفكروا في قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة: ٩١].

وانظروا كيف بلغت النصيحة لله ورسوله بهؤلاء الصادقين المخلصين مرتبةَ المحسنين على ضعفهم ومرضهم وفقرهم، بل الله كتب لهم بهذه النصيحة أجر المجاهدين كما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك، ودنا من المدينة قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم».

قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟!!

قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر».

فالمراد بالمحسنين في هذه الآية الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون بشرط أن يكونوا ناصحين لله ولرسوله.

ويخطئ من يظنُّ أن المراد بالمحسنين في هذا الموضع الأغنياء، بل الأغنياء الذين يتخلفون عن مواضع وجوب الإنفاق مسيئون غير محسنين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ﴾ [التوبة: ٩٣].

وقد شاع في كتب فقهاء المذاهب الاستدلال بهذه الآية على عدم الإلزام بالعقود التي يُرتَفق بها كعقد الكفالة والضمان والقرض فيقال لمن أبى: لا إلزام عليه لقول الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وفي هذا الاستدلال نظر كبير.

وأقبح منه أن يستدل به المرء لنفسه على ترك قربة قد تكون فرض كفاية فيمتنع عنها ويستدل بهذه الآية وهو قادر لا يحول بينه وبينها إلا آفات النفس وعللها من الشح وغيره؛ فهذا مع ما فيه من تزكيته لنفسه بوصف الإحسان وهو ممتنع عنه ففيه تحريف لمعنى الآية عما أنزلت فيه.

وأحسن أحواله أن لا يكون مؤاخذاً بامتناعه لقيام الفرض بغيره ممن وفقهم الله له لما قعد عنه، أما أن يستدل بالآيات على قعوده عن الإحسان فاستدلال خاطئ.

ولو كان المرء ناصحاً لله لما تأخر عن قربة يسر الله له السبيل إليها؛ إلا أن يمنعه عنها الانصراف إلى خير منها فحينئذ يشمله معنى الإحسان ويصح له الاستدلال بهذه الآية باعتبار ما في قلبه من النصيحة لله ورسوله.

فالنصيحة شأنها عظيم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة».

قال محمد بن نصر المروزي في آية التوبة: (فسماهم محسنين بنصيحتهم لله بقلوبهم لما منعوا من الجهاد بأنفسهم، وقد تُرفع الأعمال كلها عن العبد في بعض الحالات، ولا يرفع عنه النصح لله ولو كان من المرض بحال لا يمكنه عملٌ بشيء من جوارحه بلسان ولا غيره غيرَ أن عقله ثابت لم يسقط عنه النصح لله بقلبه) اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون: قل لمن لا يصدق لا يتعنَّ، ويقولون: الصدق سيف الله في الأرض ما وضع على شيء إلا قطعه، ويقول يوسف بن أسباط وغيره: ما صدق اللهَ عبدٌ إلا صنع له، وأمثال هذا كثير).

وقال أيضاً: (والله سبحانه يقرن في كتابه بين الشرك والكذب كما يقرن بين الصدق والإخلاص).

وقال في موضع آخر: (المشايخ العارفين اتفقوا على ان أساس الطريق إلى الله هو الصدق والاخلاص كما جمع الله بينهما في قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠-٣١] ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دال على ذلك في مواضع).

وقال ابن القيم رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾ [الروم: ٣٠]: (فحنيفا هو حال مقررة لمضمون قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ ولهذا فسرت مخلصاً، فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص؛ فإنَّ إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرِد لا يريد غيرَه؛ فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإفراد أن لا ينقسم مطلوبك، الأول: توحيد الطلب، والثاني: توحيد المطلوب)اهـ.

وقد ذُكِرَ للإمام أحمد الصدق والإخلاص فقال: (بهذا ارتفع القوم). أورده أبو يعلى في طبقات الحنابلة وابن مفلح في الآداب الشرعية.

الصدق

معنى الصدق

الصدق نقيض الكذب، ويكون في القول والعمل والحال.

- فصدق القول مطابقته لحقيقة المخبر عنه.
- وصدق العمل مطابقة أدائه لما عُزِم عليه وأريد منه؛ وهذا يستلزم صحة العزيمة واتباع الهدى.
- وصدق الحال مطابقته للهَدْي الصحيح.

فلفظ الصدق يوصف به الحديث، ويوصف به العمل، ويوصف به الحال.

وأصل هذا في اللغة ظاهر وشواهده كثيرة، بل إن الصدق يوصف به السبب الذي لا يكاد يتخلف تأثيره، والأداة التي يطابق عملها ما صنعت له؛ فيقولون: سيفُ صدقٍ، ورمح صدق، وقوس صدق، وثوب صدق، ونحو ذلك إذا كانت جيدة حسنة تؤدي ما صنعت له.

ويقولون: رجلُ صدقٍ، وامرأةُ صدقٍ، وفتيان صدق، وقوم صدق على صفة المدح وهو نقيض قولهم: رجل سوء، وامرأة سوء، ونظائرها.

ويقولون: حملنا عليهم حملة صادقة، وصدقناهم القتال، وضربناهم ضربَ صدق، إذا طابق العمل العزيمة السابقة.

والشواهد على ذلك من كلام العرب وأشعارهم كثيرة جداً، وأذكر منها على سبيل التمثيل والاجتزاء:

قول تأبط شراً:

بل من لعذَّالة خذَّالة أشِب ... حرَّق باللوم جلدي أي تحراق
يقول أهلكتَ مالاً لو قنعت به ... من ثوبِ صدق ومن بزّ وأعلاق

وقول حاتم الطائي:

وفتيان صدق لا ضغائن بينهم إذا أرملوا لم يولَعوا بالتلاوم

وقول عنترة:

إذا كذب البرق اللموع لشائم فبرقُ حسامي صادق غير كاذب

وقول عمرو بن كلثوم:

ألا أبلغ بني جشم بن بكر وتغلب كلَّها نبأً جُلالا
بأن الماجد البطل ابنَ عمرو غداة نَطَاعِ قد صدق القتالا

وبالصدق تحصل الثقة والطمأنينة كما قال طرفة بن العبد في مدح سيفه:

أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة إذا قيل مهلا قال حاجزه قدِ

ويقولون: صدق الوحشي في عدوِه إذا عدا ولم يلتفت حتى ينجو ممن يريد اصطياده.

ومنه قول المخبل السعدي:

فأدارها أُصُلاً وكلف نفسه تقريب صادقة النَّجاء نوار

ويقال كذب الوحشي إذا عدا شوطاً ثم نُهِك.

ويقال: صدقت الرؤيا إذا وقع تأويلها، وصدَّق فلان الرؤيا إذا فعَلَ ما تَصْدُقُ به الرؤيا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥] الصافات؛ أي فعلت ما صَدَقَتْ به الرؤيا.

لأنه رأى في المنام أنه يفعل فعلَ الذبح فصدَّق الرؤيا بفعله.

وفي كتاب الله تعالى: قدم صدق، ومقعد صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، ولسان صدق، ومبوَّأ صدق.

فالقدم الصدق هو ما قدَّموه من الأعمال الصالحة؛ فهي عند الله يدخرها لهم وسيجدون ثوابها حقاً وصدقاً، وهو ثواب كريم لا لغو فيه ولا تأثيم.

والمقعد الصدق هو المقعد الكريم الذي وعدهم به فسيجدونه حقاً وصدقاً وهو مقعد كريم لا يسوؤهم فيه شيء.

والمدخل الصدق والمخرج الصدق المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] أي اجعل دخولي في كل ما أدخل فيه دخولاً كريماً لا سوء فيه ولا مذمَّة، واجعل مخرجي من كل ما أخرج منه مخرجاً كريماً لا سوء فيه ولا مذمة، فيكون دخوله بالله وخروجه بالله، يصدقه الله فيه ما وعده به في دخوله وخروجه؛ فيكون العبد فيما يأتي ويذر ضامناً على الله دخوله وخروجه بالعهد الذي بينه وبين ربه؛ فإن من كان دخوله لله صَدَقَهُ الله فأدخله مدخل صدق، ومن كان خروجه لله صدقه الله فأخرجه مخرج صدق؛ فهذه الآية تشمل جميع أحوال العبد.

وما يذكره المفسرون في تفسير هذه الآية من أنواع معيَّنة من المداخل والمخارج إنما هو على سبيل التمثيل.

والخلاصة أن الصدق يكون في حديث المرء، وفي عزيمته وعمله، وفي حاله مع الله؛ فإذا كان العبد صادقاً في هذه الثلاثة كان من الصادقين.

وأما من يقول قول الحق ويعمل بالباطل فهو كاذب منافق كما بيَّن الله حال المنافقين بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

والمنافقون على صنفين:

فصنفٌ: منافقون أصليون لم يدخلوا في الإسلام حقيقة وإنما أظهروه ليكيدوا لأهل الإسلام وليأمنوا على أنفسهم.

وصنف: منافقون مرتدون مترددون لم يصدق إيمانهم ولم يثبت قدمهم في الإسلام ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣] كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ونكصوا على أعقابهم بما يأتونه مما يخرجون به من الملة، وفي هذا الصنف قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» رواه مسلم في صحيحه وأحمد في المسند من حديث عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فهؤلاء المنافقون من الصنفين كاذبون فهم بين قائل بلسانه ما ليس في قلبه، وبين متردد متذبذب يمرق من الدين إذا ابتلي بفتنة؛ إذ كانت عزيمتهم في الإيمان غير صادقة.

والفرقان بين هؤلاء المنافقين وبين المؤمنين: الصدق.

ومما يزيد هذا الأمر بياناً ووضوحاً قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٤-١٥].

وهذه الآية للسلف في تفسيرها قولان مشهوران:

القول الأول: أن الإسلام المثبَت لهم هو مرتبة الإسلام، وأنهم لم يبلغوا مرتبة الإيمان.

القول الثاني: أن الإسلام المثبَت لهم هو الإسلام الظاهر الذي لا يقتضي أن يكون صاحبه مسلماً حقاً في الباطن، وذلك كما يحكم لأهل النفاق بالإسلام الظاهر، وإن كانوا كفاراً في الباطن؛ لأن التعامل مع الناس إنما هو على ما يظهر منهم؛ فمن أظهر الإسلام قبلنا منه ظاهره ووكلنا سريرته إلى الله، فيعامل معاملة المسلمين ما لم يتبين لنا بحجة قاطعة ارتداده عن دين الإسلام.

القول الأول: قول الزهري وإبراهيم النخعي وأحمد بن حنبل واختاره ابن جرير وابن تيمية وابن كثير وابن رجب.

والقول الثاني: قول مجاهد والشافعي والبخاري ومحمد بن نصر المروزي وأبي المظفر السمعاني والبغوي والشنقيطي واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ قالوا: فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم بنص القرآن، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فليس بمسلم على الحقيقة، وإنما إسلامه بلسانه دون قلبه.

وأصحاب القول الأول يقولون إن الإيمان المنفي عنهم هو ما تقتضيه مرتبة الإيمان، فهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان وإنما أسلموا على جهل فيثبت لهم حكم الإسلام.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي لم تباشر حقيقة الإيمان قلوبكم.

وابن القيم رحمه الله قال بالقول الأول في بدائع الفوائد، وقال بالقول الثاني في إعلام الموقعين.

والتحقيق أن دلالة الآية تَسَعُ القولين، فإذا أريد بنفي الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ نفي أصل الإيمان الذي يَثبت به حكم الإسلام؛ فهؤلاء كفار في الباطن، مسلمون في الظاهر، فيكون حكمهم حكم المنافقين، وقد يتوب الله على من يشاء منهم ويهديه للإيمان.

وإذا أريد بنفي الإيمان نفي القدر الواجب من الإيمان الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به مؤمنين؛ فهذا لا يستلزم نفي أصل الإيمان والخروج من دين الإسلام، فيثبت لهم حكم الإسلام، وينفى عنهم وصف الإيمان الذي يطلق على من أتى بالقدر الواجب منه.

وهذا كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن».

قيل: من يا رسول الله؟

قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**».

فهذا نفى عنه حقيقة الإيمان والقدر الواجب منه الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به، ولا يقتضي أن من فعل ذلك فهو خارج عن دين الإسلام.

والذي يوضح هذا الأمر أن قول: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ قد يقوله الصادق والكاذب؛ فإذا قاله الكاذب فهو منافق مدَّعٍ للإسلام مخادع للذين آمنوا، يُظهر الإسلام ويبطن الكفر.

وإذا قاله الصادق فهو مسلم ظاهراً وباطناً، ومعه أصل الإيمان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: ١٧].

فعلّق وصف الإيمان بالصدق؛ فمن صدق منهم فهو من أهل الصنف الأول، ومن لم يصدق منهم فهو من أهل الصنف الثاني، وهذا يبيّن أنه قد يكون فيمن نزلت فيهم هذه الآيات من هو من أصحاب الصنف والأول، ومنهم من هو من أصحاب الصنف الثاني، وشملت هذه الآيات الصنفين كليهما.

وهذا مثال بديع لحسن بيان القرآن الكريم، ودلالته على المعاني العظيمة بألفاظ وجيزة.

والمقصود أن الصدق هو الفارق بين أهل النفاق وأهل الإيمان كما دل عليه جعل الإيمان مشروطاً بوجود الصدق ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

وقد قسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

فضل الصدق

- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإياكم والكذب فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم من طرق عن أبي وائل عن ابن مسعود.

وهذا الحديث الجليل أصل في فضل الصدق وجلالة قدره، وهو من جوامع الكلم، فإنه اختصر من المعاني الجليلة العظيمة ما يطول شرحه، ففيه بيان فضيلة الصدق، وأنه أصل البرّ والدليل إليه، ومن أراد أن يكون بَرًّا فعليه بالصدق في قوله وعمله وحاله.

وفيه: أن البرَّ ثمرة الصدق وعلامة عليه فإن من صدقَ برَّ، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

فهذه الأعمال الجليلة علامة بيّنة على الصدق؛ فمن أدَّاها فهو من الصادقين، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ فالإنفاق من المال على حبه ابتغاءَ مرضاة الله دليل على صدق العزيمة، ولذلك تسمى صدقة، فهي مشتقة من الصدق.

وحيث وجدتَ البرَّ وثوابَه والثناءَ على أهله وبيانَ خصاله فاعلم أنه من ثمرات الصدق، وأن خصاله علامات على الصدق، وأن أهله أهل الصدق.

فسرّح نظرك في القرآن الكريم متدبراً طالباً الهدى، وتعرَّف على أهل الصدق، وأعمال الصدق عسى أن تكون من الصادقين، وتحبّ الصادقين؛ فتحشر مع الصادقين.

ومن فوائد هذا الحديث الجليل: أن الصدق مفتاح الاستقامة والهداية، وبه يستفتح الفلاح والنجاح، ومن صدق اللهَ صدقه الله، وأثابه على صدقه بالتوفيق لصدق آخر؛ ولا يزال العبد يصدُق ويتحرَّى الصدقَ، ويَكثُرُ منه ذلك حتى يكون صديقاً، ويكتب عند الله صديقاً، والصديقية أعلى مراتب الدين ليس فوقها إلا مرتبة النبوّة.

وقد استنبط شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه من هذا الحديث أن الصديقين كثيرون.

والصدق معنى عام وأفراده كثيرة ودرجاته كثيرة، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومَن جمع بين الصدق والشكر فقد استفتح من أبواب الزيادات والبركات والفضائل ما لا تقوم له العبارة بشرح.

ومن فوائد الحديث: أن الكذب في القول والعمل والحال يفضي بصاحبه إلى الفجور؛ فالكَذْبَةُ تهدي إلى فَجْرَةٍ، والفجرة تدعو إلى أختها؛ فإن من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها؛ ولا يزال العبد يستكثر من الكذبات والفجرات حتى يكون من أهل الكذب والفجور ويكتب عند الله كذاباً.

وحيثما وجدت عملاً من أعمال الفجور؛ فاعلم أنَّ سببه كذب وقع فيه صاحبه في قوله أو عمله أو حاله؛ فأصل الفجور الكذب، وهو علامة بيّنة عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء، ولهذا فإنَّ كلَّ من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب، كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء وأعظمهم شركاً؛ فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم ولا أبعد عن التوحيد).اهـ.

ومن فوائد هذا الحديث: أن كل ما توعَّد الله عليه بالنار فهو من أعمال الفجور، وأنَّ سببها الكذب.

ومن فوائده: أنه بيَّن أصلا من أصول الفراسة الإيمانية عند المؤمنين فإنهم ينظرون بنور الله، ويفقهون ما ذكره الله من الأسباب والعلامات والدلائل، وما بيَّنه من جزاء الخير وجزاء الشر في الدنيا والآخرة، ويفقهون أثر ذلك على السالكين، وهذا باب لا يتسع المقام لشرحه.

ولابن القيم كلام جليل جامع في فضل الصدق ذكره زاد المعاد في فوائد قصة غزوة تبوك وكيف نجَّى الله الثلاثة الذين خلفوا بالصدق؛ فقال في فوائدها: (ومنها: عِظَم مقدارِ الصِّدق، وتعليقُ سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة مِن شرهما به، فما أنجى الله مَن أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مَن أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر اللهُ سبحانه عِباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هم أهلَ الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهلَ الكذب والتكذيب، وهو تقسيمٌ حاصِرٌ مطَّردٌ منعكِس؛ فالسعادةُ دائرة مع الصدق والتصديقِ، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفعُ العبادَ يومَ القيامة إلا صدقهم، وجعل عَلَم المنَافقين الذى تميزوا به هو الكذبَ في أقوالهم وأفعالهم، فجميعُ ما نعاه عليهم أصلُه الكذبُ في القول والفعل، فالصدق بريدُ الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحِليته، ولباسُه، بل هو لبُّه وروحه.

والكذب بريدُ الكفر والنفاق، ودليلهُ، ومركبه، وسائقه، وقائدُه، وحليته، ولباسه، ولبُّه، فمضادة الكذبِ للإيمان كمضادة الشِّرك للتوحيد، فلا يجتمعُ الكذب والإيمان إلا ويطرُد أحدهما صاحبه، ويستقِرُّ موضعه، والله سبحانه

أنجى الثلاثَةَ بصدقهم، وأهلكَ غيرَهم من المخلَّفين بكذبهم، فما أنعم اللهُ على عبدٍ بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذى هو غِذاء الإسلام وحياتُه، ولا ابتلاه ببلية أعظمَ من الكذب الذى هو مرضُ الإسلام وفساده. والله المستعان)اهـ.

بم يُنال الصدق؟

فإن قيل: فبأي شأي ينال العبد الصدق؟ وما الذي يعينه عليه؟

قيل: أما السبب الحامل على الصدق فهو اليقين، وإذا حلَّ اليقين في القلب قاد إلى الصدق في القول والعمل والحال، ولذلك كان أعظم نعمة يُنعم بها على العبد: اليقين، بل هي أعظم من نعمة العافية؛ لأن اليقين مفتاح الصدق، والصدق دليل البر.

وقد روى جماعة من أهل الحديث منهم الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن أبي شيبة والنسائي والترمذي وغيرهم من طرق أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام خطيباً على المنبر بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بسَنة؛ فقال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عامَ الأوَّل ثم بكى أبو بكر.

ثم قال: «**سلوا الله العفو والعافية؛ فإنَّ الناس لم يعطوا بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية، وعليكم بالصدق فإنه مع البرّ، وهما في الجنة، وإيَّاكم والكذب؛ فإنه مع الفجور، وهما في النار، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا إخواناً كما أمركم الله عزَّ وجلَّ**».

وبيان ذلك أن اليقين يثمر في قلبِ الموقِن قوَّة العلمِ حتى يكاد يستوي عنده الغيب والشهادة من قوة التصديق، التصديق بالثواب، والتصديق بالعقاب، فيكون في القلب من الرغبة والرهبة والخشية والإنابة ما يجعل القلب يعبد الله كأنّه يراه؛ فيصلح القلب بإذن الله تعالى، وتصلح الجوارح كلها، ويصلح العمل كله.

ومما يبيّن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين: «**أثقلُ صلاة على المنافقين: صلاةُ العِشاء، وصلاةُ الفجرِ، ولو يعْلَمُونَ ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوا**» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فلمَّا غاب عنهم اليقين بالثواب والعقاب هان عليهم ترك الصلاة، ولو كان هذا العلم يقينا في قلوبهم لأتوهما ولو حبواً.

ومما يعين على اكتساب اليقين إقبال القلب على الله وطلب الهدى منه جل وعلا، وكثرة الذكر والتذكر، ومعاودة التفكر والتدبر؛ حتى يكون العلم يقيناً يقرّ في القلب فيحيا به صاحبه، ويبصر به، ويمشي به، ويتكلم به، ويقوم به ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

فالعلم المراد هنا هو علم اليقين؛ وهو مستمد من التصديق الذي هو حقيقة الإيمان.

تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]

من أعظم اليقين وأنفعه: اليقين بأن الصدق مع الله خير للعبد في جميع أحواله؛ فإن هذا هو مفتاح الفوز والفلاح والخيرية كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

قال مجاهد: «﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: **جدَّ الأمر**».

أي إذا كانوا في أمر قد عزم الله عليهم امتثاله، والمراد به في هذا الموضع القتال في سبيل الله، وهو مثال على عزائم الأمور.

وهذه الآية نزلت في المنافقين الذين كرهوا القتال في سبيل الله، وكان الله قد افترض عليهم السمع والطاعة، فأظهروا الإسلام وكان منهم طائفة أسلموا على

دغل؛ فكان في قلوبهم نفاق وإيمان، وقد جعل الله الفتن تمحيصاً لما في الصدور، وتمييزا للطيب من الخبيث.

فلو أنهم صدقوا الله في إيمانهم فامتثلوا ما أمر الله به لكان خيراً لهم.

وفي كونه خيراً معانٍ جليلة يحسن الوقوف عليها لما يُستفاد بها من اليقين بأنَّ **صدق العبد مع ربه خير كله، وأن الشر والعذاب في مخالفة أمر الله عز وجل حالاً ومآلاً، يبصر ذلك من بصَّره الله، وبيان ذلك من وجوه:**

الوجه الأول: أن الصدق مع الله يُدخِل العبد في حزب الله وجنده؛ فإن الله أمرنا أن نكون مع الصادقين؛ فإذا دخل العبد في حزب الصادقين كان مع الحزب الذين يحبهم الله وينصرهم ويؤيدهم فيفوز المؤمن بذلك فوزاً عظيماً، ويكون ما يصيبه خيرٌ له كائنا ما كان.

وأما الكذب وما يتبعه من الخيانة ونقض العهد وإخلاف الوعد فإنه يفضي بالعبد إلى الخروج من هذا الحزب الكريم والدخول في حزب المنافقين؛ فيحيط الخسران بالعبد من كل جانب.

الوجه الثاني: أن الله يحب الصادقين ويبغض الكاذبين وهذا الحب والبغض له آثاره العظيمة.

الوجه الثالث: أن من صدق اللهَ كان له عهد من الله بأن يصدقه الله، «إن تصدق الله يصدقك» ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] وهذا العهد العظيم يجعل العبدَ يُقْدِمُ على الصدقِ ويقدّمه، ويؤثره ولا يؤثر عليه، لأن ضامن على الله عاقبة صدقه، ولا يؤتى العبدُ من قِبَل ربّه، وإنما الخوف عليه أن يؤتى من قبل نفسه.

الوجه الرابع: أن ثواب الصدق مع الله أعظم الثواب وأحسنه وأكرمه، وفيه من الشرف للمؤمن والعزة له والزلفى بسببه ما يجعله حريّا بأن يكون أحرص شيء عليه.

ومن الغبن العظيم أن يُستبدل به لذة عابرة، أو متعة زائفة، أو سلامة على جبن وخوف لا تدوم طويلاً، فكل ذلك ثمن قليل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [النحل: ٩٥].

الوجه الخامس: أن عقوبة ترك الصدق مع الله وما يكون بسببه من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة أعظم مما يفرّ منه العبد؛ ويصيبه ما يصيبه من العذاب وهو على حال مذمومة يصاحبها الخذلان والتخلي والنسيان، ويحرم صاحبها من التوفيق والتأييد والسكينة ما يخفف عنه أو يسليه، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

ومن العذاب الأليم المعجّل لمن ترك الجهاد ما هو أشدّ ألماً وعذاباً مما كان يخافه من ألم القتال.

الوجه السادس: أن ما يحول بين العبد وبين الصدق إنما هي صفات مهينة ذميمة، مستقبحة في العقول والفطر السليمة من الخوف والجبن والشحّ والجهل وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة وكل ذلك مما يبغضه الله عز وجل، ولا يليق بالمؤمن أن يكون متصفاً بشيء من ذلك؛ فإذا أيقن العبد بأن هذه الصفات صفات شر وشؤم، ونقيصة ولؤم، وخزي عظيم للعبد في الدنيا والآخرة حرص على البراءة منها.

الوجه السابع: أن الله لا يكلف عبده ما لا يطيق، بل إذا صدق العبد في عزيمة الامتثال هوَّن الله عليه أداء ما أمره به، وإن كان ظاهر الأمر فيما يراه العبد ويعرفه الناس صعباً شاقّا شديداً، فإنَّ الله تعالى إذا يسَّر أمراً لعبده تيسَّر، وإذا أيد الله عبدَه بروح منه وسدده وثبَّته فقد أعانه أيما إعانة، وأحسن إليه أيما إحسان؛ فتيسر له ما كان عسيراً، وذلَّ له ما كان صعباً، وقرب له ما كان بعيداً عزيز المنال؛

ويكون الصادق بما وفقه الله له من القيام بأمره موعوداً بحسن الثواب في الدنيا والآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن ألطف ذلك وأعجبه ما ينزله الله على عباده الصادقين من السكينة التي تحصل بها طمأنينة القلب وانشراح الصدر، والثبات في الأمر، وتتطهر بها النفس من دغلها وعللها، ويذهب عنها رجز الشيطان، وهو في حال القتال الشديد ومواجهة العدو حين البأس، فيكون للمؤمن المجاهد بذلك قوة نفسية عظيمة تثبّت قدمه وتدفعه للإقدام على الأهوال وهو يرجو الشهادة في سبيل الله؛ فيصيب العدوَّ من هذه البسالة والجراءة على الإقدام رعب شديد ووهن كبير.

وبذلك تعلم أن ظواهر الأمور غير بواطنها، وأن لطائف الله التي يمنحها لعباده الصادقين لا يكاد ينقضي منها العجب.

ومن ذلك أيضاً: أن الله يصرف عن عبده ما لا يطيقه، وذلك بسبب ثباته وصدقه مع الله، فإن الله لا يريد إعنات عباده ولا التعسير عليهم، ولا يريد أن يُحرِجَهم، وإنما يريد أن يَصْدقُوه، وأن تتطهّر له قلوبهم، فيكون حبهم له وإيثارهم لما يحبه أعظم في قلوبهم من كل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦] وقال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ [النساء: ١٤٧].

ومن ذلك: أن الله يوهن كيد أعدائه كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال: ١٨]؛ فيمكر الله بأعدائه حتى المغترّين بقوتهم وما هم عليه من العلوّ في الأرض حتى إذا ظنوا أنهم قادرون على هزيمة أولياء الله؛ أتاهم الله من حيث لا يشعرون؛ فارتد تدبيرهم تدميراً عليهم، وجعل الله الدائرة لأوليائه واصطفى منهم شهداء، وجعل النصر لمن بقي منهم لتبقى كلمةُ الله هي العليا.

ومن ذلك: أن الله يهوّن على عبده ما يلقاه في سبيله حتى ألم القتل في سبيله يجعله هينا عليه؛ كما روى الدارمي والترمذي والنسائي وابن حبان كلهم من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما يجد الشهيد من ألم القتل إلا كما يجد أحدكم من ألم القَرْصة**». وصححه الألباني.

بل إن منهم من يجعل الله له من خوارق العادات وأنواع الكرامات ما يثبت به فؤاده ويستبشر به ويمضي للقتل في سبيل الله بإقدام عجيب، كما صح عن جماعة من السلف أن منهم من أخبر عن نفسه قبيل قتله أنه يجد ريح الجنة، ومنهم من يرى رؤيا صالحة، ومنهم من يجد أنواعاً أخرى من الكرامات، وأخبار السلف في ذلك كثيرة مشتهرة، وأصل ذلك أن يصدق العبد مع الله فإذا علم الله من قلب عبده الصدق أحاطه بأنواع اللطف والكرامات: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

ومن ذلك: أن الله يهيئ لأوليائه أسباب اتباع رضوانه حتى يكونوا محسنين في جهادهم ويصرف ذلك عن المنافقين الذين لم يصدقوا الله ولم ينصحوا له، فيكون أداء هذه الفرائض العظيمة ميسَّراً لعباده المؤمنين، وهذا من معاني معية الله تعالى الخاصة لهم:

تأملوا هذه الآيات:

- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩].
- ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].
- ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣].

- ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمد: ٣٥].

لتجدوا أن معية الله تعالى لعباده لا بد أن يكون لها آثارها المباركة؛ فهي تعينهم على أداء ما افترضه عليه، وتصرف عنهم كيد الشيطان ورجزه وتثبيطه وتخويفه بأوليائه، وتطهرهم من علل النفس وأدوائها، وتهديهم لبلوغ مرتبة الإحسان في الجهاد في سبيل الله.

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ فالصدق هنا هو الثبات على ما يحبه الله من التزام عهده والوفاء به، وأداء ما أمر الله به حين يعزم الأمر ويجدّ الجدّ؛ فإن الدعاوى في حال السعة والدعة سهلة لكن إذا جدّ الجدُّ تميَّز الصادقون، وخُذِل المنافقون الذين يدَّعون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأعظم الخطر على من يكون في قلبه نفاق خفي، يغفل عنه وهو يزداد في قلبه حتى يتمكن منه؛ فإذا عزم الأمر لم يجد من نفسه صدقاً لله ولا عزيمة على الوفاء بعهده، والعياذ بالله.

أحوال الصادقين

للصادق أحوال يُبتلى بها وأحوال يَستأنس بها:

فمن الأحوال التي يبتلى بها: أن من تجرد للصدق وجد وحشة في أوّل الطريق لقلة السالكين؛ فإن أكثر الناس يجرون وراء حظوظهم وحظوظ معظَّميهم، وغالب الذين يعبدون الله يعبدونه بما يحبون من الأحوال التي استأنسوا بها ووجدوا عليها معظَّميهم لغلبة الأنس بالخلق عندهم على الأنس بالحق؛ فيكون الصادق بينهم كالغريب؛ لا يعنيه ما يركضون وراءه، ولا يشجيه ما يأسفون

عليه، وما يعنيه لا يعنيهم، وما يشجيه لا يشجيهم؛ فحاله أشبه شيء بالغريب وعابر السبيل.

لكن عزاؤه أحسن العزاء وأفضله وأكرمه فإنه لا يشقى مع الله أحد من الصادقين؛ ذلك أن الله تعالى قد ضمن لمن اتبع هداه الله أن لا يضلَّ ولا يشقى، وأن لا يخاف ولا يحزن.

ومن صدق الله صدقه الله، ومن صدق الله كان صدقه خيراً له؛ فما يجعله الله للصادق من الهداية للبر والطمأنينة بالحق، والبصيرة في الدين، والتصديق بوعد الله ما هو أحسن العوض عن ذلك كله، ثم إن نصيب الصادق من الرفقة الصالحة خير من نصيب غيره لمن أبصر الحقائق ولم تغرَّه الظواهر؛ فإنه وإن كان من يصاحبهم ويعرف صدقهم في حياته قلَّة؛ فإنه داخل في زمرة الصادقين الذين جعل الله بعضهم أولياء بعض؛ ففي شعوره بالانتماء لجماعة الصادقين الذين أمره الله أن يكون معهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩] ما يذهب عنه وحشة الغربة، فهو معهم بروحه وقلبه، وهو معهم بصدقه في قوله وعمله وحاله، وهم بسبب صدقهم يتوافقون في المبادئ والمواقف وتأتلف قلوبهم وإن كانوا متفرقين، وكلما كان العبد أحسن صدقاً كان أقرب لإصابة الحق وموافقة أهله.

ثم ما يشمله من دعواتهم واستغفارهم وإن تباعدوا وجهل بعضهم حال بعض ما هو أعظم من نفع أصحاب الدنيا بعضهم لبعض؛ فإن ثمرة الصداقة والصحبة على الحقيقة إنما هي في المنفعة التي تعود بها على صاحبها؛ وقد جعل الله للمؤمن الصادق من ذلك أعظم النفع في الدنيا من الحقوق الواجبة التي أوجبها له، ويؤديها له إخوانه بإحسان وطيب نفس يتقربون بذلك إلى الله تعالى، وكذلك النفع المتعدي المتسلسل من ثواب الدلالة على الخير والتواصي بالحق والتواصي بالصبر وبركات ذلك كله، ودعوات المؤمنين واستغفارهم ونصحهم.

وأما في الآخرة فما ذكره الله من ألفتهم واجتماعهم واستبشار بعضهم ببعض وتقابلهم في النعيم المقيم وهم في غاية الغبطة والابتهاج والأنس والسرور بهذا الاجتماع؛ وفي هذا تنبيه على تعويضهم عما يفوتهم لمَّا تركوا موافقة الناس على باطلهم، والاستئناس بهم في الباطل.

والإفاضة في ذكر هذه المعاني العظيمة واللطائف الكريمة وبيانها ووصف أحوالها يطول جداً وحسبك الاكتفاء هنا بالتنبيه، وأَعْمِل فكرك فيما وراء ذلك ترى عجباً.

صفات الصادقين وهديهم وسمتهم

أَمْرُ الله تعالى إيَّانا أن نكون مع الصادقين يقتضي منا معرفة أمرين:

الأمر الأول: معرفة الصدق ما هو؟ وبم ينال؟

والأمر الآخر: أن نعرف صفات الصادقين وأعمالهم وهديهم وسمتهم؛ فإن من أحب قوماً وطمع أن يكون منهم اتَّسى بهم، وحرص على أن يتبعهم في هديهم وسمتهم وصفاتهم وأعمالهم ليكون معهم ويعدَّ منهم ويحشر في زمرتهم.

فأمَّا الأمر الأول فقد تقدم بيانه.

وأما الأمر الآخر؛ فمنه ما سبق ذكره وهو ما دلَّت عليه آية البقرة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧] وينبغي لطالب العلم أن يعتني بتفسير هذه الآية عناية بالغة؛ فإنها جمعت أصول أعمال الصدق، وأشرف خصاله وأجمعها؛ فمن حقّقها فقد حقق الصدق.

وكل أعمال البر التي أمر الله بها وأمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم هي من أعمال الصدق ودلائله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس لا يخلو حال العبد من القيام به أو العزيمة عليه والإعانة عليه، وعماد ذلك النصيحة لله ورسوله.

وأما صفات الصادقين وسمتهم فيُعرف باستقراء سير أئمة الصادقين، وملاحظة هدي الأحياء منهم وسمتهم، ولا يخلو عصر من صادقين قائمين بأمر الله كما يحب الله.

ومعرفة سمت هؤلاء الصادقين وهديهم والاتساء بهم هو من تحرّي الصدق وطلب اكتسابه.

وهذا مبحث يطول الحديث فيه، لكن تلخيصه وذكر أهم مسائله مهم لطالب العلم.

فمن أظهر صفاتهم: الجِدّ؛ فإنهم قد أبصروا الهدف، وعرفوا الطريق، وتبيَّنوا ما يراد منهم؛ وعلموا أنه لا يمكنهم السبق إلا بالصدق؛ فجدّوا في عملهم واجتهدوا.

قال ابن القيم رحمه الله في شرح قول صاحب المنازل عن صاحب الصدق: **(ولا يقعد عن الجد بحال)** قال: (قوله: ولا يقعد عن الجد بحال يعني أنه لما كان صادقا في طلبه مستجمع القوة: لم يقعد به عزمه عن الجد في جميع أحواله فلا تراه إلا جادا وأمره كله جد).

فالجد أخو الصدق، ولا يزال الصادق جادًّا يعرف منه الجد في قوله وعمله وحاله، وأما كاذب العزيمة فذو هزل وبطالة، وأسوأ منه صاحب الجدّ في الفجور.

ومن صفات الصادقين: أنهم أصحاب هِمَّةٍ وعَمَل، وإعراضٍ عن اللغو والهزل، وبعدٍ عن التكلف، وتركٍ لما لا يعنيهم، وإقبال على شؤونهم وما ينفعهم عند الله، وتقديمهم من كلّ شيء لبَّه؛ فإذا قصدوا عملاً جعلوا همتهم لحقيقته

ولبّه الذي هو المقصود بالأصل، وإذا استمعوا إلى قول اتّبعوا أحسنه، ولم ينشغلوا بالظواهر عن الحقائق.

ومن صفاتهم: حسن معرفتهم بأنفسهم واتهامهم لها ورؤيتهم لتقصيرها وعدم مداهنتها؛ قال سهل بن عبد الله التستري: (لا يشمّ طريق الصدق عبدٌ داهَنَ نفسَه وداهن غيره). رواه البيهقي في الشعب.

والذي يداهن نفسه ويسوّغ أخطاءها ويتحيّل لاتباع أهوائها إنما يمكر بنفسه ويخادعها؛ لأن العبرة بالعاقبة، وعاقبة المداهنة عذاب ووبال وخسران عظيم.

ومن قام على نفسه قيام الوليّ المصلح فإنه حريّ أن يقوّمها وينجو بها.

والمقصود أن معرفة الصادقين بالمطلوب تورثهم رؤية التقصير، والجدَّ والتشمير، وتذهب عنهم العجب والغرور، قال الشافعي رحمه الله: (إذا خفتَ على عملك العُجب، فاذكر رضى مَن تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب؛ فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله).

وقد قال ابن الوردي: (فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل).

ومن شأن الصادقين: إخفاء العمل والحال إلا لمصلحة شرعية تقتضي الإعلان بقَدَرٍ مع أمن الفتنة والاحتراز من أسبابها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكم من صاحب قلبٍ وجمعيةٍ وحالٍ مع الله تعالى قد تحدَّث بها وأخبر بها؛ فسلبه إياها الأغيارُ؛ ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحدٌ، والقوم أعظم شيءٍ كتمانًا لأحوالهم مع الله عز وجل وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمهتدي السالك فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبَّت أصول تلك الشجرة الطيبة - التي أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء - في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليُقتدَى به ويؤتم به لم يبال، وهذا بابٌ عظيم النفع إنما يعرفه أهله)اهـ.

ما لا يقدح في الصدق

لا يقدح في صدق العبد أخذه بالرخص الصحيحة، وتركه تكلف ما لا يطيق، وإجمامه النفس بشيء من اللهو المباح، والملاطفة والمزاح ونحو ذلك مما تستريح به النفس حتى تقوى على معاودة العمل، بل المأثور عن السلف الاحتساب في إجمام النفس وإراحتها بقَدَرٍ حتى يكون ذلك أقوى لها على العمل وأنشط، قال معاذ بن جبل: «**إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي**».

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا**». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح البخاري عنه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**».

وقد روي من حديث عائشة وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغِّض إلى نفسك عبادة الله؛ فإن المنبتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى**».

وطرقه لا تخلو من ضعف، ومعناه صحيح، ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدم.

ومن أمثال العرب: (**المنبت لا أظهراً أبقى ولا أرضاً قطع**).

والمقصود أن الصدق لا يقتضي التجهم والتزمت والغلظة والفظاظة والشدة على النفس وعلى الناس؛ بل هذا أقرب إلى الغلو والتنطع المفضيان إلى الهلكة.

بل إن من صدق العبد صدقه النصيحة للناس بالتلطف لهم وإرادة الخير لهم بكل حال، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وحفظ حرماتهم وأداء حقوقهم، والسرور بما يسرهم، والحزن لما يسوؤهم، وأن يأتي إليهم ما يحب أن يأتوا إليه.

الإخلاص

معنى الإخلاص

الإخلاص في اللغة: التصفية والتنقية، وهو مصدر أخلص يُخلص إخلاصاً.

-قال أبو منصور الأزهري: (وخَلَصَ الشَّيْءُ يخلُصُ خُلُوصاً وخلاصا، وخلَّصْتُه أنا تخليصاً إذا صفيته من كدر أو درن).

ومعناه شرعاً: تخليص الأعمال من الشرك بالله جل وعلا، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة لا شريك له.

-قال الخليل بن أحمد: (الإخلاصُ: التوحيد لله خالصاً، ولذلك قيل لسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: سورة الإخلاص، وأخْلصتُ لله ديني: أمحضتُه وخَلَص له ديني).

فمن لم يعبد إلا الله فقد أخلص العبادة لله جل وعلا، وصفَّاها ونقَّاها من عبادة غيره جل وعلا، وهذا هو التوحيد المأمور به.

وحقيقة الإسلام هي الانقياد لله وحده لا شريك له، فيكون قلب العبد سليماً من الشرك، وعمله خالصاً لله جل وعلا؛ والقلب السليم هو الذي سَلِمَ من الشرك وإرادة غير وجه الله تعالى. والله تعالى لا يقبل من العمل إلا بما أريد به وجهه، وهذا هو الدين القيّم الذي أمر الله به.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٢-٤٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

تفاضل المخلصين في إخلاصهم

الإخلاص عبادة قلبية فلذلك يتفاضل المخلصون في قوّة الإخلاص.

ويزداد الإخلاص بأمرين:

أحدهما: إحسان الإخلاص بقوّة الاحتساب وتصفية العمل من شوائب ما يقدح فيه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنما الأعمال بالنيات**» فيتفاضل العمل بتفاضل النية، وهذا من معاني الحديث.

-وقد ذكر ابن رجب عن عبد الله بن المبارك أنه قال: (رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمهُ النيَّةُ، وربَّ عمل كبيرٍ تُصَغِّره النيَّةُ).

ولذلك قد يعمل رجل عملاً يسيراً فيما يرى الناس ويثيبه الله تعالى عليه ثواباً عظيماً، بل قد يدخله به الجنة، وقد يعمل آخر عملاً عظيماً فيما يرى الناس ولا يكون له ذلك الوزن في ميزان حسناته.

والأمر الآخر: الاستكثار من العبادات؛ لأن كلَّ عبادة يؤديها العبد خالصة لله يزداد بها إخلاصاً.

فبازدياد العبد من الأعمال الخالصة وازدياد قوة الإخلاص تزداد محبة الله تعالى له كما في حديث الولي المشهور.

وقد تقدَّم في الباب الثاني ذِكْرُ درجات تحقيق العبودية لله جل وعلا بما يغني عن الإعادة، وهي درجات تحقيق الإخلاص، ولكل درجة أحكامها وفضائلها في الدنيا والآخرة.

لكن أنبه إلى مسألة مهمة، وهي أن تحقيق الإخلاص يلزم منه تجريد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحيث ذكر الإخلاص ممدوحاً فهو الإخلاص المقرون بالمتابعة؛ لأن من خلص قصده لله، لم يرد إلا ما أراده الله، ومن تبيَّن له هدي النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه؛ لم يكن مخلصاً لله جل وعلا في حقيقة الأمر، وإنما هو متبع لهواه، ومن أحسن الاتباع فقد أخلص لله جل وعلا.

ثمّ إنّ العبادة التي يؤدّيها المخلص لا بدّ فيها من كيفية تؤدَّى بها، ولا تُقبل عبادة من العبادات على غير ما شرعه الله تعالى بما أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فالإخلاص والمتابعة متلازمان.

• فضائل الإخلاص

إخلاص العبادة لله هو حقيقة الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو معنى الإسلام الذي بعث الله به المرسلين، فإن الدين السليم والقلب السليم هو الذي خلص من الشرك.

وإخلاص العمل لله هو لب ما يراد من العبد، وما خلق لأجله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وفي مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أنس بن مالك وزيد بن ثابت وجبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبدا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**».

-قال سهل التستري: (الدنيا كلها جهل موات إلا العلم منها، والعلم كله حجة على الخلق إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص منه). رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وللإخلاص فضائل عظيمة بحسب درجات تحقيقه؛ فأما الذين انتفى عنهم الإخلاص مطلقاً فهم الكفار والمنافقون، وأهم أصحاب النار الذين يخلدون فيها أبداً والعياذ بالله.

وأما أهل الإسلام فهم أهل الإخلاص، ولكل مسلم نصيبه من الإخلاص وفضائله وبركاته.

فأما أصحاب الدرجة الأولى الذين أتوا بأصل الإخلاص، وهو الكفر بالطاغوت وعبادة الله وحده لا شريك له، لكنهم اقترفوا من الكبائر كالشرك الأصغر من الرياء والسمعة في بعض الأعمال وغيرها من الكبائر؛ فهم من أهل الوعيد من المسلمين:

فما معهم من أصل الإخلاص يمنعهم من الخلود في النار، ويدخلون به الجنة بإذن الله تعالى، وتنفعهم بإذن الله دعوات الداعين لهم وما يأذن الله به لهم من شفاعات الشافعين.

وما معهم من الكبائر يستحقون عليه العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فمنهم من يعذب في الدنيا، ومنهم من يعذب في قبره، ومنهم من يعذب في النار حتى لا يدخل الجنة إلا نفس طيبة قد ذهب خبثها.

وأما نفس الكافر والمنافق فهي كنجاسة العين لا يذهب خبثها.

ومن تأمل نصوص الوعيد الواردة في أصحاب الكبائر من المسلمين علم أنه لا طاقة له بهذا العذاب الأليم، وأن السلامة لا يعدلها شيء، وأن الخوف على العبد أن يموت وهو مصرّ على كبيرة من الكبائر، لأن ما سوى الكبائر معفوّ عنه كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

ولذلك كان الإكثار من الاستغفار والتوبة إلى الله من كل ذنب، والصدق في ذلك، من شأن المؤمنين الأتقياء.

وأما أصحاب الدرجة الثانية من الإخلاص وهم المتقون الذين اجتنبوا الشرك الأكبر والأصغر كالرياء والسمعة وطلب الدنيا بعمل الآخرة فهؤلاء نصيبه من فضائل الإخلاص أعظم من أصحاب الدرجة الأولى، وأعظم منهم أصحاب الدرجة الثالثة وهم المحسنون وهم الذين استكملوا الإيمان لما استكملوا الإخلاص إذا كان حبهم لله وبغضهم لله وعطاؤهم لله ومنعهم لله.

كما في سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**».

والحديث عن فضائل الإخلاص يطول، ونصيب كل مسلم منه بحسب ما يكون معه من الإخلاص؛ فإن تفاضل المسلمين في تحقيقه كبير.

فمن فضائله: أنه سبب النجاة من عذاب القبر وعذاب النار.

ومن فضائله: أنه سبب دخول الجنة.

ومن فضائله: أنه شرط لقبول العمل.

ومن فضائله: أنه سبب التخلص من تسلط الشيطان وإغوائه وكيده، فبقدر ما يخلص العبد لله يتخلص من كيد عدوه. قال أبو سليمان الداراني: (إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء).

ومن فضائله: أنه السبب الأعظم لمحبَّة الله عز وجل للعبد، وما يتبعها من بركات عظيمة منها: مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، ومضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات، والحفظ من الشرور والآفات، ودر كيد الأعداء، وزوال الهموم والغموم، وحصول النعم والبركات، واندفاع النقم والعقوبات، والتوفيق للطاعات والقربات.

ومن فضائله: أن صاحب الإخلاص لا يكون مذموماً ولا مخذولاً، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ فلما جعل الله الذم والخذلان على أهل الشرك علمنا أن أهل الإخلاص لا يكونون مذمومين ولا مخذولين، وبحسب ما يبلغ العبد من الإخلاص يكون نصيبه من النجاة من الذم والخذلان.

ونظير هذا الاستدلال الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣].

على أنّ من حقق الإخلاص لا يكون من المعذبين.

ومن فضائله: أن المخلص موعود بكفاية الله تعالى له، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، فالعبادة المعتبرة شرعاً هي عبادة المخلص لله، وأما المشرك فعباداته لا وزن لها، بل يجعلها الله هباء منثوراً، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

-قال سفيان الثوري: (عمدنا إلى ما عملوا من عمل من خير فلم نقبل منهم).

ومن فضائله: أن عمل المخلص ولو كان قليلاً فإنه لا يضيع عند الله، بل يقبله الله منه ويضاعف له المثوبة عليه، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قال أبو العالية: إلا ما أريد به وجهه.

وهو أحد المعنيين المأثورين عن السلف في تفسير هذه الآية، وهو معنى صحيح، فعمل المخلص لا يهلك على صاحبه ولا يضيع.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠] (عَمَلًا) نكرة في سياق النفي تعم كل عمل مهما قل.

وأصل إحسان العمل إخلاصه لله تعالى.

ومن فضائله: ما يجده المؤمن المخلص من الحياة الطيبة التي هي أعظم نعيم الدنيا من سكينة النفس، وطمأنينة القلب، وعزة الطاعة، وحلاوة الإيمان، وبرد

اليقين، ونور العلم، ولذة المناجاة والشوق إلى الله، ولا ينال العبد هذه النعم العظيمة التي لا تقوم لها الدنيا وما فيها إلا بالإخلاص.

- قال عامر الشعبي: كتب عمر إلى أبي موسى: «**من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله، فما ظنك في ثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام**» رواه هناد في الزهد، وهو جزء من رسالة عمر لأبي موسى المشهورة في القضاء، وقد أخرجها بطولها عمر بن شبة في تاريخ المدينة، والدارقطني في سننه، والبيهقي في السنن الكبرى وابن عساكر في تاريخه وغيرهم.

وقد بقيت هذه الرسالة عند حفيد أبي موسى سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري حتى أُخرجت لسفيان بن عيينة فقرأها.

• الأسباب المعينة على تحقيق الإخلاص

الأسباب المعينة على تحقيق الإخلاص يجمعها أمران: اليقين والصبر.

فيكون لدى العبد يقين بربّه جلَّ وعلا، وحسن معرفة بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجب له من إخلاص العمل والقصد.

ويكون لديه معرفة بقَدْرِ نفسه، وأنه لو وكله الله إلى نفسه وكله إلى عجز ومضيعة، وأن اتباعه لهوى النفس في معصية الله باب إلى الخسران العظيم؛ وأن ما فاته من درجات الفضل والخير والرفعة والزلفى لدى الله عز وجل إنما هو بسبب نفسه، وتفريطها في جنب الله، وإذا حصل اليقين بذلك في قلب العبد عدَّ ما يفوته من الفضائل مصائب وما يتعرض له من سخط الله بسبب معاصيه وتفريطه في القيام بما افترضه الله عليه مصائب أعظم، وشهود هذا وذاك يحملانه على الفرار إلى الله من شر النفس وسيئات أعمالها، ويذهبان من قلبه العجب والغرور وشهود العمل والمنة به على الله، فيؤتي ما يؤتي وقلبه وجلٌ من الله؛ يخشى أن لا يقبل منه، وهذا حال المؤمن الصادق المخلص.

والعلم بذلك لا يكفي وحده، بل يحتاج العبد في ذلك إلى صبر ومصابرة، وإلزام للنفس على سلوك طريق الهدى؛ وحسن استعانة بالله وتوكل عليه؛ فإن الآفات والفتن التي تعرض للقلب إذا لم يحسن العبد ردها والاستعاذة منها قد تحجب عنه حقيقة العلم وتطمس البصيرة فيقسو القلب ويغلظ، فيكون الزيغ بعد الرشاد، والضلال بعد الهدى، والحور بعد الكور، والعياذ بالله.

ومن العبَّاد من يؤثر الخلوة ليستعين بها على تحقيق الإخلاص، كما قال ذو النون المصري: (لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة؛ لأنه إذا خلا لم ير غير الله، وإذا لم ير غير الله لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلَّق بعمود الإخلاص، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق) اهـ.

وهذه المسألة فيها تفصيل، والخلاصة فيها أنه ينبغي للعبد أن يكون له ساعات من يومه يخلو فيها بنفسه وربه فذلك أدعى لتحقيق الإخلاص ومحاسبة النفس وحسن التعبد بعبادات السر.

وأما إدامة الخلوة والإكثار منها ففيها آفات مضرة بالسالك ولا يستطيعها على الإحسان فيها كل أحد، فمن السالكين من أرادها فتحولت خلوته إلى بطالة.

عاقبة الإخلاص

-قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين في شرح كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (قوله: «**فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله**».

هذا شقيق كلام النبوة وهو جدير بأن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومَنْ أَحسَنَ الإنفاقَ منهما نفع غيره وانتفع غاية الانتفاع؛ فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية أصل الشر وفصله.

فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه وعلمه لوجهه سبحانه كان الله معه فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء فإن كان الله مع العبد فمن يخاف وإن لم يكن معه فمن يرجو وبمن يثق ومن ينصره من بعده فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولا وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها وجعل له فرجا مخرجا وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة أو في اثنين منها أو في واحد فمن كان قيامه في باطل لم ينصر وإن نصر نصرا عارضا فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولا والقيام في الحق وسيلة إليه فهذا لم تضمن له النصرة فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين وإن نصر فبحسب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً:

-فإن كان صاحبه محقًّا كان منصوراً له العاقبة.

-وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة.

-وإذا قام العبد في الحق لله، ولكن قام بنفسه وقوته، ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه بريًّا من الحول والقوة إلا به؛ فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك.

ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء البتة وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء)اهـ.

وخلاصة بيان الأمور الثلاثة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله أن يكون العبد قائماً بالحق، وقائماً لله وبالله.

فأما قيامه بالحق فيكون بمعرفة الحق، وذلك يدرك بالعلم النافع.

وأما قيامه لله؛ فيكون بالصدق والإخلاص.

وأما قيامه بالله؛ فيكون بتحقيق التوكل والاستعانة، وهو موضوع الباب القادم بإذن الله.

اللهم أسلم قلوبنا لك ووجوهنا إليك يا حي يا قيوم، واجعلنا من أهل الصدق والإخلاص، واكتب الإيمان في قلوبنا وأيدنا بروح منك، اللهم اجعلنا قوامين لك وبك، اللهم برحمتك نستغيث فأصلح لنا شؤننا كلها ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة أعين، وهيء لنا من أمرنا رشداً، واجعلنا للمتقين إمامًا.

الباب الثامن: التوكل والاستعانة

تمهيد:

التوكل والاستعانة عملان جليلان من أجلِّ أعمال القلوب، وأخص مقامات العارفين؛ فهما دليل الإيمان وعنوان العبودية، ومظهر الافتقار إلى الله تعالى، فإن الباعث عليهما هو اعتقاد كمال الله تعالى ونقص العبد، وغنى الله جل وعلا وفقر العبد، وملك الله تعالى وعبودية العبد، ورحمة الله تعالى وفضله وإحسانه، وحاجة العبد وفاقته واضطراره، وحسن الظنِّ بالله تعالى ورجائه والرغب إليه؛ ومعرفة العبد بقدر نفسه وضعفها وعجزها.

وجامع ذلك: اليقين بأن النفع والضر بيد الله وحده.

ومتى قامت هذه المعاني الجليلة في قلب العبد أناب إلى الله وفرَّ إليه، واستعان به وتوكل عليه.

والاستعانة أعمّ من التوكّل، ولذلك إذا أطلقت شملت التوكّل وغيره؛ فالتوكل حقيقته الاستعانة بالله بتفويض الأمر إليه لجلب منفعة أو دفع مضرة، وباب الاستعانة أوسع وأشمل.

وإذا جمع بينهما فالاستعانة طلب العون من الله على أمر من الأمور، والتوكل تفويض الأمر إليه ليكفيه ما أهمّه من ذلك الأمر.

وبتحقيق هاتين العبادتين يتحقق للعبد ما وعده الله من الكفاية والإعانة.

وهما عبادتان واجبتان؛ من فرَّط فيهما أصابته آفاتٌ في سلوكه بحسب ما فرَّط فيه.

ولا يصحّ للعبد سيره، ولا يستقيم سلوكه إلا بالتوكل على الله والاستعانة به.

وقد قال الله تعالى كما في الحديث القدسي: [يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم].

فالهداية إلى سلوك الصراط المستقيم لا تكون إلا بالله.

وقد تقدّم ذكر كلام ابن القيم - رحمه الله - في آخر الباب السابق عن التناسب بين التوكل والاستعانة، وبين الصدق والإخلاص.

وقوله إن العبد إذا قام في الحق لله وبالله لم يقم له شيء، وكان منصوراً مؤيداً أبداً.

وذكرتُ أن القيام لله يكون بالصدق والإخلاص، والقيامَ بالله يكون بالتوكل والاستعانة.

ومن صحَّح هذه المقامات صحَّ توحيده وسلوكه؛ ثم كلما كان أكثر حظاً ونصيباً منها كان ذلك أعظم لهدايته ونصره، والله يؤتي فضله من يشاء، والله واسع عليم.

التوكل

معنى التوكل

التوكل هو إيكال الأمر إلى الوكيل، أي تفويضه إليه، والاعتماد عليه، وانتظار كفايته، والوكيل والمتوكل بالأمر هو الذي يقوم به.

فالوكيل هو الذي يُسند إليه الأمر ويُفوَّضُ إليه ويعتمد عليه فيه.

والمتوكِّل هو المعتمِد والمفوِّض.

لكن لما كان التوكل على الله له خصوصية بأن الله تعالى على كلّ شيء قدير وبكل شيء عليم، وهو حسب من يتوكّل عليه؛ استفيد معنى الضمانة والكفاية من إسناد الفعل إليه.

وأصل التوكُّل على الله تعالى: اعتماد القلب على الله وتفويض الأمر إليه ثقةً في حسن تدبيره واعتقاداً بأن النفع والضر بيده وحده جلّ وعلا، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه.

منزلة التوكل

التوكل عبادة من أجل العبادات، وهو جامع لعبادات عظيمة من التذلل لله، والخضوع إليه، والالتجاء إليه، والتسليم له، والثقة به، ورجائه وتفويض الأمر إليه، وحسن الظن به، والرضا به، واعتقاد أن النفع والضر بيده وحده جلَّ وعلا.

والتوكل يستلزم الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا فيؤمن المتوكّل بسعة علم الله تعالى وقدرته، وعظيم ملكه وسعة رحمته، وكمال غناه وجميل حمده، وحسن ولايته وربوبيته، وبديع حُكْمِهِ وحِكمته، وغيرها من الصفات العليا الجليلة التي هي من آثار أسمائه الحسنى؛ فما يقوم في قلب المتوكل عند توكله من هذه العبادات وغيرها أمر لا تحيط به العبارة ولا يوفيه الشرحُ حقَّه.

ثواب المتوكل

وثواب التوكل على الله عظيم جزيل إذ جعل الله ثواب المتوكل أن الله هو حسبه وكافيه، وأن الله يحب المتوكلين، وفي ذلك غَناء له عن كل ما تتطلبه النفس، فليس وراء الله مذهب، ولا بعده مطلب؛ فبيده ملكوت كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] فجعل هذا من ثواب التقوى وهو تفريج الشدة وحصول الرزق أيًا كان نوعه، أما التوكل فثوابه أعظم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقد أثنى الله تعالى على نفسه بأنه ﴿نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهذا الثناء يفتح لأولي الألباب أبواباً من المعاني الجليلة التي يستلزمها هذا الثناء الجميل فيثمر التفكرُ فيها من ثمرات اليقين والإيمان ما يحمل العبد على الثقة بالله جل وعلا والرضا به.

فكونه ﴿نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] يستلزم علمه جل وعلا بحاجة من اتخذه وكيلاً، وعلمه بما يرجوه ويخافه كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ [النساء: ٤٥].

ويستلزم قدرته على تحقيق ما ينفع عبده ودفع ما يضره، ويستلزم نصره لعبده، ولطفه به ورحمته وإحسانه، ويستلزم أنه لا يخذل عبده المتوكّل عليه، إلى غير ذلك من المعاني الجليلة التي يكفي فيها وصف ﴿نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] ليحصل للنفس المؤمنة من اليقين والسكينة، والثقة والطمأنينة، بالله جل وعلا ما لا تقوم له هموم الدنيا.

وكلمة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] يقولها أناس فتبلغ بهم من رضوان الله جل وعلا والقرب منه والزلفى لديه منزلاً عالياً جداً، ويقولها أقوام لا تجاوز حناجرهم.

وسرّ ذلك ما وقر في القلب من أنواع العبودية لله جل وعلا من الصدق والإخلاص أو عدمهما.

يقولها أقوام وهمهم النكاية بآخرين لأمر من أمور الدنيا غضبوا لأجله، وقد يكون هذا الأمر محرماً في أصله أو في التعلق به، وقد يكونون هم الظالمين المسيئين، ويقولها أقوام وهمهم إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وتحقيق العبودية له جل وعلا وطلب كفايته والاستغناء به تبارك وتعالى لأداء عبادته على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأن يكفيهم ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا.

أنواع التوكل

التوكل على الله تعالى لا يختص بالأمور الدنيوية كما يتوهَّمه بعضُ من قلّت معرفته، ونقص نصيبه من التوكل نقصاً كبيراً، بل التوكل على الله في الأمور الدينية من أداء واجبات العبودية لله تعالى والجهاد في سبيله في جميع مراتب الجهاد والتوكل عليه في طلب الهداية في جميع الأمور كبيرها وصغيرها أولى وأعظم.

وإن كان التوكل على الله في المصالح الدنيوية مطلوباً ومثاباً عليه بل قد يجب أحياناً، لكن التوكل على الله في أمور الدين أعظم وأنفع.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (التوكل على الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وَبَيْنَ النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله؛ فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتي توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه.

- فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم)ا.هـ.

وقد بدأ الله تعالى بالحث على التوكل عليه في أمور الدين قبل أمور الدنيا كما في الحديث القدسي العظيم: [**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسِكُم**].

وهذا الحديث يتضمن وجوب التوكل على الله جل وعلا فإنه لا تحصل منفعة في دين ولا دنيا إلا بإذن الله تعالى وعلمه وقدرته، وقد بين الله تعالى أن جميع

أبواب النفع مغلقة إلا من طريقه جل وعلا، فما أذن الله في نفعه نفع، وما لم يأذن به فلن ينفع.

ذلك أن الله له ما في السماوات وما في الأرض، وبيده ملكوت كل شيء، وهو الغني الذي لا أغنى منه، والملك الذي لا يخرج شيء عن ملكه، وهو الحميد الذي لا يخذل من توكل عليه ولجأ إليه وطلب النفع منه جل وعلا واتبع رضوانه.

تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣١-١٣٤].

تأملوا التأكيد على أن لله ما في السماوات وما في الأرض ثلاث مرات في هذه الآيات، والتأكيد على غناه جل وعلا بأكثر من وجه، وترغيبه عباده أن يسألوه من خير الدنيا والآخرة، وما في ضمن ذلك من وعده الكريم بتحقيق ما يأملون إن هم استجابوا له واتبعوا هديه، وأنه لن يضيع شيئاً من دعائهم ولا يفوته شيء من ذلك فهو السميع البصير.

كل هذه المعاني إذا تأملها المؤمن أورثته يقيناً وإيماناً وإخباتاً وإنابة لله جل وعلا.

وعلم أن الله تعالى هو ﴿نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء: ١٣٢].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: [فاستهدوني أهدكم] [فاستطعموني أطعمكم] [فاستكسوني أكسكم] يتضمن إرشاداً ووعداً لا يخلفه الله أبداً، ومن أوفى بوعده من الله؟!!

ويصدّق هذا ويبينه ما في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجة وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنَّكم تتوكلون على الله حقَّ توكّلِهِ لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدو خماصاً وتَرُوحُ بِطانا».

تحقيق التوكل

تحقيق التوكل يكون بأمرين:

الأمر الأول: صدق الالتجاء إلى الله وتفويض الأمر إليه وإحسان الظن به جل وعلا وتعظيم الرغبة في فضله وإحسانه، وإفراده جل وعلا بما تقتضيه عبودية التوكل من العبادات العظيمة.

الأمر الثاني: اتباع هدى الله عز وجل، وذلك بفعل ما يهدي إليه من الأسباب، فيمتثل الأمر ويجتنب المنهي عنه ويحرص على بذل الأسباب التي أذن الله بها في جلب النفع ودفع الضر.

وهذا أمر دل عليه الحديث الآنف الذكر فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الطير تغدو، وغُدُوُّها هو بذلها السبب في التماس الرزق.

فمن جمع الأمرين: العبادة القلبية بالتوكل وبذل السبب الذي هو مقتضى هداية الله تعالى وبيانه؛ فقد حقق التوكل واتبع رضوان الله.

ولما اجتمع هذان الأمران للمؤمنين عقب غزوة أحد كفاهم الله ما أهمهم، فكفاهم شر القتال، وأحل عليهم رضوانه، وحفظهم من كل سوء، وأعقب لهم ذكراً حسناً في كتابه الكريم لا يزال يتلى إلى يوم القيامة، قال الله تعالى:
﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟

رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥].

فهؤلاء حققوا الأمرين فازداد إيمانهم بالله وتوكلوا عليه جل وعلا وقام في قلوبهم من أنواع العبودية لله جل وعلاما يحبه الله ويرضاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، واستجابوا لله والرسول واتبعوا رضوان الله فأحل الله عليهم رضوانه وحفظهم من كل سوء وأثابهم من الثواب العظيم ما لا يبلغه وصف واصف.

وهذان الأمران حققهما مؤمن آل فرعون فجعله الله آية للناس وأبقى له الذكر الحسن والثناء الكريم؛ فإنه اتبع رضوان الله وبذل الأسباب التي أمر الله بها؛ فأنكر على قومه الكفر، وقام بواجب نصرة موسى عليه السلام، واجتهد في النصيحة، وفوض أمره إلى الله؛ فحفظه الله ووقاه، وأعلى ذكره وكفاه ما أهمه، وانتقم له ممن أراد المكر به، قال الله تعالى حكاية عنه بعد أن نصح قومه بما نصحهم به: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٤-٤٦].

قال الإمام الشنقيطي: (وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر: ٤٤-٤٥] دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوء).

فالتوكل على الله في تحقيق عبوديته جل وعلا-وهو أعظم أنواع التوكل- أَمَرَ الله معه ببذل الأسباب والقيام بأعمال العبادة كما أرشد الله عباده وهداهم، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: ٨-١٠].

وكذلك من توكل على الله في جلب منفعة أو دفع مضرة وجب عليه أن يبذل ما يستطيع من الأسباب التي أذن الله بها وهدى إليها لجلب تلك المنفعة ودفع تلك المضرة.

وأما من قال بلسانه: توكلت على الله، وقلبه غافل لاهٍ، أو غير عازم على الصدق في التوكل؛ فهو لم يحقق التوكل، وكذلك من لم يتبع هدى الله ولم يبذل الأسباب التي أمر الله بها فهو جاهل ظالم لنفسه، ضال في فهمه، مقدوح في عقله.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: (نحن المتوكلون)؛ فإذا قدموا مكة سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى** ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]».

وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾ [يوسف: ٦٧].

فجمع بين التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وبَذْلَ السبب لحمايتهم من العين وذلك بأمره لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة على قول جماعة من المفسرين.

وَمَن فَقِه هذا المعنى حق الفقه كان حريصاً على بذل الأسباب لأنها من هدى الله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولم يتعلق قلبه إلا بربه جل وعلا، لأنه هو وحده الذي بيده النفع والضر.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**» حسنه

الترمذي واستدل به جماعة من أهل العلم، ومن أهل العلم من يضعف إسناده، ومعناه صحيح.

فإن العاجز هو الذي يقعد عن بذل الأسباب مع إمكانها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل، فقرن بينهما.

والعاجز محروم مخذول مذموم، ومن زعم أنه متوكل على الله وهو لا يتبع هدى الله ببذل الأسباب فهو كاذب في دعواه.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود والنسائي من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قَضَى بين رجلين؛ فقال المقضي عليه لما أدبر: **(حسبي الله ونعم الوكيل)**.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ».

فقال: «ما قلتَ؟».

قال: قلتُ: حسبي الله ونعم الوكيل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وهذا الحديث وإن كان في إسناده مقال، لكن معناه حق، فإن العاجز الذي لا يبذل الأسباب مع إمكانها ملوم على عجزه، فإن فاته شيء من الخير أو حصل له ما يكره بسبب تفريطه فيما يمكنه من الأسباب لم يكن له حجة.

أما الذي يتوكل على الله ويبذل الأسباب التي هدى الله إليها فهو المؤمن المهتدي الموفق المتبع لرضوان الله جل وعلا.

والعبد لا يُطالَب من الأسباب إلا بما يستطيع كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

فإذا بذل العبد ما يستطيع من الأسباب وتوكل على الله فقد حقق التوكل وصدق في الرغبة وكان موعوداً وعداً لا يتخلف بتحقيق مطلوبه أو أفضل منه .

فإن غلبه أمر بعد ذلك أو حصل له ما يكره من المصائب التي يقدرها الله عز وجل عليه ابتلاء واختباراً فهو غير ملوم، بل هو موعود بأن يعوضه الله خيراً مما فاته، وأن يثيبه على ما أصابه ثواباً عظيماً .

قال ابن القيم رحمه الله: (سرُّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده؛ فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: (توكلت على الله) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به؛ فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: (توكلت على الله) مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله: (تبت إلى الله) وهو مصر على معصيته مرتكب لها!!).

وخلاصة القول أن من عقل معنى التوكل على الله وفقهه حق الفقه سعد في الدنيا والآخرة.

أقسام الناس في التوكل

التوكل عبادة عظيمة من أجل العبادات وجامع لعبادات عظيمة فمن صرفه لغير الله تعالى فلا شك في كفره وشركه وظلمه وضلاله.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣] فقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢﴾ [الإسراء: ٢].

-وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: ٢٩].

-وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٩].

-وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: ١٢].

-وقال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣-٤].

وقال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب).

فهو عبادة من صرفها لغير الله عز وجل فهو مشرك كافر، وإذا أردت أن تعرف معنى التوكل الشركي فانظر إلى حال المشركين الذين ذمهم الله عز وجل؛ وكيف توكلوا على آلهتهم التي يدعونها من دون الله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر وفي الشفاعة وغيرها.

وهذا مشاهد معروف لمن عرف أحوال المشركين اليوم وخالط بعضهم؛ فإنه يسمع منهم ما يدل على توكلهم الشركي على ما يعبدونه من دون الله من الأولياء والجن وغيرهم.

فهؤلاء أصحاب التوكل الشركي كفار خارجون عن ملة الإسلام والعياذ بالله؛ وأصحاب هذا القسم لم يحققوا الدرجة الأولى من درجات العبودية لله تعالى.

والقسم الثاني: الذين لم يصرفوا هذه العبادات لغير الله جل وعلا؛ لكنهم وقعوا في التفريط في واجبات التوكل ولم يحققوه؛ إما بضعف اعتماد القلب على الله لغلبة الغفلة والتعلق بالأسباب على القلب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله وحده، أو بالتفريط في الأسباب الواجبة.

وهذا حال من يسميهم العلماء «عصاة الموحدين»؛ وهم أصحاب الكبائر من المسلمين.

والقسم الثالث: الذين حققوا التوكل على الله عز وجل؛ بتفويض الأمر إليه، وبذل الأسباب التي هدى الله عز وجل إليها، وهذه حال المؤمنين الأتقياء.

ثم هم على درجات متفاضلة في التوكل تفاضلاً كبيراً بحسب ما يقوم في قلوبهم من أعمال العبادة لله جل وعلا، وبحسب ما يتبعون من هدى الله جل وعلا.

أحكام المخالفين في التوكل

إذا تبين ما تقدَّم علمنا أن التوكل عبادة من أجل العبادات فمن صرفه لغير الله تعالى فهو مشرك كافر خارج عن دين الإسلام والعياذ بالله؛ فمن توكل في جلب النفع ودفع الضر على أحد غير الله جل وعلا وصرف له ما تقتضيه عبادة التوكل من أعمال العبادة فلا شك في كفره.

- أما الاعتماد على الأسباب من الأشخاص والأعمال وغيرها فإن كان في القلب نوع تعلق بالسبب وتذلل له مع اعتقاده أن النفع والضر بيد الله وحده؛ فهو شرك أصغر من شرك الأسباب كما سبق بيانه في نظائره.

- وأما بذل السبب بلا تعلق قلبي بالمخلوق فهذا ليس بشرك، ويكون حكمه على حسب ما يترتب عليه فالاعتماد على الأسباب في أمر مباح حُكْمُه الإباحة، والاعتماد عليها في أمر محرم حُكْمُه التحريم، وهكذا في نظائر ذلك.

الاستعانة

معنى الاستعانة

الاستعانة هي طلب الإعانة على تحصيل نفع يرجى حصوله، وهذا الطلب يكون بالقلب والقول والعمل.

والاستعانة عند الإطلاق تشمل الاستعاذة والاستغاثة؛ فهي أوسع هذه المعاني الثلاثة، لأن حقيقة الاستعاذة طلب الإعانة على دفع مكروه، والاستغاثة هي طلب الإعانة على تفريج كربة.

فالاستعانة بابها واسع وهي من أعظم العبادات وأجلها، ولذلك جُعلت قسيمةً العبادة في سورة الفاتحة وهي من العبادة لأهميتها فقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فالاستعانة بمعناها العام تشمل الدعاء والتوكل والاستعاذة والاستغاثة والاستهداء والاستنصار والاستكفاء وغيرها.

وبيان ذلك أن كل ما يقوم به العبد من قول أو عمل يرجو به تحصيل منفعة أو دفع مفسدة فهو استعانة.

وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالى لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته، فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها، ومحتاج إلى تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه وستر عيبه وحفظه من الشرور والآفات وقيام مصالحه وغير ذلك من الحاجات التي لا تنفك عنها لحظة من لحظات حياته، وغيرها كثير مما يكثر احتياجه إليه وافتقاره إلى الإعانة عليه.

والعبد حارث همام يجد في قلبه كلَّ وقت مطلوباً من المطلوبات يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه.

والله تعالى هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه.

وهذا أمر تكرر تأكيده في القرآن العظيم في مواضع كثيرة:

منها: قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام: ١٧].

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢٠-٢١].

فالرزق هو جلب النفع، والنصر هو دفع الضر.

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] وتقديم الظرف للحصر.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

قال ابن القيم رحمه الله: (﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كلَّ شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يُرَد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها؛ فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه؛ فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يحب لأجله؛ فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله؛ فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه؛ فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢] فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقرُّ ولا يطمئنُّ ولا يسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد؛ فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين؛ فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمته ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد)ا.هـ.

والمقصود أنه لا يحصل لعبد نفع في أمر من أمور دينه ودنياه إلا بالله جل وعلا، فهو المستعان وحده على كل ذلك.

وكل سبب من الأسباب التي يبذلها العبد لتحقيق النفع أو دفع الضر لا يستقل بالمطلوب، فلا يوجد سبب مستقل بالمطلوب، بل لا بد أن يكون معه سبب مساعد ولا بد معه أيضاً من انتفاء المانع، ولا يكون كل ذلك إلا بإذن الله جل وعلا.

فمن أبصر هذا حقيقةً أسلم قلبه لله جل وعلا، وعلم أنه لا يكون إلا ما يشاء الله، وأن ما يطلبه من خير الدنيا والآخرة لا يناله إلا بإذن الله وهدايته ومشيئته، وأن لنيل ذلك أسباباً هدى الله إليها وبيَّنها.

فيقوم في قلبه أنواع من العبودية لله جل وعلا من المحبة والرجاء والخوف والرغب والرهب والتوكل وإسلام القلب له جل وعلا والثقة به وإحسان الظن فيه؛ ويحصل في قلب المؤمن بسبب ذلك من السكينة والطمأنينة والبصيرة ما تطيب به حياته وتندفع به عنه شرور كثيرة وآفات مستطيرة.

درجات الناس في العبادة والاستعانة

والناس في العبادة والاستعانة على أقسام فأفضلهم الذين أخلصوا العبادة والاستعانة لله تعالى فحققوا ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وهؤلاء بأفضل المنازل؛ فإنهم استعانوا بالله تعالى على عبادة الله كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاة: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وقد فقه معاذ بن جبل هذا الحديث أحسن الفقه؛ ففي الصحيحين من حديث أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذاً إلى اليمن فقال: «**ادعوا الناس، وبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا**».

قال: فكان لكل واحدٍ منا قبةٌ نزلها على حِدَةٍ.

فأتى معاذٌ أبا موسى وكانا يتزاوران..

ثم جلسا يتحدثان فقال معاذ: يا أبا موسى كيف تقرأ القرآن؟

قال: أتفوَّقُه تفوقاً على فراشي وفي صلاتي وعلى راحلتي.

ثم قال لمعاذ: كيف تقرأ أنت؟

قال: سأنبئك بذلك؛ أما أنا فأنام ثم أقوم فأقرأ فأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي).

وهذا أمر قد يغفل عنه كثير من الناس؛ فإن من أخلص قلبه لله جل وعلا جعل ما يفعله من المباحات سبباً للتقوي على طاعة الله جل وعلا وحسن عبادته حتى تكون حياته كلها لله كما قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والمسلمون يتفاضلون في هاتين الصفتين تفاضلاً عظيماً فهم على درجات فيهما لا يحصيهم إلا من خلقهم، فمن حقق إخلاص العبادة والاستعانة فهو سابق بالخيرات بإذن ربه.

ويكون لدى بعض الناس ضعف في إخلاص العبادة، وضعف في إخلاص الاستعانة.

والتقصير في إخلاص العبادة تحصل بسببه آفات عظيمة تحبط العمل أو تنقص ثوابه كالرياء والتسميع وابتغاء الدنيا بعمل الآخرة، وأخف من هؤلاء من يؤدي هذه العبادات لله لكن لا يؤديها كما يجب؛ فيسيء فيها ويخلّ بواجباتها لضعفٍ في إخلاصه وصدقه وإيمانه.

والتقصير في الاستعانة تحصل بسببه آفات عظيمة من الضعف والعجز والوهن فإن أصابه ما يحِبُّ فقد يحصل منه عجب واغترار بما يملك من الأسباب، وإن أصابه ما يكره فقد يبتلى بالجزع وقلة الصبر.

وكلا التقصيرين لا يحصل لصاحبه طمأنينة قلب ولا سكينة نفس ولا تطيب حياته حتى يحقق هذين الأمرين؛ إخلاص العبادة وإخلاص الاستعانة.

تحقيق الاستعانة

وتحقيق الاستعانة يكون بأمرين:

أحدهما: التجاء القلب إلى الله تعالى، والإيمان بأن النفع والضر بيده جل وعلا، وأنه مالك الملك ومدبر الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع عليم وقريب مجيب، فيستعين به راجياً إعانته.

والآخر: بذل الأسباب التي هدى الله إليها وبينها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

وهذان الأمران أرشد إليهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

- فالحرص على ما ينفع عام في أمور الدين والدنيا.
- والاستعانة بالله تكون بطلب عونه وتأييده وتحقيق ما ينفع.
- والعجز هو ترك بذل السبب مع إمكانه؛ فنُهي عنه.

وقد رتَّب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات الثلاث ترتيباً بديعاً لتوافق الحال؛ فإن معرفة المطلوب ومعرفة نفعه والحرص عليه سابقة للاستعانة على تحقيقه، ثم تكون الاستعانة مرتبة بعدها؛ فيطلب العبد العون من ربه جل وعلا على تحقيق ما ينفعه وأن يهديه لتحصيله من الوجه الذي يحبه ويرضاه، ثم يبذل الأسباب التي أذن الله بها.

- فإذا قام العبد بهذه الأمور فقد حقق الاستعانة.

فإن تحقق له ما يطلب كان من الشاكرين، وإن أصابه ما يكره من فوات مطلوبه قال: «**قدَّر الله وما شاء فعل**» فصبر لذلك وأحسن الظن بالله، ورجا أن يعوضه ربُّه خيراً فيما فاته، والله تعالى كريم لا يضيع أجر العاملين، ولا يخيب رجاء من صدق الرجاء فيه.

وأما ترك الأخذ بالأسباب فهو عجز مذموم، كما أن تعلق القلب بها شرك مذموم.

أنواع الاستعانة بالله

- وأفضل أنواع الاستعانة وأكملها وأحبها إلى الله الاستعانة بالله على طاعة الله، وكلما كان المؤمن أشد حباً لله ورجاء في فضله وخوفاً من سخطه وعقابه كان على هذا الأمر أحرص، وعرف أن حاجته إليه أشد.

والمؤمن مأمور بأن يستعين الله تعالى في جميع شؤونه حتى في شسع نعله فإنه إذا لم ييسره الله لم يتسير، وقد روي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم مختلف في صحته، ومعناه صحيح، وقد أمر الله تعالى بالسؤال من فضله فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢] وهو يشمل فضله في الدنيا والآخرة.

لكن من الناس من يغلب عليه الاستعانة بالله لتحقيق المطالب الدنيوية حتى تشغله عن المطالب الأخروية فإن تحقق له ما يطلب من أمور الدنيا فرح به، وإن حُرمه ابتلاء واختباراً جزع وسخط؛ فهذا النوع في قلوبهم عبودية للدنيا، وقد تُعجَّل لهم مطالبهم فتنة لهم ثم تكون عاقبتهم سيئة؛ فإنهم شابهوا الكفار فيما ذمهم الله به؛ فقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢١].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وأصل بلاء الكفار إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢-٣]. وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

والناس في إرادة الدنيا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة إيثاراً مطلقاً فهي همهم ولأجلها عملهم؛ فهؤلاء هم الكفار الذين عناهم الله تعالى في الآيات السابقة، ويلتحق بهم كل من ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام بسبب إيثاره للحياة الدنيا، والعياذ بالله.

القسم الثاني: الذين لديهم نوع إيثار للحياة الدنيا حملهم على ترك بعض الواجبات واقتراف بعض المحرمات مع بقائهم على أصل الدين من التوحيد واجتناب نواقض الإسلام؛ فهؤلاء هم أهل الفسق من المسلمين.

القسم الثالث: الذين استعانوا بأمور الدنيا على ما ينفعهم في الآخرة، فأخذوا منها ما يستعينون به على إعفاف أنفسهم والتقوي على طاعة الله؛ فهؤلاء هم الناجون السعداء.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وأصحاب القسم الثالث هم بأفضل المنازل، وأسعد الناس بالحياة الطيبة لمن أبصر حقائق الأمور؛ فإنهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا ابتلاء وامتحاناً صبروا ورضوا؛ ثم كانت عاقبتهم حسنة؛ مع ما يؤيدهم الله به من معاني معيته للصابرين والمحسنين، وما يمنعهم الله إياه يمنحهم خيراً منه.

أقسام الاستعانة

قاعدة هذا الباب أن الاستعانة على قسمين:

القسم الأول: استعانة العبادة، وهي التي يصحبها معان تعبدية تقوم في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغيره فهو مشرك كافر، وقد قال الله تعالى فيما علمه عباده المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وتقديم المعمول يفيد الحصر، فيستعان بالله جل وعلا وحده، ولا يستعان بغيره، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وكذلك استعاذة العبادة واستغاثة العبادة فإنه لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل؛ فمن صرفها لغير الله عز وجل فهو مشرك شركاً أكبر مخرج عن الملة والعياذ بالله، كما يفعله عباد القبور والأولياء فإنه يقوم في قلوبهم من العبوديات لمن يدعونهم ويستعينون بهم ويستعيذون بهم ويستغيثون بهم ما هو من أعظم الشرك والكفر بالله جل وعلا.

والاستعانة ملازمة للعبادة فكل عابد مستعين؛ فإنه لم يعبده إلا ليستعين به على تحقيق النفع ودفع الضر.

القسم الثاني: استعانة التسبب، وهو بذل السبب رجاء نفعه في تحصيل المطلوب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فهذه الاستعانة بهذا السبب ليس فيها معان تعبدية، وهي على أقسام في حكمها بحسب حكم السبب والغرض منه:

فمنها الاستعانة المشروعة وهي بذل الأسباب المشروعة لتحقيق المطالب المشروعة؛ فهذه قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة بحسب المأمور به، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالاستعانة هنا بالصبر والصلاة هي من باب استعانة التسبب؛ فالصبر والصلاة سببان عظيمان للاستقامة على دين الله جل وعلا والفوز بفضله ورضوانه وهما أصل كل خير، وإيضاح ذلك يستدعي بسطاً ليس هذا موضعه وقد تكلم فيه جماعة من أهل العلم وأفرد شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ورسالته تحتاج إلى شرح وإيضاح.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ستكون فِتَن، القاعِدُ فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السَّاعي، مَنْ تَشَرَّفَ لها تَسْتَشْرِفْهُ، ومَن وَجَدَ مَلْجأ أو مَعاذا فَلْيَعُذْ به**».

وفي رواية عند مسلم: «**فليستعذ**» ومعناهما واحد.

والمقصود الاستعاذة بهذه الأسباب من الوقوع في تلك الفتن؛ فهي استعاذة تسبب، والكلام في الاستعاذة والاستعانة واحد.

وكالاستعانة على إعفاف النفس بالكسب الطيب والزواج، والاستعانة على دفع المرض بالدواء واختيار الطبيب الحاذق ونحو ذلك فهذه استعانة تسبب مشروعة وقد تجب في أحوال.

لكن إن تعلق القلب بالسبب كتعلق بعض المرضى بالأطباء والرقاة؛ فهذا من شرك الأسباب كما سبق إيضاحه.

- وأما الاستعانة على تحقيق غرض محرم فغير جائزة كالاستعانة بالحيل المحرمة على الكسب غير المشروع.

والمقصود أن استعانة التسبب حكمها بحسب حكم السبب وحكم الغرض فإذا كان الغرض مشروعاً والسبب مشروعاً كانت الاستعانة مشروعة.

وإذا كان الغرض محرماً أو كان السبب محرماً لم تجز تلك الاستعانة.

فإن تعلق القلب بالسبب كان ذلك شركاً أصغر من شرك الأسباب.

الباب التاسع: الخشية والإنابة

تمهيد

الخشية والإنابة عملان جليلان من أجلّ أعمال القلوب وأسماها، وأحبها إلى الله وأدناها، وأعظمها بركة، وأكرمها منزلة، وأحسنها عاقبة، وهما قرينان لا يفترقان، وشفيعان مشفَّعان، بل هما للتوفيق والهداية بابان لا يُغلقَان، ودليلان لا يَضِلان، من كان له حظ منهما أدركته الرعاية والوقاية، وسُلِكَ به في زمرة المهتدين، وكان أقرب إلى الاجتباء والاصطفاء، وفُتِحَ له بهما من خزائن الفضائل والبركات ما لا يقدر قدره إلا الله، والله واسع عليم.

ومن تدبر كتاب الله تعالى ورُزِق حسن فهم القرآن عَلِمَ أن لهذين العملين شأناً عظيماً، وقَدْراً كريماً، فهما يجمعان أنواعاً من الأعمال والخصال المحبوبة لله تعالى، وقد جمعهما الله في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣١-٣٥].

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ نكر المزيد للتشويق إليه، وقد رُوي عن جماعة من الصحابة والتابعين أن المزيد هو رؤية المؤمنين ربَّهم جل وعلا، وهذا المزيد أفضل النعيم وأجلّه، نسأل الله تعالى من فضله.

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عدَّى الفعل بـ(إلى) لتضمنه معنى الإنابة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يس: ١١] واتباع الذكر هو حقيقة الإنابة.

بل إن أصحاب الخشية والإنابة هم أهل الخطاب الخاصّ في القرآن الكريم، فهو للثقلين عامة، ولأهل الخشية والإنابة خاصة؛ فلهم فيه امتيازٌ لا يشارَكون فيه، وفضل لا يُزاحَمون عليه، من التوفيق لحسن الفهم والتذكر، والاعتبار والتبصر، والدلالة على ما يتبعون به رضوان الله جل وعلا، وينالون به فضله ورحمته وبركاته في الدنيا والآخرة.

فالخشية والإنابة دليل خاص إلى الفضائل العظيمة والخزائن الكريمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه، يبصرونها بصراً لا يضلّون فيها ولا يُغالَطون، وسبب ذلك ما في قلوبهم من تعظيم الله جلَّ وعلا والإقبال عليه وعلى كتابه؛ فكان من إكرام الله لهم أن أقبل عليهم بخطابه الخاص؛ فالناس يقرؤون القرآن، وهؤلاء يقرؤونه، ولكن شتان بين القراءتين!!

فأهل الخشية والإنابة هم أهل العلم الخاص الخالص؛ لأنهم يدركون ما لا يدركُه غيرهم، ويفهمون ما لا يفهمه غيرهم، ويعرفون معرفةً لا تحصل لغيرهم، معرفةً لها شأنها وبركاتها وفضائلها.

قد يكون أحدهم أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشتغل بما اشتغل به كثير من المتفقهة، لكنه عند الله من أهل العلم، وفي ميزان الشريعة من أهل العلم، وعند الرعيل الأول والسلف الصالح هو العالِمُ الموفَّق.

وهم بما يُوفَّقُون إليه من حسن التذكر والتفكر والفهم والتبصر يعلمون علماً عظيماً يُفني بعض المتفقهة والأذكياء من غيرهم أعمارَهم ولَمَّا يحصّلوا عُشرَه.

ذلك بأنهم يرون ببصائرهم ما يحاول غيرهم استنتاجه، ويصيبون كبد الحقيقة، وغيرهم يحوم حولها، ويأخذون صفو العلم وخلاصته، وغيرهم يفني وقته ويضني نفسه في البحث والتنقيب؛ فيبعد ويقترب من الهدى بحسب ما معه من أصل الخشية والإنابة.

فكانوا بما عرفوه وتيقنوه وانتفعوا به أهلَ علم نافع، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

فجعلهم أهلَ العلم، وغيرُهم قَسِيمُهم الذين لا يعلمون؛ ونفي العلم هنا فيه وجهان: نفي حقيقته ونفي فائدته.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه - وهو من أهل هذا العلم - لجبير بن نفير رحمه الله: «**إن شئتَ لأحدثنَّك بأوَّل علم يرفع من الناس! الخشوع، يوشك أن تدخل مسجدَ جماعةٍ فلا ترى فيه رجلا خاشعا!**» رواه الدارمي والترمذي وغيرهما.

فسمَّى الخشوع علماً، وهو كذلك، لأن الخاشع مقبل بقلبه على كلام ربه معظم له، كثير التفكر فيه والتدبر له؛ فيوفق لفهمه والانتفاع به انتفاعاً لا يحصّله من يقرأ مئات الكتب، وهو هاجر لكتاب ربه جل وعلا، ولا من يقرأ القرآن وصدره ضائق بقراءته يصبّر نفسه عليه، ويفرح ببلوغ آخر السورة لينصرف إلى دنياه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**كفَى بخشية الله علماً، وَكفى بالاغْترارِ به جهلًا**» رواه ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني في الكبير والَبيهقي في شعب الإيمان.

ورُوي نحوه عن الفضيل بن عياض وابن المبارك، رواهما ابن الأعرابي في معجمه وغيرُه.

وقد فُسّرت الحكمة بالخشية في قول الله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الربيع بن أنس البكري في قوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ الآية: قال: «**الحكمة: الخشية، لأن رأس كل شيء خشية الله**».

وقرأ: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]». هذه رواية ابن جرير.

ورواه ابن أبي حاتم موصولاً إلى أبي العالية الرياحي قال: «**الحكمة: الخَشية؛ فإنَّ خشية الله رأس كل حكمة**».

وقال الطحاوي في شرح مشكل الآثار كلاماً خلاصته أن أهل العلم الذين يُسمَّون في الشريعة علماء على صنفين:

الصنف الأول: الفقهاء في الكتاب والسنة، الذين تعلموا الأحكام والسنن وعلَّموها، وهم الذين يُرحل إليهم في طلب العلم وفقه مسائل الأحكام في العبادات والمعاملات والقضاء.

والصنف الآخر: أصحاب الخشية والخشوع على استقامة وسداد.

وأهل الخشية والإنابة بما يجعل الله لهم من النور والفرقان الذي يميّزون به بين الحق والباطل، والهدى والضلالة، والرشاد والزيغ، وما يحبه الله وما يبغضه: يحصل لهم من اليقين والثبات على سلوك الصراط المستقيم ما هو من أعظم ثمرات العلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال عبد الرحمن بن زيد: «**فرقان يفرق في قلوبهم بين الحق والباطل، حتى يعرفوه ويهتدوا بذلك الفرقان**». رواه ابن جرير.

وأهل الخشية والإنابة أعظم الناس حظاً بهذا الفرقان؛ وهو فرقان في القلوب التي استنارت بنور الله تعالى فمشت به.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

ومن تأمّل وصاياهم وأخبارهم علم من فقههم ومعرفتهم وبصيرتهم ما يدلّه على هذا المعنى الجليل.

فهذا الربيع بن خثيم الثوري الذي كان عبد الله بن مسعود إذا رآه مقبلاً قال: «**بشّر المخبتين؛ أما والله لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبَّك**». رواه ابن أبي شيبة.

وكان يقول له: «**ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين**».

له وصايا جليلة نافعة تدل على بصيرته وعلمه، ومن ذلك وصيته لبكر بن ماعز التي رواها ابن أبي شيبة أيضاً من طريق سفيان بن سعيد الثوري عن أبيه عن بكر بن ماعز أن الربيع بن خثيم قال له:

«**يا بكر، اخزن عليك لسانك إلا مما لك ولا عليك، فإني اتهمت الناس على ديني، أطع الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك فكله إلى عالمه، لأنا عليكم في العمد أخوف مني عليكم في الخطأ، ما خيركم اليوم بخيرٍ، ولكنه خيرٌ من آخر شر منه، ما تتبعون الخير كل اتباعه، ولا تفرون من الشر حق فراره، ما كل ما أنزل الله على محمدٍ أدركتم، ولا كل ما تقرءون تدرون ما هو.**

السرائر اللاتي يخفين على الناس هن لله بَوَادٍ، ابتغوا دواءها».

ثم يقول لنفسه: «**وما دواؤها؟ أن تتوب ثم لا تعود**»ا.هـ.

فتأمل هذه الوصايا والحكم التي تدل على ما وراءها من العلم الخاص الخالص الذي يفيض رحمة وفقهاً ونصحاً لا يكدره تكلف، ولا يشينه تعنيف ولا إزراء بالمنصوح.

قال الفقيه ابن مفلح الحنبلي في كتابه الآداب الشرعية: (عن أحمد أنه قال: كان معروف الكرخي من الأبدال مجاب الدعوة وذكر في مجلس أحمد فقال بعض من حضر: هو قصير العلم.

فقال له أحمد: أمسك عافاك الله! وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروفٌ؟!

وقال عبد الله: قلت لأبي: هل كان مع معروفٍ شيءٌ من العلم؟

فقال لي: يا بني كان معه رأس العلم خشية الله تعالى)ا.هـ.

الخشية

معنى الخشية

الخشية: هي شدة الخوف المبني على العلم، وبذلك فُرق بينها وبين الخوف وإن كان بينهما تقارب في المعنى.

فالخشية فيها معنى الخوف الشديد المبني على العلم بعظمة المخشي منه والهيبة منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وبين العلم الصحيح والخشية تلازم، ولا يكون المرء عالماً حقاً حتى يكون من أهل الخشية، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

إخلاص الخشية

إفراد الله بالخشية من سمات الأنبياء كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وأمر الله تعالى عباده المؤمنين بإفراده بالخشية فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]: (فَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلَّـهِ وَالرَّسُولِ وَجَعَلَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّـهِ وَحْدَهُ)ا.هـ.

حقيقة الخشية

الخشية تاج أعمال القلوب، وعنوانها الجامع، وأما **حقيقتها فهي عمل قلبي جامع لمعانٍ كثيرة قائمة على أصلين:**

الأصل الأول: العلم.

والأصل الثاني: التقوى.

فالخشية إذا صحَّت كانت دليلاً على علم صاحبها وتقواه؛ وهذان الأمران قد جمعهما إمام المتقين صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**».

فكان بذلك أخشى الناسِ لله جل وعلا، كما في الرواية الأخرى في الصحيحين أيضاً: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي**».

وقيام الخشية على أصلي العلم والتقوى ظاهر لمن تأمل النصوص والآثار والواردة في شأن الخشية وأحوال أهلها.

واجتماع العلم والتقوى في قلب العبد يثمر له أنواعاً من الأعمال التعبدية الجليلة، ولذلك كانت الخشية كالتاج لأعمال القلوب لكثرة ما تجمع من الأعمال القلبية من التذلل والمحبة والتعظيم والخضوع والانقياد والخوف الرجاء والرغب والرهب والحياء والإجلال والمراقبة والمحاسبة والهيبة والأدب مع الله عز وجل.

فضائل الخشية

لخشية الله تعالى فضائل عظيمة، وبركات كثيرة، ومن تأمل ما ورد فيها من نصوص الكتاب والسنة علم أن لها شأناً عظيماً عند الله جل وعلا.

وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين بأنهم يخشونه بالغيب، ووعدهم على هذه الخشية ما وعدهم من المغفرة والأجر الكريم والفضل العظيم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك: ١٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق: ٣١-٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٢].

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله...**» فذكرهم ومنهم: «**رجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

قال النووي: (فيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالى)، **وهذا المعنى قد جاء منصوصاً عليه في أحاديث أخرى:**

منها: ما رواه أحمد وابن أبي شيبة والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في منخري امرئ أبداً**».

قال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

ومنها: ما رواه الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان من حديث عطاء الخراساني عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**عينان لا تمسهما النار: عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله**».

وروي نحو هذا الحديث مرفوعاً عن عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وأبي سعيد الخدري وأبي ريحانة والزبير بن عبد الله القيسي.

وفي التاريخ الكبير للبخاري والمعجم الأوسط للطبراني من حديث أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**عينان لا تريان النار: عين بكت وجلا من خشية الله و عين باتت تكلأ في سبيل الله**». وقد صححه الألباني.

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أنس بن مالك وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وعبد الله بن أبي أوفى أنه قال: «**ثلاثٌ مهلكاتٌ: شح مطاعٌ، وهوًى متبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه، وثلاثٌ منجياتٌ: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضا والغضب**».

وهذه الروايات قد أحسن الألباني رحمه الله بيان طرقها وتخريجها في السلسلة الصحيحة، وخلَص إلى تحسين الحديث بمجموع تلك الطرق.

وروى عبد الرزاق في تفسيره عن سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد أو غيره في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا ...﴾ [ص: ٣٩]، قال: قال سليمان: «**أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتَوا، وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا؛ فلم نر شيئا أفضل من خشية الله في الغيب والشهادة، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الرضا والغضب**».

وإخلاص عبادة الخشية لله تعالى باب عظيم لبركات كثيرة عظيمة لا يقدر قدرها إلا الله جل وعلا.

فهي مفتاح فهم القرآن وتدبره والاعتبار بما فيه، وهي باب التذكر النافع الذي يزداد به اليقين ويرتفع به الإيمان وتزكو به النفس، ويتيسَّر به اتباع الهدى، بل بيَّن الله تعالى أن مقصوده الأعظم من إنزال كتابه هو تذكير أهل خشيته ومخاطبتهم به؛ فهم أحق الناس بهذا الكتاب وأسعد الناس به، والرسالة لهم فيه خاصة وهي للناس عامة، وحسبك بهذا فضلاً وشرفاً عظيماً تشرئب إليه أعناق المؤمنين، طمعاً أن يكونوا من هؤلاء المكرَّمين، وينالوا ما اختصهم الله به من الفضل المبين؛ فيدعوهم ذلك إلى التعرف على أسباب كرامتهم، وهديهم وسمتهم، رجاء أن يكونوا معهم، ويعدوا منهم، ويحشروا في زمرتهم.

قال الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ١-٨].

وقد تقدَّم ذكر آية الزمر.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: ٩-١٠] وهذا وعد من الله لأهل خشيته أنهم سيذكرون وينتفعون بكتابه العظيم.

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾. أي: سَيَتَّعِظُ بما تُبَلِّغُه يا محمدُ، مَن قَلْبُه يَخْشَى اللهَ ويَعْلَمُ أنَّه مُلاقيه).

فالذي تقوم في قلبه خشية العبادة لله تعالى من شدة محبته لله، وتعظيمه إياه، وانقياده لأمره، وتصديقه لوعده، ورجائه للقاء الله ورغبته في فضله وإحسانه، ورهبته من سخطه وعقابه، وخوفه من أن يتخلى عنه ربه ووليه إذا هو ارتكب ما يسخطه، مَنْ قامت في قلبه هذه المعاني الجليلة كان من أوفر الناس حظاً وانتفاعاً

بالقرآن العظيم، لأنه يقرأ القرآن ويسمعه وقلبه معظِّمٌ لله تعالى معظِّم لكلامه معظم لما فيه من الهدى، يفرح بما يفتح الله له من فهمه ويستبشر، ويعرف لما فتح الله عليه من ذلك قدره وفضله، ويتطلع إلى مزيد من الهدى الذي يتعرَّف به على أسباب التقرب إلى الله تعالى والفوز برضوانه وفضله العظيم، والسلامة من سخطه وعقابه.

ومن كان هذا حاله فهو موعود بما يسره ويرضيه، من الهداية لما يقربه إلى الله تعالى ويدنيه، ويسعده في الدنيا والآخرة ولا يشقيه.

وتأمَّلْ وصفَ الله تعالى حالَ أهلِ خشيته عند تلاوتهم لكتاب ربهم أو سماعهم لآيات الله تتلَى عليهم، وكيف أنهم تفطنوا إلى أنهم المعنيّون أولاً بما فيه من العبر والبينات، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

ومن تأمل العبر والآيات البينات التي جمعها الله لأهل خشيته وبيَّنها لهم وأرشدهم إلى التأمل فيها والاعتبار بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦] عَلِمَ أن أهل الخشية خطاباً خاصاً في القرآن الكريم لأنهم هم أهل التذكر والتفكر، وهم أهل الاعتبار والتبصر، وهم أحرص الناس على الهداية وأعظمهم فرحاً بما يقربهم من الله تعالى ويدنيهم منه، وأشدهم حرصاً على التحرز مما يسخطه جل وعلا، لأنهم على يقين تام بأن فوزهم وفلاحهم ونجاتهم مداره على رضوان الله تعالى عنهم، وأنه ليس بينهم وبين الله سبب يتمسكون به إلا ما يرشدهم إليه من العمل الصالح واتباع هداه جل وعلا، فهم العلماء على الحقيقة وهم أولوا الألباب، كما قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا

﴿وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: ٩].

فحاول أن تصحّح هذه المعاني الجليلة في قلبك؛ ثم تفكَّر في هذه الآيات العظيمة وتدبَّر ما فيها من دلائل الخطاب الخاص لأهل الخشية وما ضرب الله لهم من الأمثال البيّنة التي يتعظون بها ويعتبرون:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: ٢٤].

فجمع الله لهم في هذه الآيات البينات مواضع جليلة للاعتبار والتفكر وضرب لهم الأمثال التي تنبههم على ما وراءها، فأرشدهم إلى التفكر في آياته الكونية المخلوقة وآياته المتلوة، فهذا الماء الذي ينزل من السماء هو ماء واحد وتخرج به ثمراتٌ مختلف ألوانها؛ فكذلك وحي الله تعالى المنزل هو وحي واحد ولكن انظر إلى اختلاف آثاره في قلوب الناس وأعمالهم؛ فمنتفع ومحروم، ومستقل ومستكثر، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

وسرِّح نظرك في دلائل هذه الآيات العظيمة وحسن التناسب بين ذكر الآيات الكونية والآيات المتلوة، ومدح أهل الخشية الذين هم العلماء على الحقيقة، وغيرهم أهل جهالة وإن قرؤوا ما قرؤوا.

ثم تأمل ما أعده الله لأهل خشيته من الفضائل العظيمة؛ فقد وعدهم أن يوفيهم أجورهم ويزيدهم زيادة من عنده تليق بفضله وكرمه سبحانه لم يبينها لهم بل أخفاها لهم ليتشوقوا إليها، وأخبرهم أنه غفور شكور، فيغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم ويفتح لهم أبواب الرجاء في مغفرته وعفوه وتجاوزه، وهو تعالى شكور لا يضيع لهم أي عمل صالح يعملونه ولو كان مثقال ذرة، بل يقبله منهم وينميه لهم ويضاعف لهم مثوبته.

وتأمل على هذا النحو قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٥-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

وهذا وعد من الله لعباده الذين يخشونه بالغيب أن يغفر لهم ذنوبهم، وهذا يدلك على أنه ليس من شرط الذين يخشون ربهم السلامة من الوقوع في المعاصي والآثام، بل قد يقعون في بعضها، وهم على ذلك يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، ويستغفرون ربهم ويُتْبِعون السيئةَ الحسنة ويتوبون إلى الله ويستغفرونه وبذلك مدحهم الله وأثنى عليهم ووعدهم بمغفرة ذنوبهم.

وقد جعل الله من اجتنب الكبائر والفواحش من أهل الإحسان كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣١-٣٢].

فليس من شرط أهل الخشية عصمتهم من الذنوب الخطايا، بل هم من جملة البشر ينسون ويغفلون ويخطؤون ويذنبون، ويغان على قلوبهم، لكنهم يسرعون الإنابة إلى الله تعالى، ويجتنبون كبائر الإثم، ولا يتكلفون، ولا يراؤون، ولا يتزينون بما ليس فيهم.

وأنت إذا تأملت هذا المعنى جيداً وجدت أنَّ من سلم من الكبائر فهو من أهل الإحسان، ذلك أن سيئاته سوى الكبائر تُغفر له إذا اجتنب الكبائر كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١].

ومن كُفِّرَت عنه سيئاته قدم على الله تعالى وليس له سيئة يُعاقَب عليها، وما الناس إلا محسن أو مسيء أو خالط إحسانه بالإساءة.

والذي يقدُم على الله يوم القيامة وليس له سيئة فهو من أهل الإحسان الخالص، نسأل الله من فضله.

قالت عائشة رضي الله عنها: «**إنكم لن تلقوا الله عز وجل بشيء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سرَّه أن يُدْرِكَ الدائب المجتهد، فليكفَّ نفسه عن الذنوب**». رواه ابن المبارك وهناد بن السري وأحمد بن حنبل وأبو داوود السجستاني في كتب الزهد لهم.

أسباب الخشية

أسباب الخشية ثلاثة جامعة لمعانٍ كثيرة:

السبب الأول: محبة الله جل وعلا، فصدق المحبة يحمل على الخشية من الانقطاع عن الله جل وعلا والحرمان من رضوانه، ولذلك إذا وجد أصحاب هذه المحبة في نصوص الكتاب والسنة أن من عقوبة بعض الذنوب أن الله لا يكلم فاعليها ولا ينظر إليهم أورثهم ذلك خشية خاصة يجدونها في قلوبهم لما

وقر فيها من معرفة الله جل وعلا ومحبته والشوق إلى لقائه، واليقين بأن الحرمان من تكليمه والنظر إليه عقوبة عظيمة لا يحتملها من صدقت محبته لله جل وعلا.

والسبب الثاني: الرجاء، فإنَّ صدق الرجاء يحمل على الخشية من فوات ثواب الله عز وجل وفضله العظيم.

والسبب الثالث: الخوف، فالخوف الصادق يحمل على خشية التعرض لسخط الله وعقابه.

فعادت أسباب الخشية إلى أصول العبادات القلبية الثلاثة: (المحبة والرجاء والخوف) فهي أركان العبادة، وعليها مدراها، وصلتها - إذا صحَّت - بالخشية وثيقة كما تقدَّم.

وبهذا تعلم شيئاً من الفرق بين الخشية والخوف، وأن خشية العبادة لها لوازم تعبدية من المحبة والخوف والرجاء.

وقول الله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ١٠﴾ [الأعلى: ١٠] يدل على أنواع التذكر الثلاثة:

١: التذكر الذي يحمل على محبة الله جل وعلا، ومحبة لقائه والتقرب إليه من تذكر صفات الله عز وجل وكرمه وفضله وإحسانه.

٢: والتذكر الذي يحمل على رجاء فضل الله عز وجل وحسن ثوابه؛ فإنه إذا تذكر ما أعده الله لعباده من الثواب والفضل العظيم دعاه ذلك إلى الازدياد من الأعمال الصالحة لما يرجو من حسن ثوابها.

٣: والتذكر الذي يحمل على الخوف سخط الله تعالى وعقابه، وهذا ما يزجره عن ارتكاب المحرمات والتفريط في أداء الفرائض.

والأصل الجامع لهذه الأصول الثلاثة والمغذي لها هو: العلم؛ فإذا صح العلم بالله وعظم في قلب العبد ازداد نصيبه من الخشية لمعرفته بما يستوجب محبةَ الله تعالى وخوفَه ورجاءَه.

قال ابن رجب رحمه الله: (فلما زادت معرفة الرسول بربه زادت خشيته له وتقواه، فإن العلم التام يستلزم الخشية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فمن كان بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه أعلم كان له أخشى وأتقى، إنما تنقص الخشية والتقوى بحسب نقص المعرفة بالله . وقد خرج البخاري في آخر «صحيحه» عن مسروق قال: قالت عائشة: (**صنع النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ترخص فيه وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم خشية»**)ا.هـ.

فالعلم الصحيح يهدي العبد إلى ربه جلَّ وعلا، وإذا اهتدى العبد إلى ربه وعرفه حق المعرفة خشيه؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧-١٩].

عناية السلف الصالح بالخشية

من الأصول المقررة لطلاب التحقيق في أي علم من العلوم أن عليهم أن يتعرفوا أحوال أئمة ذلك العلم وأساتذته؛ لأنهم أهله وأعرف الناس به، فيلازموا أحياءهم ويقرؤوا سِيَرَ من مات من أئمتهم؛ ليتبيَّنوا طرائقهم ويعرفوا أخبارهم في ذلك العلم، وكيف حصَّلوه وانتفعوا به، وليترسموا هديهم، ويسيروا على نهجهم حتى يكونوا منهم.

ومعرفة أحوال السلف الصالح في مسائل السلوك والعبادات من الأصول المهمة في حسن فهم هذه المسائل واتباع سبيلهم، والسير على طريقتهم؛ وما ابتلينا به في هذا الزمان من كثرة الفتن وقلة المعين، وكثرة الشواغل عن لزوم أهل العلم والخشية، وتقلب القلوب بالفتن وتبدل الأحوال يجعل قراءة سير السلف الصالح وتأملها أكثر أهمية وأعظم نفعاً، ورب خصلة حميدة يكتسبها العبد من سيرة رجل صالح تكون مفتاحاً لخير عظيم تصيبه بركته في دنياه مع ما يرجو من ثواب ذلك وحسن عائدته عليه في آخرته.

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: (سبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي تخلفت من المصنفات فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا ترى فيهم ذا همة عالية فيقتدي به المبتدئ ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، والاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم).

وقال حمدون القصَّار فيما نقله الشاطبي في الاعتصام: (من نظر في سير السلف عرف تقصيره، وتخلّفه عن درجات الرجال).

فقراءة سير السلف الصالح من العلماء وأئمة الدين تثبت السائرين، وتشحذ عزائم المتهاونين، وتبصر الإنسان بمعرفة قدر نفسه، فتعينه على مداواة ما في نفسه من آفات لو استمرت به لأضرته وربما أردته من العجب والغرور والوهن والفتور، واستصعاب معالي الأمور، وكم من سيرة استنزلت عَبرة، وأورثت عِبرة، وتسلى بها محزون، وتبصر بها غافل، وانفتح بها باب من العلم والمعرفة، وتيسر بها سبيل من الهدى وحسن العمل.

ومن أنفع الأشياء لطالب هذا العلم أن يدمن قراءة سير أئمته، ويرتسم أحوالهم.

وسأذكر لك شذرات من أقوال السلف وأحوالهم في شأن خشية الله تعالى لعلها تكون سائقاً ودليلاً يحفزك إلى مزيد من الاطلاع على أخبارهم وآثارهم والانتفاع بوصاياهم:

- قال مغيرة بن سعد بن الأخرم، قال: «**ما خرج عبد الله إلى السوق، فمر على الحدادين، فرأى ما يخرجون من النار إلا جعلت عيناه تسيلان**» رواه ابن أبي شيبة.

عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه.

- وقال أُبَيٌّ بن كعبٍ رضي الله عنه: «**عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبدٍ على سبيلٍ، وسنةٍ ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فمسته النار أبدًا، وليس من عبدٍ على سبيلٍ، وسنةٍ ذكر الله فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرةٍ يبس ورقها، فهي كذلك إذ أصابتها ريحٌ فتحات ورقها عنها إلا تحاتت خطاياه، كما يتحات من هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادًا في سنةٍ وسبيلٍ خيرٌ من اجتهادٍ في غير سنةٍ وسبيلٍ، فانظروا أعمالكم، فإن كانت اقتصادًا واجتهادًا أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم**». رواه الإمام أحمد في الزهد وابن أبي شيبة في مصنفه، وأبو داوود في الزهد، وغيرهم.

- وقال أبو رجاءٍ العطاردي: «**كان هذا المكان من ابن عباسٍ مجرى الدموع، مثل الشراك البالي من الدموع**» رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة وابن أبي شيبة في مصنفه ومحمد بن نصر المروزي وغيرهم.

- وقال محارب بن دثارٍ رحمه الله قال: دخلت على ابن عمر رضي الله عنهما بيته وهو يصلي، فإذا هو يبكي في صلاته، فلما انصرف أقبل عليَّ وعلم أني قد رأيته وهو يبكي، فقال: «**إن هذه الشمس لتبكي من خشية الله، ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**».

- وقال عبد الله بن عمر أيضا: «**لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار**» ذكرهما محمد بن نصر المروزي في قيام الليل.

- وقال ابن الجوزي في صفة الصفوة: (عن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك؛ فكثيراً ما كان يخطر ببالي؛ فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟

إن كان يصلي إنا نصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج!

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلةً نتعشى في بيت إذْ طفئ السراج؛ فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح؛ فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع؛ فقلت في نفسي: (بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذَكَر القيامة).

قال المروذي: وسمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له))ا.هـ.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (روى ابن أبي حاتم عن ابن وهب أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال عمرو يعني ابن دينار (إني ليلة أطوف بالبيت إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكاءه وتضرعه فوقفت لأعرفه فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فانكشف الستور عنه فإذا هو طاووس رضي الله عنه فقال من هذا عمرو قلت نعم أمتع الله بك قال متى وقفت ههنا قال قلت منذ طويل قال ما أوقفك قلت سمعت بكاءك فقال أعجبك بكائي قلت نعم قال وطلع القمر في حرف أبي قبيس قال ورب هذه البنية إن هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب له ولا يسأل عما عمل ولا يجازى به فعجبت أن بكيت من خشية الله وأنا صاحب الذنوب وهذا القمر يبكي من خشية الله)ا.هـ.

وأخبار السلف في هذا الشأن كثيرة مشتهرة، وتعاهد مطالعتها وتذكير النفس بها، يعرّف العبد بتقصيره وقصوره، ويحفزّه إلى سلوك سبيلهم، ولذلك كانت عناية الأئمة بجمع أخبارهم وآثارهم ووصاياهم عناية ظاهرة، وتأمل مصنفات أهل العلم في كتب الزهد والرقائق تجد هذا الأمر ظاهراً جلياً.

درجات الخشية

الخشية على ثلاث درجات، ولكل درجة أحكامها وآثارها:

الدرجة الأولى: درجة أصل الخشية، وهي الخشية التي تحمل العبد على الدخول في الإسلام وعبادة الله وحده لا شريك له واجتناب الشرك وما ينقض الإسلام.

فيجتنب نواقض الإسلام من خشية الله تعالى، وخشية عذابه والخلود في نار جهنم، ورجاء دخول جنته والفوز برؤيته جل وعلا.

وهذه الدرجة هي الفارقة بين الإسلام والكفر، ومن انتفت عنه هذه الخشية حتى ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام فهو كافر خارج من ملة الإسلام والعياذ بالله.

وأهل هذه الدرجة وإن كانوا يقعون في بعض الكبائر ويفرّطون في بعض الفرائض فلهم نصيب من الثواب الذي أعده الله لأهل خشيته ما دام معهم أصل الخشية الذي يحجزهم عن الكفر بالله جل وعلا.

وهذه الدرجة درجة عصاة المسلمين من أصحاب الكبائر.

الدرجة الثانية: درجة عباد الله المتقين؛ الذين حملتهم خشية الله تعالى على اجتناب ما حرَّم الله، وامتثال ما أمر الله؛ فاتقوا الله جلَّ وعلا، واستقاموا على أمره ونهيه، وهؤلاء لهم الأمن والفضائل والبركات التي جعلها الله لعباده المتقين؛ كما تقدَّم بيانه في نظائره.

والدرجة الثالثة: درجة المحسنين؛ الذين حملتهم خشية الله تعالى على عبادة الله كأنهم يرونه، فسارعوا في الخيرات وتقربوا إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، وتوقوا الشبهات والمكروهات بعد المحرمات، فهؤلاء هم أصحاب مرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الدين.

تفاضل أهل الخشية

وأهل خشية الله تعالى يتفاضلون في الخشية تفاضلاً عظيماً فهم على درجات لا يحصيهم إلا من خلقهم، فمن كان معه أصل الإسلام فمعه أصل الخشية لأن خشيته لله حجزته عن الشرك بالله جل وعلا، وكلما ازداد العبد من الخشية ازداد نصيبه من تكميل منازل العبودية لله تعالى والفوز بفضله ورحمته وما يفتح الله له به من الفضل العظيم بتذكر آياته والانتفاع بعظاته واتباع هدى الله الذي أرشده إليه.

وأعلاهم درجة السابقون المقربون الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٢].

وعمادُ الخشية على العلم والتقوى وتفاضل العباد في هاتين الصفتين ظاهر وعظيم.

ثمرات الخشية

الخشية إذا حلَّت في القلب أينعت ثمارها وظهرت فضائلها وتوالت بركاتها على العبد في حاله وعلمه وعمله؛ وكان كلما ازداد منها حظا ازداد نصيبا من العلم والعمل وحسن الحال، وازداد تعرضاً لفضل الله تعالى وبركاته على أهل خشيته.

وأعظم ثمرات الخشية: الإنابة إلى الله تعالى، وهي مقصودها الأعظم.

ومن ثمراتها الجليلة: أنها سبب عظيم مبارك لفهم القرآن الكريم وحسن التذكر والاعتبار بما فيه كما تقدَّم، وما يتبع ذلك من بركات كثيرة.

ومن ثمراتها: أنها تعين على المسارعة إلى الخيرات، والانتهاء عن المحرمات وما لا يليق بأهل الخشية.

ومن ثمراتها: أنها تهذب النفس وتزكيها، وتخلصها من علل وأدواء وآفات لا حصر لها يُبتلى بها من يُبتلى؛ فهي تعين العبد على ترك ما لا يعنيه، وتزهّده في الدنيا، وتقطع عليه طول الأمل، وتعين على المراقبة والمحاسبة، وعلى نهي النفس عن الهوى، وزجرها عن وساوسها المردية.

ومن ثمراتها: أنها تحجز النفس عن الانبساط المذموم، ولا سيما في دعوى المحبة، فإن محبة الله تعالى محبة مصحوبة بإجلال وخشية وتعظيم، وبعض الطوائف قد ضلت في هذا الباب بدعوى المحبة من غير خشية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ويوجد في مدّعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشية بها في قوله: ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٢-٣٤] وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية لما في ذلك من الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفة) ا.هـ.

أحكام خشية غير الله تعالى

ما سبق كله كان في خشية العبادة، أما ما يطلق عليه لفظ الخشية وهو لا يحمل معاني تعبديه؛ فهذا حكمه حكم الخوف الطبيعي يكون بحسب ما يحمل عليه فإن لم يحمل صاحبه على ارتكاب محظور أو ترك مأمور فهي خشية طبيعية لا يلام عليها كأن يخشى السباع والهوام والطغاة.

أما مَن حملته تلك الخشية على ارتكاب محظور لا يعذر بارتكابه أو ترك مأمور به لا يعذر بتركه فإنه مذنب آثم وإثمه على حسب جرمه؛ فإنْ أدَّت به هذه الخشية إلى فعل صغيرة من الصغائر فإثمه بحسبه، وإن أدَّت به إلى فعل كبيرة كان إثمه أعظم، وهو ملوم مذموم على الحالين كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾ [النساء: ٧٧-٧٨].

ولهذا تكثر هذه الخشية عند المنافقين حتى إنها ربما أخرجتهم من دائرة الإسلام والعياذ بالله وذلك إذا حملتهم على موالاة الكفار على المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة: ٥١-٥٦].

- وأما من حملته خشيته من فوات بعض حظوظ الدنيا على التعلق بالدنيا تعلقاً يكون فيه تذلل وخوف ورجاء فهذا قد وقع في الشرك الأصغر وعبودية الدنيا والعياذ بالله.

فإن حملته عبوديته للدنيا على ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام كفر والعياذ بالله؛ كحال الذين يخشون الناس كخشية الله تعالى، وكخشية الضعفاء من الذين استكبروا حتى تبعوهم على دينهم فاستحقوا عذاب النار معهم كما قصَّ الله خبرهم في كتابه الكريم.

الإنابة

معنى الإنابة

الإنابة: هي الرجوع والإقبال إلى الله تعالى.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]: «**أي أقبلوا إلى ربكم**».

وقال عبد الرحمن بن زيد: «**الإنابة: الرجوع إلى الطاعة، والنزوع عما كانوا عليه، ألا تراه يقول**: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣٣]». رواه ابن جرير.

وقال أبو منصور الأزهري: (أناب فلان إلى الله إنابة، فهو مُنيب، إذا تاب ورجع إلى الطاعة).

فالإنابة فيها نزوع ورجوع، وفيها إقبال من العبد على ربه، وهذه هي حقيقة المعنى اللغوي لهذا اللفظ في لسان العرب فإنه جامع بين الرجوع والإقبال.

يقال: أنابت المرأة إلى زوجها إذا رجعت إليه بعد نشوز.

قال أبو علي القالي في أماليه: (وأنشدنا أبو بكر بن الانباري قال أنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى [ثعلب]:

ولقد رأيت مطية معكوسة ... تمشي بكلكلها وتزجيها الصَّبا
ولقد رأيت سبيئة من أرضها ... تسبى القلوب وما تنيب إلى هوى).

وهذا الشعر من أحاجي العرب وألغازها، قال ثعلب: (المطية المعكوسة: سفينة، والسبيئة من أرضها: خمرٌ).

وقال النابغة الشيباني:

كأنَّ ظهورَها حُزُمٌ أنابَتْ   بِها أُصُلاً إلى الحيِّ الإماءُ

(حُزُم) جمع حُزْمَة، وهي حُزُمُ الحطب.

(أُصُل) جمع أصيل وهو العصر، وهو وقت رجوع الإماء من أعمالهن حاملات حزم الحطب على رؤوسهن مقبلات إلى منازل الحيّ؛ فسمى هذا الرجوع والإقبال إنابة.

وهذا الإطلاق إنما يراد به أصل المعنى اللغوي، وهو عارٍ من المعنى التعبدي، وسبب التنبيه على ذلك أنه ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن هذه الألفاظ قد تطلق ويراد بها المعنى التعبدي، وقد تطلق ويراد بها المعنى اللغوي المجرد عن اللوازم التعبدية، وهو استعمال صحيح جائز في مواضعه لا حرج فيه.

ومن غفل عن هذا الأمر ربما تشدد في منع إطلاق هذه الألفاظ جهلاً منه بأنها تطلق إطلاقاً سائغاً على معانٍ لا محذور فيها.

أسباب الإنابة

أمر الله تعالى عباده بالإنابة إليه فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

فجمع الله تعالى في هاتين الآيتين الأسباب الثلاثة الحاملة على الإنابة:

فأما السبب الأول: فهو تحبيبهم إليه تعالى، وتذكيرهم بصفاته المقتضية لمحبته فهو ربهم وهم عباده، وهو الرحيم الذي لا ينبغي أن ييأس عبادُه من رحمته، ولا ينبغي أن تمنعهم ذنوبهم من الإقبال عليه فهو الغفور الذي يغفر الذنوب جميعاً مهما بلغت؛ فلا يستعظمه ذنب أن يغفره، وهو الودود الذي تودد إلى عباده

بحسن مخاطبتهم رحمة بهم وإحساناً إليهم مع غناه عنهم جل وعلا، وَرَفَع من شأنهم إذ أضافهم إليه في خطابه لهم ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

فمن تأمل هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا وآثارها ومقاصد هذا الخطاب العظيم أحبَّ الله تعالى فأنابَ إليه.

وأما السبب الثاني: فهو الرجاء في رحمته ومغفرته وفضله العظيم ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وأما السبب الثالث: فهو الخوف من عذابه جل وعلا: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

فمن تدبر هاتين الآيتين عرف أسباب الإنابة، وأنها ترجع إلى المحبة والخوف والرجاء التي هي أصول العبادة.

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

فإقامة الدين لا تكون إلا بالإنابة إلى الله تعالى.

ثمرات الإنابة

وعد الله تعالى أهل الإنابة في كتابه بالهداية إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

فتبيَّن بذلك أن الإنابة إلى الله سبب عظيم للهداية إلى الله التي هي أعظم المطالب، وهي سبب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وإذا اهتدى العبد إلى

ربّه جلَّ وعلا حصلت له الخشية كما قال تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٩].

وبذلك تعلم أن بين الخشية والإنابة تناسب وتلازم؛ فالخشية تقتضي الإنابة، والإنابة ثمرة الخشية، والإنابة على درجات كما أن الخشية على درجات، وكلما ازداد العبدُ درجة في الإنابة أورثته زيادة خشيةٍ لله تعالى، وكلما عظمت خشية الله تعالى في قلب العبد ازداد من الإنابة إليه، ولا يزال العبد كذلك حتى يبلغ في هاتين العبادتين الجليلتين مقاماً رفيعاً عند الله جل وعلا، نسأل الله من فضله.

فالإنابة هي من آثار خشية الله وهي علامة عليها؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢-٣٣].

ومن أحب الله تعالى أناب إليه، ومن رجا فضله تعالى أناب إليه، ومن خاف عذابه أناب إليه.

فمصدر الخشية: المحبة والخوف والرجاء، وثمرة الخشية الإنابة إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد بين الله تعالى أن المنتفعين بآياته والمتذكرين والمتبصرين هم أهل الخشية، وأهل الإنابة.

فإذا أُطلقت الخشية فلأنها سبب الإنابة والحامل عليها، وإذا أطلقت الإنابة فلأنها هي الثمرة المقصودة من الخشية.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ [ق: ٨].

فالعبد المنيب هو الذي جمع الخشية وأسبابها من المحبة والخوف والرجاء، والخشية الصحيحة تثمر لصاحبها الإنابة إلى الله جلَّ وعلا.

والإنابة سبب لصلاح القلب وزكاة النفس وتطهرها من كثير من العلل والأدواء، وتخلصها من كثير من الآفات المردية، قال ابن الجوزي في المدهش: (إذا وقعت عزيمة الإنابة في قلب من ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قلعت قواعد الهوى من مسناة الأمل).

علامات الإنابة

أصدق علامات الإنابة: طمأنينة القلب المؤمن بذكر الله جل وعلا، كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٧-٢٨].

قال قتادة: «**سكنت إلى ذكر الله واستأنست به**». رواه ابن جرير.

فطمأنينة القلب بذكر الله: سكونه واستئناسه ورضاه بسبب ذكر الله جل وعلا وما دلَّ عليه.

والباء فسرت بالسببية والمصاحبة والملابسة والاستعانة والتبرك وكلها معانٍ صحيحة تتسع لها دلالة هذا الحرف.

وهذه العلامة [طمأنينة القلب المؤمن بذكر الله] جامعة لمعانٍ عظيمة، يدلّ عليها ما فسّر به ذِكْر الله هنا.

فقيل: الذكر: هو القرآن.

وقيل: الذكر هو ذكر العبد لربه بلسانه.

وقيل: الذكر هو ذكر العبد ربَّه في نفسه.

وقيل: الذكر هو التذكر الذي ينتفع به العبد من تفكره في آيات الله ومخلوقاته.

وكل هذه المعاني صحيحة وهي من مدلول معنى ذكر الله جلَّ وعلا، وبها تحصل طمأنينة القلب،؛ فإن القلب إذا دهمه ما يزعجه ويُجْزِعه ثم ذَكَرَ ربَّه في نفسه وعلم أن له ربّا سميعاً بصيراً رحيماً ودوداً لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء ولا يخذل أولياءه ولا يتخلَّى عنهم، بل يهديهم وينصرهم ويحفظهم اطمأنَّ قلبُه لما تذكَّر من أسماء الله وصفاته وآثارها التي لا تتخلف عنها.

وإذا ذكرَ وَعْدَ الله تعالى لمن اتبع هداه أن لا يخاف ولا يحزن وأن لا يضل ولا يشقى، وأن الله مع عباده المؤمنين المتقين يحبهم ويؤيدهم وينصرهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور: اطمأنَّ قلبه بذكر الله، وصدق وعده.

وإذا تلا آيات الله جل وعلا وجد من نفسه طمأنينة لها وفرحاً بها ورضا ينشرح به الصدر وتسكن به النفس فيطمّن القلب بذكر الله جل وعلا الذي أنزله على عباده؛ فيتبع العبد ما فيه من الهدى، ويعتبر بما فيه من العبر والمواعظ، ويعقل ما فيه من الأمثال، فيثبت بإذن ربه على الحق والهدى فيزيده الله هدى وفضلاً وثباتاً على الحق.

وإذا تأمَّل آيات الله الكونية واعتبر بما فيها من العبر العظيمة وتعرَّف بها على أسماء الله وصفاته، وأن من خلق هذا الكون العظيم فإنه أعظم منه، ومن سيَّر هذه الأفلاك العظيمة بنظام دقيق عجيب محكم حكيم عليم قدير، وأن من يدبّر أمور الكائنات على كثرتها الهائلة وتنوعها العظيم واختلافها وتزامنها لا يشغله شأن عن شأن، ولا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء.

ولا يزال يتفكر في نفسه وفي الآفاق وفي ما يراه من عجائب خلق الله تعالى للكائنات وتدبيره لأحوالها وتقديره لأوصافها وقسمه لأقواتها وأرزاقها وطبائعها وأخلاقها.

فيكون هذا التفكر دليلاً يذكّره بالله جل وعلا فيطمئنّ قلبه بذكر الله، ويثمر له هذا التفكر ما يثمر من خشية الله والإنابة إليه وتعظيمه ومحبته والخضوع لأمره، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

ويدلّ على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الشعراء: ٥-٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ: ٩].

وإذا ذَكَرَ العبدُ ربَّه بلسانه مؤمناً بالله جلَّ وعلا عَصَمَه الله من كيد الشيطان الوسواس الخناس الذي يوسوس فإذا ذكر العبد ربَّه خنس، وَوُقِي أيضاً شرَّ وسوسة نفسه الأمارة بالسوء وشر وسوسة شياطين الإنس والجن، وإذا اندفعت هذه الوساوس عن القلب وعُصم العبد من شرها اطمأن القلب لعصمته من الأذى الذي كان يزعجه ويقلقه؛ فإن ما يحجب الطمأنينة عن القلب راجع إلى معانٍ التحزين والتيئيس والتشكيك والتخويف وكلها إنما مصدرها شرور النفوس ووساوس الشياطين؛ فإذا عُصم العبد منها بقي القلب مطمئناً بذكر الله جلَّ وعلا.

وهذه المعاني إذا تأملتها حقَّ التأمل وجدتها من أظهر علامات الإنابة إلى الله تعالى.

وأن الشقي المحروم هو المعرض عن ذكر ربه، الذي إذا ذكر الله اشْمَأَزَّ قلبه، وإذا تليت عليه آياته أعرض عنها؛ فهذا من المجرمين كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة: ٢٢].

ومن تأمَّل العقوبات التي جعلها الله لمن أعرض عن ذكره علم شدة انتقام الله جلَّ وعلا ممن لا يُنيب إليه ولا يطمئنّ قلبه بذكره.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

فتأمّل شدة هذه العقوبة، وكيف أنها في مقابل ما يمنّ الله به على أهل الخشية والإنابة من الفهم القرآن وفقهه والانتفاع به.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

فانظر حفظني الله وإياك ووقانا أسباب سخطه ونقمته عظم هذا الذنب وهو عمل قلبي وكيف أنه سبب لهذه العقوبات العظيمة من الشقاء والخذلان، وتسلط الشياطين، والحرمان من الهدى والانتفاع بالقرآن، وسبب ذلك: الإعراض عن ذكر الله.

وعلاجه: الإنابة إلى الله تعالى، وطمأنينة القلب بذكره.

وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] يدلك على أن القلوب لا طمأنينة لها على الحقيقة إلا بذكر الله جلَّ وعلا؛ الذي هو ربّها وخالقها ومعبودها الحق لا إله إلا هو.

وأنَّ ما يحصل لأهل المعصية والإعراض من الفرح والانبساط إنما هو سكرة نفسية وخفَّة شيطانية كما يسكر صاحب الهمّ بالخمر فيجد لها انبساطاً فإذا صحا من سكرته عاد إليه كدره وحضره ضيقُه وهمُّه أشد مما كان عليه؛ فيدفع السُّكْرَ بِسُكْرٍ مثلِهِ أو أشد.

ومما يتصل بهذا المبحث ما ذكره بعض أهل العلم من الجمع بين الطمأنينة وما يجده المؤمن في قلبه من الوجل والخوف من سخط الله وعقابه، وخلاصة بيان

هذه المسألة ما قاله الإمام الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان: (ووجه الجمع بين الثناء عليهم بالوجل الذي هو الخوف عند ذكره جل وعلا، مع الثناء عليهم بالطمأنينة بذكره، والخوف والطمأنينة متنافيان هو ما أوضحناه في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وهو أن الطمأنينة بذكر الله تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، وصدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فطمأنينتهم بذلك قوية لأنها لم تتطرقها الشكوك ولا الشُّبَه، والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى، وعدم تقبل الأعمال، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»)ا.هـ.

وكلامه في الأضواء هنا أتم من كلامه في الدفع.

درجات الإنابة

الإنابة على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: درجة أصل الإنابة، وهي الإنابة من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه الإنابة هي الفارقة بين الإسلام والكفر، ومن لم يأتِ بها فهو مشرك كافر ليس من أهل ملة الإسلام؛ فإن ادَّعى الإسلام فإنما هو منافق.

ومن أناب هذه الإنابة فهو من أهل الإنابة لما معه من أصلها، وهو موعود بما وعد الله به المسلمين المنيبين إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ١٧].

الدرجة الثانية: إنابة المتقين، وهي الإنابة من المعصية إلى الطاعة، ومن لم يأت بهذه الإنابة فهو من الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي من عصاة المسلمين يشملهم اسم الإسلام ويخشى عليهم من العذاب كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

الدرجة الثالثة: إنابة المحسنين، وهي الإنابة التي تحمل على كثرة ذكر الله وشكره وحسن عبادته، فيكون في قلوب أصحابها من التوبة والإقبال على الله جل وعلا، والتذكر النافع، والتفكر في آياته، والاتعاظ بمواعظه، وعقل الأمثال التي صرفها في كتابه؛ ما يثمر لهم خشية الله تعالى وتعظيمه والخضوع له جل وعلا فيعبدون الله كأنهم يرونه.

وإنابة المحسنين هي أحسن الإنابات وأحبها إلى الله، لما تقتضيه من كثرة التوبة والرجوع إلى الله، وحسن الإقبال إليه تعالى، ولذلك كانت من صفات أصفيائه من خلقه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

وقال عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وأوحى الله تعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في استفتاح تهجده: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**» كما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وتقديم الجار والمجرور يفيد الإخلاص.

التوكل والإنابة

من حقق التوكل والإنابة فقد حقق العبودية لله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: (التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة).

وفي الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وبهما اكتمال دين العبد.

تعرض الشيطان لأهل الإنابة

ومما ينبغي التفطن له ما نبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقول: (الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به؛ فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة.

ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه؛ بل هو مقبلٌ على هواه في غفلةٍ عن ذكر ربه؛ وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة؛ فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلبَ الإيمانَ العظيم وتزيده يقينًا وطمأنينةً وشفاءً.

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨])ا.هـ.

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، والإخلاص في السر والعلن

وكلمة الحق في الغضب الرضا، والقصد في الفقر والغنى

ونسألك حسن الإنابة إليك، وأن تغفر لنا ذنوبنا

وتعصمنا من أسباب سخطك وعقابك

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

اللهم أدخلنا في رحمة منك وفضل، واهدنا إليك صراطاً مستقيماً

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير

الباب العاشر: الزهد والورع

تمهيد

الزهد والورع عملان جليلان من أعمال القلوب، وعلامتان على صلاح القلب وحياته واستنارته إذا صحّا ولزم صاحبهما القصد باتباع السنة واجتناب الغلوّ والتفريط.

وبين الزهد والورع تناسب، وكلّ واحد منهما معين على الآخر ومقتضٍ له، فالزهد أن لا ترغب فيما لا ينفع في الآخرة، والورع أن تترك ما تخشى ضرره في الآخرة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أنّ الورَع المشروع هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة، وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها كالواجبات).

فالزهد والورع يجمعهما جامع الترك فكل منهما يترك صاحبُه أمراً، لكن الدافع في التركين مختلف:

- **فالترك الذي يحمل عليه الزهد** هو لأجل أنه لا ينفع في الآخرة، فكل ما لا ينفع في الآخرة فتركه من الزهد، وسببه إيثار الآخرة على الدنيا.

- **والترك الذي يحمل عليه الورَع** هو خشية العذاب بعدم الترك، فسببه التقوى وطلب السلامة من الإثم والتبعة.

وأكثر ما يطلق الورع على ما ترك المشتبهات، فيتركها الورِعُ احتياطاً لدينه، وخشية أن يكون فيها ما يأثم بسببه فيعذب عليه؛ وأما ترك فضول المباحات فهو من الزهد لأنها لا تنفع في الآخرة، وليس من الورع لأنه ليس فيها ما يُخشى من ضرره في الآخرة.

والورع أصل الزهد، والزهد معين على الورع، ويدخلهما التفاضل.

- قال يحيى بن معاذ: «**كيف يكون زاهدًا من لا ورع له؟!! تورّع عمّا ليس لك، ثمّ ازهد فيما لك**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال أبو الحسن المزيّن - وهو من أصحاب الجنيد-: «**لا يصل العبد إلى العلم إلّا بالطّلب، ولا يتّصل بالتّقى إلّا بالعلم، ولا يتّصل بالزّهد إلّا بالورع، ولا يتّصل بالصّبر إلّا بالزّهد، ولا يتّصل بالشّكر إلّا بالصّبر، ولا يتّصل بالرّضا إلّا بالشّكر، ولا يتّصل بالله إلّا بالرّضا**» رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد من غير عكس، وهذا بيّن؛ فإنَّ ما صلح أن يُكره ويُنفر عنه صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه، فإنَّ عدم الارادة أولى من وجود الكراهة، ووجود الكراهة مستلزم عدم الارادة من غير عكس.

وليس كل ما صلح أن لا يراد يصلح أن يُكره، بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته، ولا حبه ولا بغضه، ولا الأمر به ولا النهي عنه، وبهذا يتبين أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع، وأما المحرمات المكروهات فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل).

الزهد

معنى الزهد

الزهد في الشيء استصغار شأنه وعدم الرغبة فيه أو ضعفها لانصرافها إلى غيره، قال الله تعالى في خبر إخوة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: ٢٠].

وحقيقة الزهد المشروع هو استصغار شأن الدنيا في القلب، وترك ما لا ينفع في الأخرة من متاعها، لاشتغال القلب بالإعداد للدار الآخرة.

فهو عمل قلبي سببه إيثار الدار الآخرة على الدنيا.

- قال الفضيل بن عياضٍ: (رهبة العبد من اللهّ على قدر علمه باللهّ، وزهده في الدّنيا على قدر رغبته في الآخرة). رواه البيهقي في الزهد.

- وقال ابن القيم رحمه الله: (والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة).

فهذه هي الحقيقة الحاملة على الزهد، ومتى قامت بالقلب انصرفت الرغبة إلى الدار الآخرة مع الأخذ من الدنيا بما يستعين به على العمل للآخرة.

والزهد في كلام أهل العلم يتعلّق بالزهد في الدنيا ومتاعها من المال، والجاه، وسائر ما تشتهيه النفس من متاع الحياة الدنيا.

- قال ابن القيم رحمه الله: (ومتعلَّقه ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها، وهي: المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله).

فذكر أهمّ ما تتعلق به شهوات النفس، وشمل بقوله «كل ما دون الله» ما سوى هذه الأنواع التي نصّ عليها، لأن حصر ما تتعلّق به رغبة النفس متعذّر، ويجمعه وصف متاع الحياة الدنيا، وهو اللفظ المستعمل في القرآن كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

ولذلك إذا ذُكر الزهد في الدنيا شمل الزهد في كلّ متاعها الفاني.

وليس المراد بالزهد في الدنيا أن ينسلخ المرء من دنياه، فيحرم نفسه ما أحلّه الله له، أو يضيّع ما أنعم الله به عليه من المال فيفسده بترك رعايته وتنميته، أو أن يترك التكسّب المشروع أو الواجب عليه لإعفاف نفسه ومن يعول عن المسألة.

إنما المراد زهد القلب فيها بأن لا يجاوز بها قدرَها؛ فلا تلهيه عن ذكر الله، ولا تشغله عن الآخرة.

ولذلك يقع الزهد من الغنيّ ومن الفقير:

فأمّا الزهد في حال الفقر أو الحرمان: فهو أن لا يأسى على ما فاته.

وأمّا الزهد في حال الغني أو العطاء فهو أن لا يفرح بما أوتي، والمراد بالفرح هنا الفرح المذموم الذي تكون فيه غفلة عن المنعم، وعن مقاصد الإنعام، وما يقتضيه من الشكر.

- قال أبو مسلم الخولانيّ: «**ليس الزّهادة في الدّنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، إنّما الزّهادة في الدّنيا أن تكون بما في يدي الله أوثق ممّا في يديك، وإذا أصبت بمصيبةٍ كنت أشدّ رجاءً لأجرها وذخرها من أنّها لو بقيت لك**». رواه أحمد في الزهد، وقد روي مرفوعاً من حديث أبي ذرّ ولا يصحّ رفعه.

- وقال أبو حفص بن الجلّاء: سمعت بشر بن الحارث يقول: «**ليس الزّهد في الدّنيا ترك الدّنيا، إنّما الزّهد أن يزهد في كلّ ما سوى الله، هذا داود وسليمان -عليهما السّلام- قد ملكا الدّنيا وكانا عند الله من الزّاهدين**». رواه البيهقي في الزهد.

- وقال سعيد بن الجهم الجيزي: جمع عبد الرحمن بن شريح، وعمرو بن الحارث الصف في المسجد فلما سلم الإمام، قال ابن شريح لعمرو بن الحارث: يا أبا أمية! ما تقول في رجل ورث مالاً حلالاً فأراد أن يخرج من جميعه إلى الله زهداً في الدنيا ورغبةً فيما عنده؟

قال: «**لا تفعل**».

قال ابن شريح: فقلت لعمرو: «**سبحان الله! لا يفعل!! لا يزهد في الدنيا؟!!**».

قال عمرو بن الحارث: «ما أدَّب الله عز وجل به نبيه أفضل من ذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] **ولكن يقدم بعضا ويمسك بعضا»**. رواه ابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله.

- وقال ابن القيم: (وليس المراد رفضها من الملك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان - رضي الله عنهم - من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمّة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال يقول: «لولا هو لتمندل بنا هؤلاء».

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: «**ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك**» فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه، وقد روي مرفوعاً)ا.هـ.

قلت: هو كلام أبي مسلم الخولاني كما تقدّم، وهو من أئمة التابعين في الزهد.

حقيقة الزهد:

الزهد الصحيح أن يزهد قلبك فيما زهّد الله فيه، لينصرف إلى الرغبة فيما رغَّب الله فيه، فلا بدّ في الزهد الصحيح من ترك وانصراف إلى ما هو أولى، فينصرف عمّا زهّد الله فيه ليُقبل على ما رغّب الله فيه.

وقد اختلف العلماء في بيان حقيقة الزهد التي من بلغها عُدّ زاهداً على أقوال كثيرة وفي بعضها تقارب، **وأجمعوا على أنّ الزهد الصحيح ليس مشابهة المعروفين من الزهّاد في لباسهم وهيئتهم الظاهرة لسببين:**

أحدهما: أنّ الزهد عمل قلبي.

والآخر: أن الزهّاد تختلف مذاهبهم في الزهد مع إصابتهم حقيقته، ولذلك ليس لهم هيئة واحدة في اللباس والمعاش، وقد يشتبه حال الغنيّ الزاهد بحال الفقير العاجز فيما يرى الناس.

- قال أيّوب بن حسّان الواسطي، عن سفيان بن عيينة قال: سمعت الزّهريّ وقد سأله رجلٌ فقال: يا أبا بكرٍ من الزّاهد؟ قال: «**الّذي لا يغلب الحرام صبره، ولا يمنع الحلال شكره**».

وقال أيّوب بن حسّان: سمعت ابن عيينة يقول: «**ما سمعت في الزّهد قطّ شيئًا أحسن من هذا**». رواه البيهقي في الزهد الكبير، ورواه يعقوب بن سفيان في المعرفة مختصراً.

وهذا الزهد من قام به فهو من المتقين، لما في قلبه من الصبر عن الحرام فلا يأخذه، ومن الشكر على الحلال فيؤدّي حقّه بالزكاة والنفقة والمواساة ولا يشحّ به.

- وقال أحمد بن أبي الحواريّ: حدّثنا عليّ بن المدينيّ قال: قيل لسفيان بن عيينة: ما حدّ الزّهد؟

قال: «**أن يكون شاكرًا في الرّضا، صابرًا في البلاء، فإذا كان كذلك فهو زاهدٌ**».

قيل لسفيان: ما الشّكر؟

قال: «**أن يجتنب ما نهى اللهّ عنه**» رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال سفيان الثوري: «**الزّهد في الدّنيا قصر الأمل، وليس بلبس الصّوف**». رواه ابن أبي شيبة.

وهذا تنبيه على السبب الحامل على الزهد وهو قصر الأمل لاشتغال القلب بالآخرة ومعرفة حقيقة الدنيا وسرعة انقضائها؛ فمن قام في قلبه اليقين بذلك حمله على الزهد في الدنيا.

- وقال الأوزاعي: «**الزّهد في الدّنيا ترك المحمدة**». رواه ابن أبي شيبة، أي: تعمل العمل لا تريد أن يحمدك النّاس عليه، وهو من باب التنبيه على أمر قد يُغفل عنه، وهو مما يقدح في الإخلاص ، فذكر نوعاً رفيعاً من الزهد وهو الزهد فيما يفتن القلوب عن الإخلاص فإذا صحّ الإخلاص استقام الزهد.

- وقال أحمد بن أبي الحواريّ: قلت لأبي موسى الدّيبليّ: ما الزّهد في الدّنيا؟

قال: «**لا تأيس على ما فاتك منها، ولا تفرح بما أتاك منها**» رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال أبو سليمان الداراني: «**الزّاهد حقًّا لا يذمّ الدّنيا، ولا يمدحها، ولا ينظر إليها، ولا يفرح بها إذا أقبلت، ولا يحزن عليها إذا أدبرت**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال ذو النّون المصري: «**أرغب النّاس في الدّنيا، وأحفاهم لها طلبًا أكثرهم لها ذمًّا عند طلّابها، ولا سيّما إذا كان ذمّه للدّنيا حرقةً بها**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال إبراهيم بن فاتكٍ: سئل الجنيد عن الزّهد، فقال: «**خلوّ الأيدي من الأموال، والقلب من التّتبّع**».

قال: وسمعت الجنيد، وسأله رويم عن الزّهد، فقال: «**استصغار الدّنيا ومحو آثارها من القلب**» رواهما البيهقي في الزهد الكبير.

- قال ابن القيم: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «**الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة**».

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها).

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد

هدي النبي صلى الله عليه وسلم هو أقوم الهدي في الزهد وغيره، وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جماعة من أصحابه رضي الله عنهم أنه قال: «**خير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها**»، وفي لفظ: «**أحسن الهدي**»، وصحّ كذلك موقوفاً عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

ولم يزل أهل العلم يعرضون الأمور على هذا الميزان الأعظم، كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال: «**إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر، فعليه تعرض الأشياء، على خلقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل**» رواه الخطيب البغدادي في الجامع.

فالنبي صلى الله عليه وسلم إمام الزاهدين، ولا يصحّ أن يأتي أحد من هذه الأمة أو غيرها بهدي في الزهد أحسن من هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ فبهديه يُميّز الزهد الصحيح من الزهد الفاسد.

وزهد النبي صلى الله عليه وسلم وسط بين الغلوّ والجفاء، وفيه تحقيق للمقاصد الشرعية في حقّ الفرد وفي حقّ الأمة؛ فتقوم مصالح المسلمين على أساس متين من التناصح والقصد وأداء الحقوق في غير تشاحٍّ ولا تشاحن؛ ففيه جمع بين إصلاح القلب، وإصلاح المجتمع المسلم.

ومن تأمّل الأحاديث المرويّة عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الزهد وجدها منادية بهذا المنهج القويم والهدى المستقيم الذي لا وكس فيه ولا شطط.

١. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من طرق عن أنس رضي الله عنه.

٢. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: زوَّجني أبي امرأةً من قريش، فلما دخلتْ عليَّ جعلتُ لا أنحاش لها، مما بي من القوة على العبادة، من الصوم والصلاة، فجاء عمرو بن العاص إلى كنته، حتى دخل عليها، فقال لها: كيف وجدت بعلك؟

قالت: خير الرجال أو كخير البعولة من رجل لم يفتش لنا كنفا، ولم يعرف لنا فراشا.

فأقبل علي، فعذَمني، وعضَّني بلسانه، فقال: أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب، فعضلتها، وفعلت، وفعلت ثم انطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكاني، فأرسل إلي النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته، فقال لي: «أتصوم النهار؟».

قلت: نعم.

قال: «وتقوم الليل؟».

قلت: نعم.

قال: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». رواه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث حصين بن عبد الرحمن عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

٣. وقالت عائشة رضي الله عنها: دخلت علي خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون قالت: فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذاذة هيئتها، فقال لي: «**يا عائشة، ما أبذّ هيئة خويلة؟**».

قالت: فقلت: يا رسول الله، امرأة لا زوج لها، يصوم النهار، ويقوم الليل؛ فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها.

قالت: فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن مظعون فجاءه، فقال: «**يا عثمان، أرغبةً عن سنتي؟!**» فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنّتك أطلب.

قال: «**فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإنَّ لأهلك عليك حقاً، وإنَّ لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم**». رواه أحمد وأبو داوود والنسائي من حديث ابن إسحاق قال: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

٤. قال موسى بن علي بن رباح وكان أمير مصر زمن أبي جعفر المنصور: سمعت أبي يقول: سمعت عمرو بن العاص يخطب الناس بمصر يقول: «**ما أبعد هديكم من هدي نبيكم صلى الله عليه وسلم، أما هو فكان أزهد الناس في الدنيا، وأما أنتم فأرغب الناس فيها**». رواه أحمد وابن حبان والحاكم.

٥. وفي الصحيحين من حديث عبيد عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خبر طويل وفيه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مضبورا، وعند رأسه أُهُباً معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فبكيت؛ فقال: «**ما يبكيك؟**».

فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أما ترضى أن تكون لهما الدنيا، ولك الآخرة**».

٦. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر الحصير بجلده، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه، وأقول: يا رسول الله، ألا آذنتني قبل أن تنام على هذا الحصير فأبسط لك عليه شيئا يقيك منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما لي وللدنيا! وما للدنيا ولي! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل في فيء، أو ظل شجرة ثم راح وتركها**» رواه ابن المبارك في الزهد وأحمد وابن أبي شيبة والترمذي والحاكم وغيرهم من طريق المسعودي قال: حدثنا عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود، وله شاهد من حديث عكرمة عن ابن عباس عن عمر عند أحمد والطبراني وغيرهما.

أحاديث لا تصح في الزهد

روي في شأن الزهد أحاديث لا تصحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وسأذكر بعض المشتهر منها للتعريف بحالها:

- قال خالد بن عمرو القرشي: حدثنا سفيان الثوري، عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي، قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: يا رسول الله! دلَّني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس**». رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان.

وخالد بن عمرو القرشي متروك الحديث.

ورواه البيهقي أيضاً في شعب الإيمان والبغوي في شرح السنة من طريق محمد بن أحمد بن الوليد بن برد الأنطاكي عن محمد بن كثير عن الثوري، وقال البيهقي: (هذا الحديث عن الثوري منكر). وذكر تفرّد الأنطاكي به.

- وقال يحيى بن سعيد بن أبان القرشيّ، عن أبي فروة، عن أبي خلّادٍ - وكانت له صحبةٌ - قال: قال رسول اللهّ صلّى الله عليه وسلّم: «**إذا رأيتم الرّجل المؤمن قد أعطي زهدًا في الدّنيا، وقلّة منطقٍ فاقتربوا منه، فإنّه يلقَّى الحكمة**». رواه ابن المبارك في الزهد، وابن ماجه في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان، والطبراني في معجمه الكبير.

- وقال عبد الله بن يزيد الدمشقي: حدثني ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس عن عطية السعدي، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس**». رواه ابن ماجه.

عناية السلف الصالح بالزهد

كان السلف الصالح على عناية حسنة بالزهد في أحوالهم ومعاشهم وإقبالهم على الآخرة مع أخذهم بأسباب القوّة في دينهم ودنياهم فجمعوا بين إصلاح القلوب، وإصلاح البلاد؛ ففتحوا الأمصار، وشيّدوا المدن والقرى، وعلّموا العلم، وأقاموا العدل، وكانوا أئمة يُقتدى بهم في أحوالهم وأعمالهم، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً حتّى اتّسعت رقعة دولة الإسلام في القرون المفضلة اتّساعاً ظاهراً من أقصى المغرب إلى ما وراء النهرين شرقاً، ومن بلاد الترك إلى اليمن وعمان.

وكان الصحابة رضي الله عنهم خير هذه الأمة وأحسنهم هدياً في الزهد وغيره من أعمال القلوب والجوارح، لما علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم وأدّبهم به، ولما وقر في قلوبهم من اليقين والإيمان الذي زكّاهم الله به وجعله علامة على الهداية كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧] وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ

عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ فلم يجعل لمن بعدهم طريقاً للهداية إلا باتّباعهم بإحسان.

وكلّ من اتّخذ سبيلاً غير سبيلهم في التعبّد لله تعالى واتّباع رسوله صلى الله عليه وسلم كان ذلك علامة بيّنة على ضلاله.

– وقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص: (قالت حفصة لعمر: (ألا تلبس ثوبا ألين من ثوبك، وتأكل طعاما أطيب من طعامك! فقد فتح الله عليك الأرض، ووسع عليك الرزق).

فقال: «**سأخاصمك إلى نفسك**»، فجعل يذكّرها ما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كانت فيه من الجهد حتى أبكاها، فقال: «**قد قلت لك: إنه كان لي صاحبان سلكا طريقا، وإني إن سلكت غير طريقهما، سلك بي غير طريقهما، وإني والله لأشاركنهما في مثل عيشهما، لعلي أن أدرك معهما عيشهما الرخي**»). رواه عبد الله بن المبارك في الزهد، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، والنسائي في السنن الكبرى، والحاكم في المستدرك، وفي سماع مصعب من حفصة خلاف.

– قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لبعض التابعين: «**أنتم أطول اجتهادًا، وأطول صلاة، – أو أكثر صلاة – من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا خيرا منكم**».

فقيل: لم؟

قال: «**كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم**». رواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة في مصنفه وأبو داوود في الزهد من طريق عبد الرحمن بن يزيد النخعي، عن ابن مسعود.

فضائل الزهد

الزهد عمل جليل من أعمال القلب، وله فضائل كثيرة:

منها: أنه سبب لمحبّة الله عزّ وجلّ؛ فإنّ السبب الجامع لبغض الله تعالى لمن أبغضه من الكفار والمنافقين والعصاة هو إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وهو نقيض الزهد، قال الله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ [إبراهيم: ٢-٣] الآية، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].

ومنها: أنّه دواء ناجع وحصن حصين من كثير من أدواء القلوب وآفات الأعمال التي إذا سرت إليها أفسدتها أو أضعفتها.

ومنها: أنّه من علامات إرادة الله الخير بعبده.

- قال موسى بن عبيدة الربذي، عن محمد بن كعب القرظي قال: «**إذا أراد الله بعبد خيرا زهَّده في الدنيا، وفقَّهه في الدين، وبصَّره عيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة**». رواه ابن المبارك في الزهد، ووكيع في الزهد واللفظ له، وابن أبي شيبة في المصنف، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر في تاريخه.

ومنها: أنّه من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

- قال محمد بن النضر الحارثي: كان محمد بن كعب يقول: «**الدنيا دار فناء، ومنزل بلغة، رغبت عنها السعداء، وانتزعت من أيدي الأشقياء؛ فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها، وأزهد الناس فيها أسعد الناس بها، هي المعذّبة لمن أطاعها، المهلكة لمن اتبعها، الخائنة لمن انقاد لها، علمها جهل، وغناها فقر، وزيادتها نقصان، وأيامها دُوَل**». رواه ابن أبي الدنيا في ذمّ الدنيا، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق عباءة بن كليب الليثي عن محمد بن النضر، وقد تصحّف في بعض المصادر اسم عباءة إلى عبّاد بن كليب، وعبّاد

متروك الحديث، وأما عباءة فصدوق له أوهام، ذكره البخاري في الضعفاء وقال أبو حاتم: يحوَّل منه.

ومحمد بن النضر عابد زاهد، قال فيه عبد الرحمن بن مهدي: ما رأيت مثله في الصلاح.

ومنها: أنه نجاة للعبد من الذلّ الحاصل بالطمع في الدينا ومتاعها وتعلّق القلب بها.

- وقال سفيان الثّوريّ: «**من زهد في الدّنيا ملكها، ومن رغب فيها عبدها، فمن شاء فليعش فيها ملكًا، ومن شاء فليعش فيها عبدًا**». رواه الخطيب البغدادي في الزهد.

ومنها: أنه يفتح للعبد عين البصيرة لإقباله على الآخرة وإنابته إلى ربّه ومحاسبته لنفسه واستعداده للموت قبل نزوله، فيبصر بهذا الإقبال والنظر وتلك العناية بالآخرة والاستعداد لها بالأعمال الصالحة ما لا يبصره من اشتغل قلبه بالدنيا.

- وقال ابن القيم: (مفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا).

درجات الزهد

ذكر أبو القاسم القشيري(ت:٤٦٥هـ) عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: (**الزهد على ثلاثة أوجه:**

- **الأول:** ترك الحرام، وهو زهد العوام.
- **والثاني:** ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.
- **والثالث:** ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهو زهد العارفين).

وهذا الكلام وإن كان حسناً إلا أنه لا يثبت عن الإمام أحمد رحمه الله، وقد ذكره أبو القاسم القشيري (ت:٤٦٥هـ) في الرسالة القشيرية من غير إسناد، وذكره ابن القيم في مدارج السالكين، وابن مفلح في الآداب الشرعية.

- قال ابن مفلح: (قال القاضي أبو يعلى وذكر أبو القاسم القشيري في كتاب الرسالة إلى الصوفية: وقال أحمد بن حنبل ....) فذكره.

قلت: القاضي أبو يعلى الفراء(ت:٤٥٨هـ) وإن كان مات قبل أبي القاسم القشيري إلا أنّ أبا القاسم أسنّ منه بأربع سنين؛ فهما متعاصران، والرسالة القشيرية مطبوعة.

- وقال ابن القيم: (وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام، وهو يدل على أنه رضى الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد)ا.هـ.

وعلى كلّ حال فالزهد منه ما هو مشروع، ومنه ما هو غير مشروع:

فأمّا الزهد المشروع فهو على درجتين من حيث حكمه:

الدرجة الأولى: الزهد الواجب، وهو الزهد فيما حرّم الله، وفيما يُشغل عمّا أوجب الله.

والدرجة الثانية: الزهد المستحبّ، وهو الزهد في المكروهات وفضول المباحات، وفيما يُشغل عن المستحبّات.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الزهد الواجب هو ترك ما يشغل عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، والزهد المستحب هو ترك ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين).

فصاحب الدرجة الأولى لديه أصل الزهد، وهو وإن لم يكن يُطلق عليه وصف الزاهد غالباً إلا أن هذه الدرجة هي الأساس لما بعدها في الزهد، فمن لم يأت بها لا يسمّى زاهداً ولو ترك كثيراً من فضول المباحات، ولو شابه كثيراً من أئمة الزهد في لباسهم ومعاشهم، لأنّ من أخذ ما ليس له أو منع ما وجب عليه بذلك فليس بزاهد.

والمخالف في هذه الدرجة آثم مستحقّ للعقوبة.

وصاحب الدرجة الثانية يصحّ أن يوصف بالزهد إذا كان الحامل على ذلك اشتغال القلب بالآخرة.

- قال أحمد بن أبي الحواريّ: سمعت أبا سليمان [الداراني] يقول: (أهل الزّهد في الدّنيا على طبقتين:

فمنهم من يزهد في الدّنيا ولا يفتح له في روح الآخرة، فهو في الدّنيا مقلٌّ قد يئست نفسه من شهوات الدّنيا، ولم يفتح له في رَوح الآخرة، فليس شيءٌ أحبّ إليه من الموت لما يرجو من رَوح الآخرة.

ومنهم من يزهد في الدّنيا ويفتح له في الآخرة، فليس شيءٌ أحبّ إليه من البقاء للتّمتّع بذكر الله عزّ وجلّ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨] ورغبةٍ في أن يذكر اللهّ فيذكره؛ لأنّ الميّت ينقطع عمله، وقد قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فقال: معناه: «اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي وثوابي»). رواه البيهقي في الزهد.

والزهد يتفاضل فيه الزاهدون على مراتب كثيرة، وأعلاه زهد أهل الإحسان، وهو الزهد فيما يشغل عن عبادة الله كأنّك تراه، وغايته بذل النفس وما تملك في سبيل الله على فقه وبصيرة؛ فيحتمل ما يلقى من الأذى في القيام بأمر الله من الاستقامة والدعوة والجهاد وإنكار المنكر، وتهون عليه نفسه في ذات الله، ولو أدّى ذلك إلى أخذ ماله وإراقة دمه؛ فإنّه مع الاقتصاد في المعيشة ولزوم السنة؛ يبلغ الذروة في الزهد، ولو كان من الأغنياء، بل هو أعظم زهداً ممن اعتزل الناس وقنع باليسير من المعاش واللباس، ولم يقم بأمر الله في هذه الأبواب العظيمة.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الجهاد أعظم مشقة من هذا كله، فإنه بذل النفس، وتعريضها للموت، ففيه غاية الزهد المتضمن لترك الدنيا كلها، وفيه جهاد النفس في الباطن، وجهاد العدو في الظاهر).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في المرأة التي زنت ثمّ تابت توبة حسنة، وزهدت في الدنيا كلّها، وطلبت إقامة الحدّ عليها، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشُكَّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرُجمت، ثم صلى عليها.

فقال عمر: يا رسول الله أتصلي عليها وقد زنت؟!!

قال: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدتَ أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟!!**». رواه أحمد والدارمي ومسلم من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنها.

فهذه المرأة تابت توبة حسنة متقبّلة كان يكفيها منها جزء من سبعين جزءا، ثمّ زهدت في نفسها وولدها وفي الدنيا كلها، وجادت بنفسها لله تعالى، وأعظم الزهد الزهد في النفس.

- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام**» يعني أيام العشر.

قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟

قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**». رواه ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وغيرهم.

فلم يستثنِ النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال العاملين من الزهّاد وغيرهم في عشر ذي الحجة إلا من بلغ غاية الزهد بأن جاد بماله ونفسه في سبيل الله؛ فهذا عمله أفضل وأحبّ إلى الله من أعمال العاملين في عشر ذي الحجة.

- وقال ابن القيم رحمه الله: (**المحبّون ثلاثة أقسام:**

- **منهم** من يريد من المحبوب.

- **ومنهم** من يريد المحبوب.

- **ومنهم** من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين، وزهد هذا أعلى أنواع الزهد؛ فإنه قد زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض، فالزهد خمسة أقسام: زهد في الدنيا، وزهد في النفس، وزهد في الجاه والرئاسة، وزهد فيما سوى المحبوب، وزهد في كل إرادة تخالف مراد المحبوب، وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل سبحانه متابعة رسوله سببا لمحبته لهم، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله؛ فليس الشأن أن تحِب الله ولكن الشأن أن يحبك الله؛ فالطاعة للمحبوب عنوان محبته كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع)ا.هـ.

وهو كلام حسن، ويمكن أن يُستدلّ له بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**» رواه ابن أبي شيبة وأبو داوود والطبراني في الكبير من حديث القاسم بن عد الرحمن الشامي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وله شاهد من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

ومن قام بهذه الخصال فهو مريد لما يريده الله فاستكمل الإيمان.

والزهد منه ما يكون في مقام الطلب، ومنه ما يكون في مقام البذل، ومنه ما يكون في مقام الترك.

- **فالزهد في مقام الطلب** بأن لا يطلب ما لا يصلح له من المحرمات والمكروهات وفضول المباحات.

- **والزهد في مقام البذل** بأن لا يمنع ما يصلح له بذله وجوباً أو استحباباً؛ فيبذله بطيب نفس متقرباً إلى الله تعالى.

- **والزهد في مقام الترك** بأن يترك ما لا يعنيه، مما لا يتعلق به طلب ولا بذل.

هل يسمَّى ترك الحرام زُهدا؟

هذه المسألة سبقت الإشارة إليها، والعلماء مختلفون فيها على قولين:

القول الأول: ترك الحرام من الزهد، بل هو أصل الزهد، وهو قول إبراهيم بن أدهم، والزهري ، وابن عيينة، وذُكر عن أحمد كما تقدم.

- قال المتوكّل بن الحسين العابد: قال إبراهيم بن أدهم: «**الزّهد ثلاثة أصنافٍ: فزهد فرضٍ، وزهد فضلٍ، وزهد سلامةٍ، فالزّهد الفرض: الزّهد في الحرام، والزّهد الفضل: الزّهد في الحلال، والزّهد السّلامة: الزّهد في الشّبهات**». رواه البيهقي في كتاب الزهد.

والقول الثاني: لا يعدّ من الزهد لأنّه فرض واجب، والزهد وصف مدح لما هو فوق ترك الحرام، وهو قول يحيى بن معاذ الرازي، ويوسف بن أسباط.

- قال أحمد بن عيسى الكلابي: سمعت يحيى بن معاذ يقول: «**كيف يكون زاهدًا من لا ورع له؟!! تورّع عمّا ليس لك، ثمّ ازهد فيما لك**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال أحمد بن أبي الحواريّ: حدّثنا المسيّب قال: «**سألت يوسف بن أسباطٍ، عن الزّهد، ما هو؟**

قال: "أن تزهد، فيما أحلّ الله، فأمّا ما حرّم الله فإن ارتكبته عذّبك الله"؛ يعني أنّ تركه فرضٌ». رواه البيهقي في الزهد.

مذاهب العلماء في الزهد

مما ينبغي التنبه له أن للعلماء الزهاد مذاهب في الزهد يختلفون فيها بما يوافق أحوالهم وما يطوِّقونه من الاحتمال في غير تكلّف، بل على بصيرة وحسن معرفة بالسنة وبأحوال القلب وما يُصلحه؛ فهم على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب المتقللين، وهم الذين يتقللون من اللباس والمعاش وسائر متع الدنيا، فيكتفون منها بما يتقوّون به على أمور دينهم والتبلّغ في دنياهم، ويكفّون النفس عن طلب ما وراء ذلك.

والمذهب الثاني: مذهب المقتصدين في المعيشة، وهم الذين يكون لهم متاع حسن ظاهر، فيتجمّلون في لباسهم ومعاشهم من غير إسراف، ويظهر عليهم أثر النعمة، ويغلب عليهم الجود والعطاء فيتصدقون، ويُكرمون الضيف، ويصلون الرحم، ويواسون الصديق، وهم على ذلك من الزهّاد.

واختلافهم في الزهد بين التقلّل والاقتصاد نظير اختلاف اختياراتهم في قيام الليل بين التطويل والتخفيف، واختلافهم في العزلة والخلطة، وفي تغليب الرجاء أو الخوف، وغيرها من أبواب السلوك؛ فكلّ يأخذ بما هو أصلح لقلبه، وأوفق لحاله، وأقرب إلى السلامة من الفتن والتبعات.

- قال ابن عقيل: حدثنا يزيد [يعني ابن عبد الله بن الشخير] أن رجلاً أتى تميماً الداري فقال: كيف صلاتك بالليل؟

فغضب غضبا شديدا؛ فقال: «**والله لركعة أصليها في جوف الليل في السرّ أحبّ إليَّ من أن أصلي الليل كله ثم أقصّه على الناس**».

فغضب السائل عند ذلك فقال: يا أصحاب رسول الله! الله أعلم بكم، إن سألناكم عنّفتمونا، وإن لم نسألكم جفوتمونا؟

فأقبل تميم عند ذلك على الرجل فقال: «**أرأيت إن كنتَ مؤمناً قوياً وأنا مؤمن ضعيف؛ أكنتَ ساطيا عليَّ بقوتك فتقطعني؟ أرأيتَ إن كنت مؤمناً ضعيفاً وأنا مؤمنٌ قويٌّ أكنتُ ساطياً عليك بقوّتي فأقطعك؟ ولكن خذ من نفسك لدينك، ومن دينك لنفسك، حتى تستقيم لك على عبادة ترضاها**». رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، وإبراهيم الحربي في غريب الحديث، وهو عنده «**أشاطّ أنت عليَّ بقوتك فتقطعني**» بدل ساطياً، وهو من الشطط، وهو ما صححه أبو عبيد في غريب الحديث، قال: (قَوْله: «إِنَّك لشاطّي» أَي إِنَّك لجائرٌ عليّ حِين تحمل قوتك على ضعْفي وهُوَ من الشطط والجْور فِي الحُكم).

وكان تميم الداري قد أوتي قوّة على قيام الليل حتى همّ جماعة من العُبّاد من أبناء الصحابة أن ينافسوه في العبادة فما قدروا على ذلك.

- قال جعفر بن عمرو بن أمية الضمري: كنا فئةً من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: إنَّ آباءَنا قد سبقونا بالهجرة وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهلموا نجتهد في العبادة لعلنا ندرك فضائلهم، منهم - أو كما قال- عبد الله بن الزبير، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن طلحة، ومحمد بن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، قال: «**فاجتهدنا في العبادة بالليل والنهار، وأدركنا تميماً الداري شيخاً؛ فما قمنا له ولا قعدنا في طول الصلاة**». رواه الإمام أحمد في الزهد.

- وقال عبد الله بن وهب: أخبرني أفلح بن حميد الأنصاري، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: «**لقد نفع الله الناس باختلاف أصحاب النبي عليه السلام، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه سعة، ورأى أن خيرا منه قد عمله**». رواه ابن أبي خيثمة.

-وقال قبيصة بن عقبة: حدثنا أفلح بن حميد، عن القاسم بن محمد قال: «**كان اختلاف أصحاب رسول الله رحمة للناس**». رواه ابن سعد.

ومن ذلك اختلافهم في الزهد ففيه رحمة للسالكين، لأنَّ من الناس من لا يصلح له مذهب التقلّل ولا يصبر عليه، بل يفتنه ويحرجه، ومنهم من لا يرتاح قلبه إلا بالتقلل، فإذا كثر ما لديه أهمّه واشتغل قلبه به؛ فيرى الراحة في الإقلال، ويخشى افتتان نفسه بالدنيا إذا استرسل في متاعها، وهو على ذلك يُحرز قوت نفسه ومن يعول، ويصبر على ما يصيبه من الفاقة أحياناً.

وخير التابعين أويس القرني وكان متقللاً من الدنيا، ويحبّ التخفّي ويتجنّب الشهرة، وابتلي بالفقر فصبر، ولو قبل الأعطيات لأثرى.

وخير التابعين في المدينة على قول جماعة من أهل العلم سعيد بن المسيّب، وكان صاحب مالٍ وتجمّلٍ في لباسه، وهو من أزهد الناس في الدنيا.

- قال سلام بن مسكين: «**ما سمعت بأحد من الناس كان أزهد في الدنيا، ولا أحسن تجملاً منه**». رواه أبو داوود في الزهد.

وقد كان القاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر صديقين متآخيين، وعالمين جليلين من علماء التابعين، وكانا من شدّة تآخيهما يجلسان للفتيا في مجلس واحد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانا على مذهبين مختلفين في الزهد:

فكان القاسم يحبّ التجمّل في اللباس والتأنّق فيه، وكان ذا هيئة حسنة في لبسه ومعيشته.

وكان سالم يلبس اللباس الغليظ الزهيد ولا يزرّ قميصه، ولا يحفل بهيئته، وهو موسر، يعمل بيديه ويتكسّب ويتصدّق بالصدقات الكثيرة.

- قال عبد الله بن عمران بن أبي فروة: «**رأيت القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجالسان، على القاسم جبة خز ومطرف خز وعمامة خز، وعلى سالم حنيف وبركان وعمامة شقائق، لا يعيب هذا على هذا لبسته، ولا هذا على هذا لبسته**». رواه ابن عساكر.

وكان محمد بن سيرين يقتدي بالقاسم بن محمد وهو من أورع التابعين وأشدّهم.

وكان القاسم وسالم بن عبد الله لا يقبلان عطاء السلطان حتى جهد هشام بن عبد الملك وهو خليفة أن يقبل منه سالمٌ عطاءً فلم يقدر.

- قال الحميدي: سمعت سفيان بن عيينة يقول: دخل هشام بن عبد الملك الكعبةَ فإذا هو بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: يا سالم سلني حاجة.

فقال: إنني أستحيي من الله تبارك وتعالى أن أسأل في بيت الله غيرَ الله.

فلما خرجَ خرجَ في إثره فقال له: الآن قد خرجت؛ فسلني حاجة.

فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟

فقال: من حوائج الدنيا.

قال له سالم: «**أما والله ما سألت الدنيا من يملكها؛ فكيف أسأل من لا يملكها**». رواه ابن عساكر.

وللعلماء الزهّاد مذهبان في أعطيات الحكّام:

المذهب الأول: ردّها والامتناع عنها، وهو مذهب حكيم بن حزام رضي الله عنه، وسعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وطاووس بن كيسان، ومحمد بن سيرين، وسفيان الثوري، وعبد الله بن إدريس الأودي، وأحمد بن حنبل وغيرهم، وكان منهم من يشدّد في ذلك، ومنهم من لا يعيب على من أخذ وأمّا هو فيمتنع عن الأخذ.

وحكيم بن حزام أخذ بوصية النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد حلف له على ذلك.

- روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته

فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال: «**يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى**».

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه، يدعو حكيماً إلى العطاء، فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي). رواه البخاري في صحيحه، وروى مسلم إلى تمام المرفوع منه.

- وقال ابن وهب: (حين التقى القاسم [بن محمد] وعمر [بن عبد العزيز]، وكان عمر يومئذ على المدينة؛ فقال عمر للقاسم: «**إن معنا فُضولاً من طعام ومتاع فخذ ذلك**».

فقال القاسم: «**إني لا أرزأ أحداً شيئاً**».

فقلت لمالك: أكان عمر يومئذ أميرا؟

قال: نعم). رواه يعقوب بن سفيان.

وقد روى ابن عساكر خبر لقيّهما وأنّ عمر بن عبد العزيز كان قافلاً من العمرة أو الحج، والقاسم كان خارجاً يريد العمرة؛ فعرض عليه عمر فضولاً من الظهر والطعام يستعين بها في سفره فاعتذر له من قبولها.

- وقال سفيان بن عيينة: كان عمر بن عبد العزيز يقول لطاووس: هات أرفع حاجتك إلى أمير المؤمنين؛ فيقول: «**مالي إليه حاجة**». رواه الإمام أحمد في الزهد وابن أبي خيثمة في تاريخه.

- وقال عبد الرزاق قال: سمعت النعمان بن الزبير يحدث أن محمد بن يوسف أو أيوب بن يحي [وكانا أميرين على اليمن] بعث إلى طاوس بخمسمائة دينار وقال للرسول: إنْ أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك؛ فخرج بها حتى قدم على طاوس الجنَد؛ فقال: يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها إليك الأمير.

قال: «**ما لي بها حاجة**».

قال: فأراده على قبضها فأبى، فغفل طاووس فرمى بها في كوة البيت ثم ذهب، فقال لهم: أخذها، فلبثوا حينا، ثم بلغهم عن طاووس شيء كرهوه، قال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا؛ فجاءه الرسول؛ فقال: المال الذي بعث به إليك الأمير.

قال: «**ما قبضت منه شيئاً**».

فرجع الرسول فأخبرهم، فعرفوا أنه صادق.

فقيل: انظروا الرجل الذي ذهب بها فابعثوه إليه؛ فجاءه؛ فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن؟

قال: هل قبضت منك شيئا؟

قال: لا.

قال: «**فهل تدري أين وضعته؟**».

قال: نعم في تلك الكوَّة.

قال: فأبصره حيث وضعته.

قال: فمدَّ يده فإذا هو بالصرَّة قد نبت عليها العنكبوت

قال: فأخذها فذهب بها إليهم) رواه يعقوب بن سفيان في المعرفة، وأبو نعيم في الحلية.

- وقال يحيى بن سليم الطائفي: حدثنا سفيان بن عيينة أن محمد بن إبراهيم - يعني الهاشمي الذي كان على مكة - بعث إلى سفيان الثوري بمائتي دينار فأبى أن يقبلها. قلت له: يا أبا عبد الله كأنك لا تراها حلالاً؟

قال: «**بلى، ولكن أكره أن أذلّ**». رواه ابن أبي حاتم.

وأخبارهم في ذلك كثيرة.

والمذهب الثاني: قبول عطايا السلطان إذا جاءتهم من غير سؤال ولا إشراف نفس، وأَمِنوا جانب الحاكم وأنه لا يريد بذلك استمالتهم لما يهوى، وهو مذهب عبد الله بن عمر، والحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، ومالك بن أنس.

وعبد الله بن عمر بنى مذهبه في ذلك على وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه عمر.

- قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: سمعت عمر، يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: «**خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك**» رواه البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه.

- وروى ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم أن عبد العزيز بن مروان كتب إلى عبد الله بن عمر أن ارفع إليَّ حاجتك.

قال: فكتب إليه عبد الله: (إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى**» وإني لأحسب اليد العليا المعطية، والسفلى السائلة، وإني غير سائلك شيئاً، ولا رادّ رزقاً ساقه الله إليَّ منك). رواه أحمد وابن سعد وأبو يعلى من طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم.

- وقال حسين بن عروة: قدم المهدي المدينة فبعث إلى مالك بألفي دينار أو بثلاثة آلاف ثم أتاه الربيعُ [البرمكي] بعد ذلك فقال له: أمير المؤمنين يحبّ أن تعادله إلى مدينة السلام.

فقال له مالك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: («**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**»، والمال عندي على حاله). رواه أبو بشر الدولابي كما في الانتقاء لابن عبد البر.

يريد أنه إن كان عطاؤه لأجل أن يقبل بالذهاب معه إلى مدينة السلام وهي بغداد فالمال عنده لا حاله لم يأخذ منه شيئاً.

وأخبارهم في ذلك يطول ذكرها.

والمقصود التنبيه على أنّ أئمّة الزهّاد من السلف الصالح كانوا على مذاهب في التقلل من الدنيا على اختلاف أحوالهم في الفقر والغنى، فكانوا على أصناف:

الصنف الأول: من كان يتقلّل وهو فقير، فيصبر على الفقر والحاجة، ومنهم كثير من فقراء المهاجرين والأنصار، صبروا على ما بهم من فاقة، ومنهم من كان يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

ولما فتح الله على المسلمين ودرّت الأرزاق بقي من هؤلاء من قنع بحاله، وصبر على فقره ولو شاء لتكسّب وأثرى، ومن هؤلاء: أبو ذر الغفاري، وعمير بن سعد الأوسي، وأويس القرني وغيرهم.

والصنف الثاني: من كان يتقلل وهو غنيّ: ومنهم: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن عمر، وابنه سالم بن عبد الله بن عمر، وطاووس بن كيسان، وغيرهم.

- قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «**رأيت بين كتفي عمر أربع رقاع**». رواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال من طريق سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس.

- وقال عيسى بن سالم: أخبرنا أبو المليح عن ميمون بن مهران قال: دخلت على ابن عمر فقوَّمتُ كلَّ شيءٍ في بيته؛ فما وجدته يسوى مائة درهم، قال: ثم دخلت مرة أخرى فما وجدت ما سوى ثمن طيلسان.

قال: «**ودخلت على سالم من بعده فوجدته على مثل حاله**». رواه ابن عساكر.

-وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان، قال: «**رأيت سالم بن عبد الله عليه إزار ثمن أربعة، وقميص ثمن خمسة، وهو موسر**» رواه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال».

- وقال رمان المرادي: قيل لطاووس: إنَّ منزلك قد استرمّ قال: «**قد أمسينا**» رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» والبيهقي في شعب الإيمان.

يريد أنه لم يبق من الدنيا إلا قليل.

وهؤلاء كانوا مع تقللهم واختيارهم اليسير من اللباس والمعاش على عناية حسنة بالطهارة فهو زُهد بتطهّر، وقد رأى طاووس بن كيسان رجلاً مسكيناً، في عينيه غمص، وفي ثوبه وسخ، فقال له: «**عدّ أن الفقر من الله، فأين أنت عن الماء؟!**».

وإنما نبّهت على ذلك لئلا يُظنّ في الأئمة الزهّاد ما لا يليق بهم من التقذّر.

والصنف الثالث: من كان يتجمّل في لباسه ويتخيّر الجيّد من الطعام في غير إسراف، ومنهم: تميم الداري، وسعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وأبو قلابة الجرمي، ومالك بن أنس، وغيرهم كثير.

- قال محمد بن سيرين: «**اشترى تميم الداري حُلَّة بألف، كان يصلي فيها**». رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه.

- وقال ابن عون: «**ما أتينا محمد بن سيرين في يوم قط إلا أطعمنا خبيصاً أو فالوذجاً**». رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ دمشق.

- وقال أيوب السختياني: رآني أبو قلابة وأنا أشتري تمراً رديئاً؛ فقال: «**قد كنت أظنّ أنَّ الله تعالى قد نفعك بمجالستنا، أما علمت أن الله تعالى قد نزع من كل رديء بركته؟**» رواه أبو نعيم.

- وقال مطرف بن عبد الله اليساري: «**كان مالك بن أنس طويلا عظيم الهامة، أصلع، أبيض الرأس واللحية، أبيض شديد البياض إلى الشقرة، وكان لباسه الثياب العدنية الجياد**». رواه ابن سعد.

-وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: كان مالك يلبس الثياب العدنية الجياد، والخراسانية والمصرية المرتفعة البِيض، ويتطيب بطيب جيد، ويقول: «**ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا ويرى أثر نعمته عليه، وخاصة أهل العلم**».

وكان يقول: «**أحبّ للقارئ أن يكون أبيض الثياب**». ذكره القاضي عياض.

التحذير من الزهد الفاسد وبيان علل الزهد

من سلك سبيل الزهد فعليه أن يحذر من العلل التي يتحوّل بها زهدُه إلى زهد فاسدٍ غير صحيح، ومن تلك العلل:

١: مخالفة السنّة في الزهد، وهو الزهد البدعي، وهو زهد فاسد لأنه على خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنّته، وكلّ عبادة ليست على سنّة النبي صلى الله عليه وسلم فهي عبادة فاسدة مردودة، وقد تقدّم بيان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد، وبيان حقيقة الزهد المشروع.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأفضل الجهاد والعمل الصالح ما كان أطوع للرب وأنفع للعبد؛ فإذا كان يضرّه ويمنعه مما هو أنفع منه لم يكن ذلك صالحاً وقد ثبت في الصحيح أن رجالا قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر وقال الآخر: أما أنا فأقوم لا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما بال رجال يقول أحدهم كيت وكيت لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

فبين صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا الزهد الفاسد والعبادة الفاسدة ليست من سنته؛ فمن رغب فيها عن سنته فرآها خيرا من سنته فليس منه.

وقد قال أبي بن كعب: «**عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما من عبدٍ على السبيل والسنة ذكر الله خالياً فاقشعرَّ جلده من خشية الله إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتّ الورق اليابس عن الشجر، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدا، وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة؛ فاحرصوا أن تكون أعمالكم إن كانت اجتهادا أو اقتصادا على منهاج الأنبياء وسنتهم**».

وكذلك قال عبد الله بن مسعود: «**اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة**») ا.هـ.

- وقال أيضاً: (حقيقة المشروع منه: أن يكون بغضه وحبه وزهده فيه أو عنه تابعا لحب الله وكراهته، فيحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله، ويرضى ما يرضاه، ويسخط ما يسخطه، بحيث لا يكون تابعا لهواه؛ بل لأمر مولاه؛ فإن كثيرا من الزهاد في الدنيا أعرضوا عن فضولها، ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله، وليس هذا الزهد هو الذي أمر الله به؛ ولهذا كان في المشركين زهاد، وفي أهل الكتاب زهاد، وفي أهل البدع زهاد)ا.هـ.

٢: اشتغال القلب بحظوظ النفس الدنيوية من الزهد، فيتزهّد ليُعظّم شأنه، وتُصرف الوجوه إليه، فيتزهد في اللباس والمعاش، ويحرص على الجاه والشرف، وهذا زهد فاسد.

- قال عارم بن الفضل: حدثنا حماد بن زيد قال: قال أيوب: «**لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره**». رواه ابن سعد.

- وقال ابن القيم: (أفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ).

٣: رؤية زهد النفس والعجب بها، وازدراء من لم يزهد، وهو داء دويّ.

- قال يزيد بن عوانة: حدثني أبو شداد - شيخ من بني مجاشع أحسن عليه الثناء - قال: سمعت الحسن، وذُكر عنده الذين يلبسون الصوف، فقال: «**ما لهم تفاقدوا - ثلاثا - أكنّوا الكبرَ في قلوبهم، وأظهروا التواضع في لباسهم، والله لأحدهم أشدُّ عجباً بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه**». رواه ابن سعد.

والمِطْرَف كِسَاء فاخرٌ له أعلام تزيّنه.

٤: تسمية العجز والكسل والبطالة زهداً، وذلك أن ترك الدنيا إنما يُحمد إذا كان الحامل عليه الرغبة في الآخرة والعمل لها، مع القيام بما يجب على المرء من النفقة الواجبة عليه لنفسه ومن يعول بما يستطيع.

- قال أحمد بن أبي الحواريّ: سمعت أبا سليمان الدّارانيّ يقول: «**ليس الزّاهد من ألقى غمّ الدّنيا واستراح منها، وإنّما تلك راحةٌ، وإنّما الزّاهد من ألقى غمّها وتعب فيها لآخرته**» رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية، وكثيرا ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضلَّ سعي صاحبه).

٥: الزهد البارد، وهو الزهد في بعض ما ينفع في الآخرة مع تيسّره، وهذا سببه الجهل.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الزهد هو عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه أو لكونه مرجوحاً لأنه مفوّت لما هو أنفع منه، أو محصّل لما يربو ضرره على نفعه، وأما المنافع الخالصة أو الراجحة فالزهد فيها حُمْق).

٦: اعتقاد التلازم بين الزهد والفقر، وهو خطأ شائع؛ فالزهد عمل قلبي يشترك فيه الغنيّ والفقير، بل قد يكون الغنيّ الزاهد أعظم أجراً من الفقير الزاهد.

- قال ابن تيمية: (لما كان الفقر مظنة الزهد طوعا أو كرها؛ إذ من العصمة أن لا تقدر، وصار المتأخرون كثيرا ما يقرنون بالفقر معنى الزهد، والزهد قد يكون

مع الغنى، وقد يكون مع الفقر؛ ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير.

و«الزهد» المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع).

٧: تسمية اليأس من الدنيا وذمّها زهداً، فيطلب الدنيا حتى إذا يئس منها ذمّها وعدّ نفسه زاهداً فيها، والزهد المشروع هو الذي يكون الحامل عليه إرادة الآخرة فيترك من الدنيا ما يشغله عنها ولا ينفعه فيها.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (المحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة، واشتغل بإرادة الدنيا عنها؛ فأما مجرد مدح ترك الدنيا فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا تنظر إلى كثرة ذمّ الناس الدنيا ذمّا غير ديني؛ فإن أكثر العامّة إنما يذمونها لعدم حصول أغراضهم منها؛ فإنها لم تصف لأحد قط، ولو نال منها ما عساه أن ينال)ا.هـ.

- وقال أيضاً: (إذا قُدِّرَ أن شخصين أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر زاهد في الدنيا وفي الآخرة؛ لكان الأول منهما مؤمناً محموداً، والثاني كافرا ملعوناً، مع أنَّ الثاني زاهد في الدنيا، والأول طالب لها، لكن امتاز الأوَّل بفعل مأمور مع ارتكاب محظور، والثاني لم يكن معه ذلك المأمور به؛ فثبت أنَّ فعل المأمور به من إرادة الآخرة ينفع، والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع)ا.هـ.

فهذه سبع علل ينبغي للزاهد أن يحذرها حتى يصحّ له زهده.

- وقال ابن القيم: (**النقص في الزهد يكون من أحد وجوه:**

أولها: أن يزهد فيما ينفعه منها، ويكون قوة له على سيره ومعونة له على سفره، فهذا نقص. فإن حقيقة الزهد هي أَن تزهد فيما لا ينفعك، والورع أن تتجنب ما قد يضرك. فهذا الفرق بين الأمرين.

الثاني: أن يكون زهده مشوباً إما بنوع عجز أو ملالة وسآمة وتأَذية بها وبأَهلها، وتعب قلبه بشغله بها، ونحو هذا من المزهدات فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذى أوجب زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها؛ فهذا زهد ناقص، فلو صَفَتْ للزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها، بخلاف من كان زهده فيها لامتلاءِ قلبه من الآخرة، ورغبته في الله وقربه، فهذا لا نقص في زهده ولا علة من جهة كونه زهداً.

الثالث: أن يشهد زهده ويلحظه ولا يفنى عنه بما زهد لأجله فهذا نقص أيضاً؛ فالزهد كله أن تزهد في رؤية زهدك، وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المنة، وأن لا تقف عنده فتنقطع، بل أعرض عنه جاداً في سيرك غير ملتفت إليه مستصغراً لحاله بالنسبة إلى مطلوبك، مع أن هذه العلة مطّردة في جميع المقامات على ما فيها).

ثمّ قال: (فإن ربط هذا الشأْن بالنصوص النبوية والعقل الصريح والفطرة الكاملة من أهم الأمور فلا يحسن بالناصح لنفسه أن يقنع فيه بمجرد تقليد أهله، فما أكثر غلطهم فيها وتحكيمهم مجرد الذوق، وجعل حكم ذلك الذوق كلياً عاماً، فهذا ونحوه من مثارات الغلط)ا.هـ.

ومما ينبغي التفطّن له ما يقع من بعض الموصوفين بالزهد من مبالغة في وصف الزهد وحدوده حتى يخرج عن حقيقة الزهد إلى رسوم ظاهرة تخالف هدي السلف الصالح وسمتهم، والزهد عمل قلبي يقع من الغنيّ والفقير، وتلك الرسوم الظاهرة وإن كانت قد تقع لبعض الزهاد فليست هي حقيقة الزهد، ولا يوصف من اتّصف بها بأنه زاهد، ولا من لم يتّصف بها بأنه غير زاهد، على ما فيها من تعنيت ومشقة وغلو.

ومن ذلك قول بعضهم: (الزاهد من لم يطلب المفقود حتى يفقد الموجود).

وقول أبي بكر الوراق: (الزّهد: ثلاثة أحرفٍ، أمّا الزّاي: فترك الزّينة، وأمّا الهاء: فترك الهوى، وأمّا الدّال: فترك الدّنيا).

وما روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: (الزّهد ثلاثة أشياء: القلّة والخلوة والجوع).

الأسباب المعينة على تحقيق الزهد:

من الأسباب المعينة على تحقيق الزهد:

١: العلم الصحيح بحقيقتي الدنيا والآخرة، ومن تدبّر القرآن وعقل ما فيه من الأمثال المضروبة للدنيا والآخرة تبيّن له ما يكفي للترغيب في الزهد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

- وقال المستورد بن شداد رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع؟**» رواه أحمد ومسلم وابن أبي شيبة وغيرهم من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن المستورد.

- وقال أحمد بن أبي الحواريّ: «**من عرف الدّنيا زهد فيها، ومن عرف الآخرة رغب فيها، ومن عرف الله آثر رضاه**» رواه البيهقي في الزهد.

- وقال ابن القيم: (القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها، وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار).

- وقال أيضاً: (لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، و**لا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين**: **نظر في الدنيا** وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف؛ فطالبها لا ينفك من همّ قبل حصولها، وهمّ حال الظفر بها، وغمّ وحزن بعد فواتها؛ فهذا أحد النظرين.

والنظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كما قال الله سبحانه ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل؛ فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له وإما لعدم رغبته في الأفضل، وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة؛ فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها، المؤثر لها، إما أن يصدّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق بذلك كان عادما للإيمان رأسا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه، وهذا تقسيم حاصر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما).

٢: قصر الأمل والإكثار من ذكر الموت، وفي مرسل الربيع بن أنس «**كفى بالموت مزهداً في الدنيا، ومرغبا في الآخرة**» رواه ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان.

٣: مجالسة الصالحين، والقراءة في سيرهم وأخبارهم.

٤: حبّ المساكين، ومجالسة الفقراء.

- قال سفيان الثوري: كان عون بن عبد الله يقول: «**كنت أجالس الأغنياء، فكنت من أكثر الناس هما، وأكثرهم غما، أرى مركبا خيرا من مركبي، وثوبا خيرا من ثوبي، فأهتم، فجالست الفقراء فاسترحت**» رواه أبو نعيم في حلية الأولياء واللفظ له، وابن أبي حاتم في تفسيره بلفظ مقارب، وعلّقه الترمذي في سننه.

٥: قطع نهمة النفس بالمباح من شهواتها؛ فإنّ النفس إذا تاقت إلى أمر أشغلت القلب به؛ وإذا أخذت النفس نهمتها منه بقدر خفّ تطلّعها إليه، وهو أسهل من معالجة الحرمان.

٦: القناعة باليسير، وترك التكلّف، ويسهّله اليقين بأنّ زهده فيها لا يمنعه رزقاً كتبه الله له، كما أنّ حرصه عليها لا يجلب له رزقاً غير مكتوب له.

قال ذو النون المصري: «**من لم يقنعه اليسير افتقر في طلب الكثير**». رواه البيهقي في الزهد.

قلت: يريد افتقار القلب.

٧: التذكّر والتفكّر، وهما وقود القلب؛ فإذا استمدّ منهما أثمرا له الانتفاع بالعلم والحال، وإن تركهما أصابته الغفلة.

- قال ابن القيم رحمه الله: (التذكر والتفكر كل منهما لقاح الآخر إذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة).

الورع

معنى الورع:

الورع في اللغة شدّة التحرّج والكفّ عن القبيح وما لا ينبغي، يقال منه: رجلٌ وَرِعٌ، وقد وَرِعَ يرِعُ وَرَعاً.

ومنه قولهم: (ورَّعت بين الرجلين) أي: حجزتهما عن التعارك، و(ورَّعْتُ الإبل عن حوض) إذا رددتها فارتدَّت.

قال عمرو بن معد يكرب:

أشاب الرأس أيام طوال ... وهمّ ما تبلّغه الضلوع
وسوق كتيبة دلفت لأخرى ... كأنّ زهاءها رأسٌ صليع
وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضربٌ وجيع
دنت واستأخر الأوغال عنها ... وخُلي بينهم إلا الوَريع

والوريع هو الذي يكفّ الخيل.

والوَرَع في الشرع: كفّ النفس عمّا يُخشى إثمه تحرّجاً.

فيدخل فيه جانبا الترك والفعل؛ فيترك المحرمات والمشتبهات، ويقوم بما أوجب الله.

ولا يستقيم الوَرَع إلا بفقه خير الخيرين وشرّ الشرين؛ ومعرفة ما يجب على المرء من العلم وطريقه إما بالاجتهاد الصحيح أو سؤال أهل العلم.

وكم من مريد للورع أوقع نفسه في شرّ مما أراد التورّع عنه، بسبب ضعف العلم، وقلّة البصيرة بالأصلح في حقّه.

ولذلك فإنّ الورع لا يصحّ في ترك واجب ولا مستحبّ، ولا فيما كان مصلحته أعظم من مفسدته، ولا في ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما الورع فإنه الإمساك عما قد يضر؛ فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضرّ فإنّه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه، وأما الورع عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة لما تقترن به من جلب منفعة راجحة أو دفع مضرة أخرى راجحة فجهل وظلم، وذلك يتضمن ثلاثة أقسام لا يُتورَّع عنها: المنافع المكافأة والراجحة والخالصة كالمباح المحض أو المستحب أو الواجب فإنَّ الورع عنها ضلالة) ا.هـ.

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الورع:

بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم للأمة هدياً في الورع هو أحسن الهدي وأنفعه، وبه تقوم مصالح الفرد ومصالح الأمة؛ ويسلم به المؤمن من آفات كثيرة، وإذا فشا في الأمّة تطهّرت وارتفعت، وقلّ التنازع والاختلاف الذي هو سبب الفشل والانحطاط.

وهدي النبي صلى الله عليه وسلم في الورع وسط بين الغلوّ والتفريط؛ فمن تعدّاه غلا وتنطّع، ومن قصّر عنه وقع في شيء من التفريط بحسب تقصيره.

- قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**». رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم من طرق عن عامر الشعبي عن النعمان بن بشير.

وفي رواية عند النسائي من طريق ابن عون عن الشعبي به وزاد: «**وإن من خالط الريبة يوشك أن يجسر**».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس**» فيه أنّ المشبّهات قد يعلمها بعض الناس وخاصّة أهل العلم، فمن تبيّن له الحلال من الحرام؛ فلا يكون تناولُه ما استبان له حلُّه من خوارم الورع، ولو أنه لم يستبن لغيره.

- وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي أو في بيتي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها**» رواه مسلم من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة، ورواه البخاري ومسلم من حديث منصور بن المعتمر عن طلحة بن مصرف عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

- وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تضوَّر ذات ليلة؛ فقيل له ما أسهرك؟

قال: «**إني وجدت تمرة ساقطة فأكلتها، ثم تذكرتُ تمراً كان عندنا من تمر الصدقة؛ فلا أدري أمن ذلك كانت التمرة أو من تمر أهلي؛ فذلك أسهرني**» رواه أحمد والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أسامة بن زيد الليثي عن عمرو بن شعيب به.

- وقال أبو الحوراء السعدي: قلت للحسن بن علي ما تذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال: أذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أخذت تمرة من تمر الصدقة؛ فجعلتها في فيّ.

قال: فنزعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلعابها؛ فجعلها في التمر.

فقيل: يا رسول الله ما كان عليك من هذه التمرة لهذا الصبي؟

قال: «**إنا آل محمد لا تحلّ لنا الصدقة**».

قال: وكان يقول: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة**».

قال: وكان يعلمنا هذا الدعاء: «**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت**».

رواه أحمد وعبد الرزاق والطبراني في الكبير من حديث بريد بن أبي مريم السلولي عن أبي الحوراء، ورجاله ثقات، وقد رواه الدارمي والترمذي والنسائي من هذا الطريق مختصراً.

- وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بلَحْمٍ، فقيل: إن هذا ما تصدق به على بريرة، فقال: «**هو لها صدقة، ولنا هدية**».

فالنبي صلى الله عليه وسلم لا تحلّ له الصدقة، لكن اللحم الذي تُصدّق به على بريرة لّما انتقل ملكه إليها صار لها حقّ التصرّف فيه، ومن التصرّف الجائز أن تهديه، والهديّة حلال للنبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا يبيّن أنّ هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الورع وسط بين الغلوّ والتفريط، وهو ورع قائم على الفقه، ولا يستقيم الورع إلا بالفقه.

عناية السلف رضي اللّه عنهم بالورع:

كان للسلف الصالح عناية ظاهرة بالورع؛ ولهم في ذلك أخبار وآثار كثيرة جداً تدلّ على ما وراءها من التقوى والعلم والخشية ومحاسبة النفس.

– قالت عائشة رضي الله عنها في شأن قصّة الإفك: (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «**يا زينب، ما علمت؟ ما رأيت؟**».

فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع). رواه أحمد والبخاري ومسلم.

– وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه في مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حاجزاً بينه وبين الحرام**». رواه البيهقي في الزهد الكبير من طريق سعيد بن أبي أيوب قال: حدثني عبد الله بن الوليد، عن عباس بن خليد الحجري عن أبي الدرداء.

– وعن محمد بن سيرين أنّه سمع شريحاً يقول لرجل: «**يا عبد اللهّ! دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فو اللهّ لا تدع من ذلك شيئًا تحرّجا فتجد فقده**». رواه معمر بن رشاد في جامعه، والبيهقي في الزهد الكبير.

– وقال الضحاك بن مزاحم: «**لقد رأيتنا وما نتعلم إلا الورع**». رواه وكيع في الزهد، وابن أبي شيبة في مصنفه، وهناد في الزهد.

وفي رواية عند ابن أبي شيبة: «**أدركنا أصحابنا وما يتعلمون إلا الورع**».

وفي رواية عند ابن المبارك في الزهد عن الضحاك أنه قال: «**كان أَوَّلوكم يتعلمون الورع، ويأتي عليكم زمان يتعلم فيه الكلام، وكان أَوَّلوكم أخوف ما يكونون من الموت أصحَّ ما يكونون**».

– وقال أيوب السختياني: «**ما رأيت رجلاً أفضل من القاسم، لقد ترك مائة ألف هي له حلال، ورأيت عليه قلنسوة خز**» رواه سليمان بن حرب، عن وهيب، سمع أيوب يقول ذلك.

- وقال يونس بن عبيد: عجبت من كلمة حسان بن أبي سنان: «**ما شيء أهون عندي من الورع، إذا رابني شيء تركته**». رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير، وعلّقه الدرامي عن حسان.

- وقال عبد السّلام بن حربٍ، عن عبد الأعلى، عن الحسن أنّه دخل السّوق، فساوم رجلًا بثوبٍ، فقال: «**هو لك بكذا وكذا، واللهّ لو كان غيرك ما أعطيته؛ فقال: فعلتموها؟ فما رئي بعدها مشتريًا من السّوق، ولا بائعًا حتّى لحق باللهّ عزّ وجلّ**». رواه الدارمي.

- وقال أحمد بن عبد الله بن يونس: حدثنا أبو شهاب عن هشام، عن ابن سيرين أنه اشترى بيعا من منونيا وأشرف فيه على ربح ثمانين ألفا، فعرض في قلبه منه شيء، فتركه.

قال هشام: «**ووالله ما هو بربا**» رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير، وابن عساكر في تاريخ دمشق.

قلت: منونيا قرية من قرى العراق من ضواحي بغداد، يُنسب إليها بعض أهل العلم؛ فيقال: «المنوني».

- وقال حماد بن زيد، عن هشام بن حسان، عن بعض أهله قال: «**ما رابه شيء إلا تركه منذ نشأ، يعني محمدا**». رواه ابن سعد.

- قال ابن عون: بعث ابنُ هبيرة إلى ابن سيرين فقدم عليه فقال: كيف تركت أهل مصرك؟

قال: «**تركتهم والظلم فيهم فاشٍ**».

قال ابن عون: «**كان يرى أنها شهادة يسأل عنها فكَرِهَ أن يكتمها**». رواه أبو نعيم.

قلت: كان ابن هبيرة والياً على العراق، ويريد بمصرِه البصرة؛ فأدّى الشهادة بما يعلم ولم يخش نقمة أمير البصرة.

- وقال جعفر بن مرزوق: بعث ابن هبيرة إلى ابن سيرين والحسن والشعبي، قال: فدخلوا عليه؛ فقال لابن سيرين: يا أبا بكر ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟

قال: «**رأيت ظلما فاشيا**».

قال: فغمزه ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه ابن سيرين؛ فقال: «**إنك لستَ تُسأل، إنما أنا أُسأل**» فأرسل إلى الحسن بأربعة آلاف وإلى ابن سيرين بثلاثة آلاف وإلى الشعبي بألفين، فأما ابن سيرين فلم يأخذها). رواه أبو نعيم في الحلية.

- وقال خالد بن أبي الصلت: قلت لمحمد بن سيرين: ما منعك أن تقبل من ابن هبيرة؟

قال: فقال لي: «**يا عبد الله - أو يا هذا - إنما أعطاني على خير كان يظنه فيَّ؛ فلئن كنت كما ظنَّ فما ينبغي أن أقبل، وإن لم أكن كما ظنَّ فبالحري أنه لا يجوز لي أن أقبل**» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الورع».

- وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عاصم قال: «**لم يكن ابن سيرين يترك أحدا يمشي معه**». رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه.

قلت: كان يخشى الشهرة وكثرة الأتباع.

- وقال هشيم: أخبرنا ابن عون قال: «**كنت مع ابن سيرين وهو يريد المسجد فلقيه رجل؛ فقال: أين تريد؟**» قال: «**فما أخبره**» رواه أحمد في العلل.

وأخبار السلف في الورع كثيرة جداً.

فضائل الورع:

للورع فضائل جمّة؛ فهو مطهرة للقلب وحصن من كثير من الآفات، وهو قائد إلى مرتبة الإحسان، يربّي صاحبه على مراقبة الله تعالى في جميع شؤونه؛ حتى يعبده كأنّه يراه.

ومن تورّع توقّى كثيراً من مخاصمات الناس ومنازعاتهم في أمور الدنيا، وقام بما يستطيعه من أمور الدين، فكان بذلك من أولياء الله الذين يحبّهم ويحبّونه.

وقد تقدّم في بيان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الورع وعناية السلف الصالح به ما يدلّ على فضل الورع ومكانته في الدين وفي أعمال القلوب.

- وقال إسماعيل بن أبي خالد: حدثني أبو السفر، قال: قالت عائشة: «**إن الناس قد ضيعوا أعظم دينهم: الورع**». رواه ابن أبي شيبة.

وأبو السفر سعيد بن يحمد الهمداني من ثقات التابعين، سمع ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص.

- وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله: «**لفضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وملاك دينكم الورع**». رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وأبو جعفر الفريابي في فوائده، والبيهقي في المدخل إلى السنن وفي شعب الإيمان، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.

وقد روي مرفوعاً من حديث حذيفة وسعد ابن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر بأسانيد فيها مقال، وألفاظ متقاربة «**أفضل الدين الورع**» و«**خير دينكم الورع**» وأرسله عمرو بن قيس الملائي وأبو قلابة.

قال الدارقطني: (الصحيح أنّه من قول مطرف ابن الشخير).

وقال البيهقي: (هذا الحديث يروى مرفوعا بأسانيد ضعيفة وهو صحيح من قول مطرف بن عبد الله بن الشخير).

- وقال الحسن البصري: «**إن من أفضل العمل الورع والتفكر**». رواه ابن المبارك في الزهد.

- وقال معاوية بن قرة: دخلت على الحسن وهو متكئ على سريره، فقلت يا أبا سعيد أي الأعمال أحب إلى الله؟

قال: «**الصلاة في جوف الليل والناس نيام**».

قلت: فأيّ الصوم أفضل؟

قال: «**في يوم صائف**».

قلت: فأي الرقاب أفضل؟

قال: «**أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنا**».

قلت: فما تقول في الورع؟

قال: «**ذاك رأس الأمر كله**». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الورع».

- وقال الحسن البصري أيضاً: «**كان يقال: ما عمل الناس من عمل أثبت في خيرٍ من صلاةٍ في جوف الليل، وما في الأرض شيء أجهد للناس من قيام الليل والصدقة**».

قيل: فأين الورع؟

قال: «**ذاك ملاك الأمر**». ذكره محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة.

- وقال طاووس بن كيسان: «**مثل الإسلام كمثل شجرة، فأصلها الشهادة، وساقها كذا - شيئا سماه - وثمرها الورع، ولا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع له**». رواه معمر بن راشد في جامعه ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الورع.

- وقال الأوزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير، يقول: «**أفضل العمل الورع، وخير العبادة التواضع**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال ابن شوذب: قال محمد بن واسع: «**يكفي من الدعاء مع الورع اليسير، كما يكفي القدر من الملح**». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

- وقال سليمان بن أبي سلمة الفقيه: سمعت الجنيد بن محمّدٍ الصّوفيّ، وسئل عن القلب ما يفسده؟

قال: «**الطّمع**».

قيل: ما يصلحه؟

قال: «**الورع**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**الورع من قواعد الدين**».

- وقال ابن القيم: (الورع يطهّر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثر كل منهما في الآخر).

درجات الورع:

الورع على درجات:

الدرجة الأولى: أصل الورع، وهو حاصل لكلّ مسلم لاجتماع أصل الإيمان وأصل التقوى في قلبه، بما حمله على ترك ما ينقض الإسلام.

وهذه الدرجة وإن لم يكن يُسمّى صاحبها وَرِعاً؛ إلا أنه لا ريب أنّ من تركها لا نصيب له في الورع كما أنّه لا حظّ له في الإسلام.

- قال محمد بن نصر المروزي: (إن الله ورسوله وجماعة المسلمين سموا الأشياء بما غلب عليها من الأسماء فسموا الزاني فاسقا، والقاذف فاسقا، وشارب الخمر فاسقا، ولم يسموا واحدا من هؤلاء متقيا ولا ورعا، وقد أجمع المسلمون أن فيه أصل التقى والورع، وذلك أنه يتقي أن يكفر أو يشرك بالله شيئا، وكذلك يتقي

الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة، ويتقي أن يأتي أمه فهو في جميع ذلك متق، وقد أجمع المسلمون من المخالفين والموافقين أنهم لا يسمونه متقيا ولا ورعا إذا كان يأتي بالفجور) ا.هـ.

الدرجة الثانية: الورع الواجب، وهو تركّ الحرام وأداء الواجب، وهو ورع المتّقين.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما الورع الواجب فهو اتقاء ما يكون سببا للذم والعذاب، وهو فعل الواجب وترك المحرم، والفرق بينهما فيما اشتبه أمن الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه؛ فأما ما لا ريب في حله فليس تركه من الورع وما لا ريب في سقوطه فليس فعله من الورع) ا.هـ.

والدرجة الثالثة: الورع المستحبّ وهو على مرتبتين:

المرتبة الأولى: ترك الشبهات، والاستبراء منها، وبه يحصل تمام التقوى ويرتقي به العبد إلى مراتب الإحسان.

والمرتبة الثانية: ترك المكروهات، وما يُفضي إلى الشبهة أو يخشى أن يؤول إلى الفتنة، أو إلى اختيار مفضول على فاضل.

وفي الصحيحين من حديث ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في خميصة لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «**اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي**».

وفي رواية في صحيح البخاري من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**كنت أنظر إلى علمها وأنا في الصلاة فأخاف أن تفتنني**».

فترك النبي صلى الله عليه وسلم ما هو مباح في الأصل حتى لا يُشغله عن صلاته؛ لكن لما كان هذا العمل فيه نصّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أصبح لبس ما فيه أعلام تشغل المصلّي عن صلاته مكروهاً.

ومسائل الورع على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: مسائل نصّية، أي ورد النصّ بها؛ فهذه يتّبع فيها المتورّع ما ورد في النصّ.

والصنف الثاني: مسائل أثرية؛ وردت عن السلف الصالح وليس فيها ما يُنكر، فيكون للمتورّع فيها سلف صالح.

والصنف الثالث: مسائل اجتهادية، فقد ينزل بالمتورّع أمر ليس فيه نصّ ، ولا أثر، وهو يخشى أن يوقعه في الإثم أو يؤول به إلى فتنة؛ فيجتهد في التورّع فيه.

والاجتهاد في الورع قد تدقّ مسالكه فيخفى على بعض الناس ما يستدعي التورّع، ويكون الأمر ظاهراً لدى أهل الورع ومن ارتاضت نفوسهم له وفقهوا أحكامه، وقد مضى ذكر أمثلة لدقائق الورع عند السلف.

- وقال الأصمعي عن ابن عون قال: كان ابن سيرين يكره إذا اشترى شيئاً أن يستوضع من ثمنه بعد البيع، ويقول: «**هذا من المسألة**». رواه ابن عساكر.

- وقال هشام بن حسان: كان ابن سيرين إذا دُعي إلى وليمة أو إلى عرس يدخل منزله فيقول: «**اسقوني شربة سويق**» فيقال له: يا أبا بكر أنت تذهب إلى الوليمة أو إلى العرس تشرب سويقا؟!!

قال: «**إني أكره أن أحمل جدَّ جوعي على طعام الناس**» رواه الإمام أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية بلفظ «**حرَّ جوعي**».

- قال ابن القيم رحمه الله: (من دقيق الورع أن لا يقبل المبذول حال هيجان الطبع من حزن أو سرور؛ فذلك كبذل السكران، ومعلوم أن الرأي لا يتحقق

إلا مع اعتدال المزاج، ومتى بذل باذل في تلك الحال يعقبه ندم، ومن هنا لا يقضي القاضي وهو غضبان).

- وقال أيضاً: (كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات، وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنبا لمقت الله وسقوطهم من عينه، وإن بُلي الرجل بذلك فتعاطاه دفعاً لشرّ يتوقعه منهم؛ فمشى إليهم ولم يقل إلا خيرا، ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك، وبالله التوفيق).

فقه الورع:

ينبغي للسالك أن يكون له فقه في الورع، فيعرف أصوله ودرجاته ومراتبه، وما يصحّ منه وما لا يصحّ، وما يلزمه من ترك ما أراد التورّع عنه، وأن يوازن المصالح والمفاسد، ويعرف مذاهب العلماء في الورع، وما يحتمله هو من الورع؛ حتّى لا يحمل نفسه على ما لا تطيق فيعجز ويقع في شرّ مما أراد التورّع عنه.

- قال تميم بن طرفة الطائي: «**جاء سائل إلى عدي بن حاتم، فسأله نفقة في ثمن خادم - أو في بعض ثمن خادم - فقال: ليس عندي ما أعطيك إلا درعي، ومغفري، فأكتب إلى أهلي أن يعطوكها، قال: فلم يرض، فغضب عدي، فقال: أما والله لا أعطيك شيئا، ثم إن الرجل رضي، فقال: أما والله لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «من حلف على يمين، ثم رأى أتقى لله منها، فليأت التقوى» ما حنثت يميني**».

رواه مسلم في صحيحه، وقد رواه أبو داوود الطيالسي، وعبد الرزاق، وأحمد، وابن أبي شيبة، وابن ماجه، والنسائي، وغيرهم من طرق عن تميم بن طرفة.

وفي رواية عند عبد الرزاق عن إسرائيل بن يونس عن عبد العزيز بن رفيع عن تميم بن طرفة قال: «**سمعت عدي بن أبي حاتم أتى منزلا فنزله فأتى أعرابي فسأله، فقال: ما معي شيء أعطيك، ولكن لي درع بالكوفة هي لك فسخطها**

الأعرابي، فحلف أن لا يعطيه، فقال: إنما جئت أسألك في خادم أن تعينني فيها، فقال: أمرت لك بدرعي فوالله لهي أحب إلي من ثلاثة أعبد، فرغب فيها الأعرابي، وقال: أقبل معروفك، فقال عدي: لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتبع الذي هو خير» ما أعطيتك».

فهذا عديّ بن حاتم رأى أنّ التورّع عن ردّ السائل أولى من التورّع عن الحنث في اليمين، وأبصر المخرج من الحنث باليمين بما معه من العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشروعية التكفير عن اليمين إذا رأى غيرها خيراً منها.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم).

- وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم الأحول قال: سمعت مورقا العجلي يقول: «**ما رأيت رجلا أَفْقَهَ في وَرَعِهِ، ولا أَوْرَعَ في فقهه من محمَّد**» يريد محمد بن سيرين، رواه ابن سعد في الطبقات، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبخاري في التاريخ الكبير، والفسوي في المعرفة، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب البغدادي في تاريخه.

- وقال رجاء بن أبي سلمة: سمعت يونس بن عبيد يصف الحسن وابن سيرين فقال: «**أما ابن سيرين؛ فإنه لم يعرض له أمران في دينه إلا أخذ بأوثقهما**» رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه وأبو نعيم في الحلية.

- وقال حماد بن زيد، عن أنس بن سيرين قال: «**لم يبلغ محمداً قطّ حديثان أحدهما أشدّ من الآخر إلا أخذ بأشدّهما**» قال: «**وكان لا يرى بالآخر بأسا، وكان قد طُوِّق لذلك**». رواه ابن سعد.

- وقال أيوب السختياني: ذُكر محمد بن سيرين عند أبي قلابة فقال: «وأيّنا يطيق ما يطيق محمد؟!! محمد يركب مثل حدّ السنان» رواه ابن سعد في الطبقات والبخاري في التاريخ الكبير وأبو نعيم في الحلية والخطيب البغدادي في تاريخه.

- وقال عفان بن مسلم: حدثنا معاذ عن ابن عون أنّ «**عمر بن عبد العزيز بعث إلى الحسن فقبل، وبعث إلى ابن سيرين فلم يقبل**». رواه ابن سعد وابن عساكر.

- وقال الواقدي: حدثنا خليد بن دعلج قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى الحسن وابن سيرين يقول لهما: «**أرد عليكما ما حبس عنكما من أعطيتكما؟**».

فقال ابن سيرين: «**إن فعل ذلك بأهل البصرة فعلت، وأما غير ذلك فلا**».

فكتب عمر: «**إن المال لا يسع**».

قال: «**وقبل الحسن**».

وكان محمد بن سيرين يُضرب بورَعه المثل؛ فيقال: أورع من ابن سيرين.

لكنَّه كان على بيّنة فيما يتورّع عنه، وله في الورع أخبار كثيرة، وكان من أهل العلم والورع من لا يطيق ما يطيقه محمد بن سيرين، وهو لم يبلغ هذه المرتبة العالية من الورع إلا بتوفيق من الله عز وجلّ، ثم بالصبر والتقوى على فقه حسن، وبصيرة بالمخارج من المضايق.

وقد حاول بعض العلماء مجاراته في الورع فما أطاقوه.

- قال سفيان بن عيينة: قال لي ابن شبرمة: عجباً لهذا الرازي [يريد جرير بن عبد الحميد] عرضت عليه أن أجري عليه مائة درهم في الشهر من الصدقة، فقال: «**أيأخذ المسلمون كلهم مثل هذا؟**».

قلت: لا.

قال: «**لا حاجة لي فيه**».

- قال يحيى بن معين: سمعت جريراً يقول: «**عُرضت علي بالكوفة ألفا درهم يعطوني مع القراء فأبيت، ثم جئت اليوم أطلب ما عندهم**». رواه عباس الدوري في روايته لتاريخ يحيى بن معين، ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه.

وقبول العطاء من غير استشراف جائز، والتورع عنه مذهب لبعض أهل العلم، لكن من خشي أن يضطر للسؤال فالأخذ أفضل في حقه من الامتناع.

وفقه الورع يقوم على أصول العلم والتقوى والصبر.

وعماده: معرفة خير الخيرين وشرّ الشرين، والبصيرة بالمخارج من المضايق، والبصيرة بما يُصلح النفس.

وقد يحتاج المتورّع إلى أن يأتسي بأهل الورع في زمانه، ولا سيما في المسائل النازلة التي ليس فيها نصّ ولا أثر وخفي عليه طريق الاجتهاد فيها.

- قال ابن وهب: «**حدثني مالك أن محمد بن سيرين قد ثَقل وتخلَّف عن الحج، فكان يأمر من يحج أن ينظر إلى هدي القاسم ولَبوسه وناحيته؛ فيبلّغوه ذلك؛ فيقتدي بالقاسم**». رواه الفسوي وابن عساكر.

يريد القاسم بن محمد بن أبي بكر رحمه الله.

مذاهب العلماء في الورع:

ومن الفقه في الورع أن يُعلم أن للعلماء مذاهب في الورع بحسب ما يطيقون وبما يُراعون به الأصلح لقلوبهم، وهو أمر يتفاوت فيه السالكون.

فالعالم المجتهد في الورع يأخذ بالأتقى لله في حقّه، وقد يختلف الحكم في حقّ غيره، باعتبار ما هو أوفق له وأصلح لحاله.

ولذلك قد يُروى في المسألة الواحد أقوال لأهل العلم، وكلها في حدود التقوى بحسب اجتهادهم إلا أنّ بعضهم يتورّع فيها ما لا يتورّع غيره.

ويرى بعضهم أنه لا يحتمل ورع بعض الأئمة فيختار لنفسه ما هو أصلح لها بما لا يخرجه عن التقوى.

والورع نفسُه قد يتورّع في أبواب من السلوك ما لا يتورّع بمثله في أبواب أخرى.

والسالك مهما بلغ من العلم والتقوى لا يمكنه أن يجمع ورع الأئمة كلّهم في جميع الأبواب، وذلك لاختلاف اجتهاداتهم في الورع، ومذاهبهم في أبواب السلوك، كما اختلفت مذاهبهم في الزهد، وفي الرجاء والخوف، وفي العزلة والخلطة، وفي معاملة الحكّام، وغيرها.

ويختلفون كذلك في مبلغ طاقتهم من الأخذ بالأشدّ، ومن المعلوم أنه ليس كلّ واحد يطيق ذلك على بصيرة وسداد، ولا يخرج به إلى الغلو.

- قال حماد بن زيد، عن أنس بن سيرين قال: «**لم يبلغ محمداً قطّ حديثان أحدهما أشدّ من الآخر إلا أخذ بأشدّهما**» قال: «**وكان لا يرى بالآخر بأسا، وكان قد طُوِّق لذلك**». رواه ابن سعد.

يريد محمّد بن سيرين.

والمقصود أنّ من تكلّف من الورع ما لا يطيق أو ما فيه فتنة له وشتات لقلبه أو يؤول به إلى ترك ما هو أرجح فقد أخطأ، وإن كان قد أخذ به بعض أهل العلم.

والأقرب في حاله أن يأخذ بما يوافقه من مذاهب أهل العلم في الورع.

علل الورع:

يجب على المتورّع أن يحذر العلل التي تفسد الورع أن تقدح فيه، ومنها:

١: التورّع عن أمر واجب أو مستحبّ أو أمر مباح منفعته خالصة أو راجحة؛ فهذا ورع فاسد، كما قال الله تعالى عن بعض المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ثلاثة أقسام لا يتورع عنها: المنافع المكافئة والراجحة والخالصة: كالمباح المحض أو المستحب أو الواجب فإن الورع عنها ضلال).

وهذا الورع الفاسد على نوعين:

النوع الأول: سببه الحامل عليه في الأصل سوء القصد واتّباع الهوى، وإنما لبّسه لباس الورع تمويهاً أو اغتراراً؛ كمن يترك أداء الحقوق الشرعية من الابتداء بالسلام وعيادة المريض وشهود الجنائز وتحمّل الشهادات وأدائها تكبّراً وترفّعا، ويتذرّع بقصد ترك مخالطة الظلمة.

والنوع الثاني: سببه الحامل عليه الجهل ببعض الأحكام، واعتقاد صحّة ما لا يصحّ من المرويات الضعيفة والواهية، والإقبال على القصص والأخبار وترك الصحيح من الأحاديث والآثار.

٢: أن يحمله التورّع عن أمر على ارتكاب ما هو شرّ منه؛ فمن الناس من يترك أمراً فيه شبهة يسيرة ولا طاقة له باحتمال تركه؛ فيرتكب بدلا منه أمراً فيه شبهة أشدّ أو محرّماً بيّن التحريم، أو يتورّع عن أمر فيه مضرّة مرجوحة ويغفل عن المعارض الراجح؛ كمن يتورّع عن الائتمام بالإمام الفاسق فيترك الجمعة والجماعة، ومن يتورّع عن ترك إنكار المنكر باليد أو اللسان؛ فيحمله ذلك على ارتكاب مفسدة أعظم من المنكر الذي أراد إنكاره باليد أو باللسان.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية؛ فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع؛ كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع)ا.هـ.

- وقال أيضاً: (الورع المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته، وهو ما يُعلم تحريمه، وما يُشك في تحريمه، وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله، مثل مَن يترك أخذ الشبهة وَرَعا مع حاجته إليها، ويأخذ بدل ذلك محرماً بيّنا تحريمه، أو يترك واجبا تركُه أعظم فساداً من فعله مع الشبهة، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها وليس له وفاء إلا مِن مال فيه شبهة؛ فيتورع عنها ويدع ذمّته أو ذمّة أبيه مرتهنة)ا.هـ.

٣: أن يحمله الورع على إساءة الظنّ بمن لم يتورّع مثل ورعه، فيقع في سوء الظنّ بالمسلم، وربما قاده ذلك إلى ازدرائهم في نفسه، وينبغي للمتورّع أن يكون حسن الظنّ بالمسلمين، عظيم الرجاء لهم، والتورّع عن سوء الظنّ بالمسلمين من أبواب الورع.

- قال عبد الله بن عون: «**ما رأيت أحدا كان أعظمَ رجاءً لهذه الأمة من محمد بن سيرين، وأشدّ خوفا على نفسه منه**». رواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا في «حسن الظن»، والخطيب البغدادي في تاريخه.

٤: أن يحمله ورعه على العجب بنفسه وبورعه؛ فيتورّع عن دقائق الشبهات ويقع في كبيرة من الكبائر الباطنة.

٥: أن يغلو في ورعه؛ فيقع في التنطّع المهلك، ويؤول أمره إلى الوقوع في محرّمات قطعية، بل ربما في كبائر.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (من غلا في الزهد والورع حتى خرج عن حد العدل الشرعي ينتهي أمره إلى الرغبة الفاسدة وانتهاك المحارم كما قد رؤي ذلك وجُرّب).

- وقال: (وكذلك وَرَعُ قوم يعدّون غالب أموال الناس محرمة أو مشتبهة أو كلها، وآل الأمرُ ببعضهم إلى إحلالها لذي سلطان؛ لأنه مستحق لها، وإلى أنه لا يقطع بها يد السارق، ولا يحكم فيها بالأموال المغصوبة، وقد أنكر حالَ هؤلاء الأئمةُ كأحمد بن حنبل وغيره، وذمَّ المتنطعين في الورع، وقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثا.

وورع أهل البدع كثير منه من هذا الباب، بل ورع اليهود والنصارى والكفار عن واجبات دين الإسلام من هذا الباب، وكذلك ما ذمّه الله تعالى في القرآن من ورعهم عما حرموه ولم يحرمه الله تعالى كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ومن هذا الباب الوَرَع الذي ذمه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في الصحيح لما ترخص في أشياء فبلغه أن أقواما تنزهوا عنها فقال: «**ما بال رجال يتنزهون عن أشياء أترخص فيها والله إني لأرجو أن أكون أعلمهم بالله وأخشاهم**» وفي رواية: «**أخشاهم وأعلمهم بحدوده له**»).

٦: أن يعتمد في اعتقاد التحريم والحكم بالشبهة على الظنّ وما تهواه نفسه لا على الفقه الصحيح، ولا يقوم بما يجب عليه من التعلم أو سؤال أهل العلم؛ ويدّعي الاحتياط لدينه ويقع في التكلف المذموم أو الوسوسة.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كثير من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها؛ فيكون ذلك مما يقوي تحريمها واشتباهها عنده، ويكون بعضهم في

أوهام وظنون كاذبة؛ فتكون تلك الظنون مبناها على الورع الفاسد؛ فيكون صاحبه ممن قال الله تعالى فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] وهذه حال أهل الوسوسة في النجاسات؛ فإنهم من أهل الورع الفاسد المركب من نوع دين وضعف عقل وعلم).

٧: أن يُسمّي ما هو فيه من الجُبن والبخل والبطالة ورعاً، فيدع واجبات شرعية من النفقات الواجبة، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله في مواضع وجوبه لما قام في قلبه من الجبن أو البخل أو محبة البطالة ويتعلّق بشَوْبِ شبهة قد لا يكون محقّا فيها؛ فيعصب بها تركه، وهو إنما حمله على الترك ما لا يُحمد مما ذُكر.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كثيرا ما يشتبه الورع الفاسد بالجبن والبخل؛ فإن كلاهما فيه ترك؛ فيشتبه ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك ما يؤمر به من الجهاد والنفقة جبنا وبخلا؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع**». قال الترمذي: حديث صحيح. كذلك قد يترك الإنسان العمل ظنا أو إظهارا أنه ورع؛ وإنما هو كبر وإرادة للعلو).

٨: أن يظنّ أنّ الورع إنما هو في باب الترك ويغفل عن الورع في أداء الواجبات.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه فيكون له ثواب إلا بفعل المأمور به من الإخلاص: أما في الورع بفعل المأمور به فظاهر؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، وأما بترك المنهي عنه الذي يسميه بعض الناس ورعا؛ فإنه إذا ترك السيئات لغير وجه الله لم يثب عليها؛ وإن لم يعاقب عليها، وإن تركها لوجه الله أثيب عليها، ولا يكون ذلك إلا بما يقوم بقلبه من رجاء رحمة الله أو خشية عذابه، ورجاءُ رحمته وخشية عذابه من الأمور الوجودية المأمور بها؛ فتبيَّن أن الورع لا يكون عملا صالحا إلا بفعل المأمور به من الرجاء والخشية وإلا فمجرد الترك العدمي لا ثواب فيه)ا.هـ

- وقال أيضاً: (وهذا يُبتلى به كثير من المتدينة المتورّعة، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة، وعن الدرهم فيه شبهة؛ لكونه من مال ظالم أو معاملة فاسدة، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين، وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا يترك أمورا واجبة عليه، إما عينا وإما كفاية وقد تعينت عليه من صلة رحم؛ وحق جار ومسكين؛ وصاحب ويتيم وابن سبيل؛ وحق مسلم، وذي سلطان، وذي علم، وعن أمر بمعروف ونهي عن منكر، وعن الجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى، بل من جهة التكليف ونحو ذلك.

وهذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار؛ فإن ورع الخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم من هذا الجنس تورعوا عن الظلم وعما اعتقدوه ظلما من مخالطة الظلمة في زعمهم حتى تركوا الواجبات الكبار من الجمعة والجماعة؛ والحج والجهاد؛ ونصيحة المسلمين والرحمة لهم، وأهل هذا الورع ممن أنكر عليهم الأئمة كالأئمة الأربعة، وصار حالهم يذكر في اعتقاد أهل السنة والجماعة)ا.هـ.

- وقال أيضاً: (وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط؛ وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم ،وأعرض عما فوَّتوه بورعهم من الحسنات الراجحة؛ فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه فإنه قد يعيب أقواماً هم إلى النجاة والسعادة أقرب.

وهذه القاعدة منفعتها لهذا الضرب وأمثاله كثيرة؛ فإنه ينتفع بها أهل الورع الناقص أو الفاسد وكذلك أهل الزهد الناقص أو الفاسد فإن الزهد المشروع الذي به أمر الله ورسوله هو عدم الرغبة فيما لا ينفع من فضول المباح فترك فضول المباح الذي لا ينفع في الدين زهد وليس بورع).

٩: أن يغترّ بتورّعه في أبواب دقيقة، ويغفل عن وقوعه في محرّمات ظاهرة.

- قال عبد الرحمن بن أبي نعم: كنت شاهداً لابن عمر، وسأله رجل عن دم البعوض، فقال: «**ممن أنت؟**».

فقال: من أهل العراق.

قال: «**انظروا إلى هذا، يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي صلى الله عليه وسلم، وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:** «**هما ريحانتاي من الدنيا**» ». رواه أحمد والبخاري وغيرهما.

وفي رواية عند أحمد: «**يا أهل العراق! تسألوني عن محرم قتل ذباباً، وقد قتلتم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم**».

١٠: أن يحمل نفسه على ورع لا يطيقه.

وهذا قد يحمل عليه إرادة مجاراة أهل الورع العالي الذين ارتاضت له أنفسهم، وبنوه على فقه وبصيرة، فإذا رأى أنه لا يمكنه مجاراتهم وقع في صريح المحظور.

الأسباب المعينة على الورع:

من الأسباب المعينة على تحصيل الورع وتحقيقه:

١: الخوف من الله، وهو الحامل على التقوى التي هي أصل الورع ومنشؤه.

- قال ابن القيم: (الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل).

٢: العلم النافع، وبه تحصَّل البصيرة بخطر ما يُتورّع عنه.

- قال أبو عبد الرّحمن السّلميّ: سمعت أبا عثمان المغربيّ يقول: «**من أسّس بنيانه على التّقوى والعلم جاءت أذكاره وأفعاله صافيةً، ودخل عليه الورع من حيث لا يشعر**». رواه البيهقي في الزهد الكبير.

٣: الزهد في الدنيا، وقد تقدّم الحديث عنه.

- وقال إسماعيل بن إبراهيم التّرجمانيّ: سمعت أبا جعفرٍ الحِوّليّ، وكان عالمًا عابدًا، قال: «**حرامٌ على قلب محبٍّ للدّنيا أن يسكنه الورع الخفيّ، وحرامٌ على نفسٍ عليها ربّانيّة النّاس أن تذوق حلاوة الآخرة، وحرامٌ على كلّ عالمٍ لم يعمل بعلمه أن يتّخذه المتّقون إمامًا**». رواه الخطيب البغدادي في الزهد.

٤: الصبر، ولا ورع لمن لا صبر له.

٥: العزيمة الصادقة والقوّة في دين الله، فلا يكاد يستقيم الورع في قلب فيه وهن وضعف، ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إنّي أسألك العزيمة على الرشد**».

٦: ترك ما لا يعني، وهو أجمع معاني الورع.

- قال ابن القيم: (وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله بكلمة واحدة فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فهذا يعمّ الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع).

٧: المراقبة والمحاسبة، وهما قوام عمل الورع.

الباب الحادي عشر: الصبر والشكر

تمهيد

الصبر والشكر عملان جليلان من أعمال القلوب، وقد جمعهما الله تعالى في مواضع من كتابه الكريم فقال تعالى في أربعة مواضع: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٣]. وقد استنبط بعض أهل العلم أنّ الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر؛ فمن استكملهما فقد استكمل الإيمان.

- قال أبو ظَبيان حصين بن جندب الكوفي: كنا نعرض المصاحف عند علقمة فقرأ هذه الآية: [إن في ذلك لآيات للموقنين] فقال: قال عبد الله [بن مسعود]: «**اليقين الإيمان كله**»، وقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٣] قال: فقال عبد الله: «**الصبر نصف الإيمان**»). رواه الحاكم في المستدرك والسياق له، وإسناده صحيح، وقد رواه مختصراً وكيع في الزهد وعبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة والطبراني في المعجم الكبير كلهم من طريق الأعمش عن أبي ظبيان عن علقمة عن ابن مسعود قال: «**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**».

- وقال مغيرة بن مقسم الضبي: «**الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ألم تر إلى قوله**: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٣]، [إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للْموقِنينَ]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٧]». رواه ابن جرير.

وقوله: [إن في ذلك لآيات للموقنين] هكذا في مستدرك الحاكم وتفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم، وهي ليست فيما بين أيدينا من المصاحف العثمانية، لكنّها رويت عن ثلاثة من السلف: ابن مسعود ومغيرة بن مقسم والعلاء بن يزيد؛ فإن لم يكن ذلك وهم من بعض الرواة فربما كانت في بعض المصاحف القديمة مما تركت القراءة به من الأحرف الأخرى، والذي في مصاحفنا قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠﴾ [الذاريات: ٢٠].

والمقصود أنّ المؤمن لا يكاد ينفكّ عن صبر وشكر، وذلك أنّه لا يخلو من أمرٍ يُؤمر به حالاً أو استصحاباً، أو نهي يُنهى عنه حالاً أو استصحاباً، أو قدرٍ يُقدّر عليه من سرَّاء أو ضرَّاء، وهذه الأحوال تستغرق حياته كلّها؛ فهو يتقلّب فيها بين الصبر والشكر.

- وقال صهيب الرومي رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**عجبا لأمر المؤمن!! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له**» رواه أحمد ومسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا الحديث يعم جميع أقضيته لعبده المؤمن، وأنها خير له إذا صبر على مكروهها وشكر لمحبوبها، بل هذا داخل في مسمى الإيمان كما قال بعض السلف: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣﴾ [الشورى: ٣٣]، وإذا اعتبر العبد الدين كله رآه يرجع بجملته إلى الصبر والشكر) اهـ.

الصبر

• معنى الصبر:

الصبر معناه معلوم مستقرّ في النفوس، ولا يفسّر بأوضح من لفظه، وهو عمل قلبي، ولذلك اختلفت مسالك العلماء في شرحه وتفسير معناه، فمنهم من فسّره بمعرفة نقيضه كما قال الخليل بن أحمد: الصبر نقيض الجزع.

ومنهم من فسّر الصبر بأثره وثمرته كما قال أبو عبيد: (أصل الصَّبر الحَبْس، وكل من حَبَسَ شيئا فقد صبره).

وقريب منه قول أبي حيان: (الصبر حبس النفس على المكروه).

وشيخ الإسلام ابن تيمية وسّع النظر في حقيقته وأثره فقال: (الصبر فيه جمع وإمساك ولهذا قيل: الصبر حبس النفس عن الجزع).

أي: جَمع النفس على احتمال المشقة، وإمساكها عن الجزع.

ومنهم من فسّره ببيان أنواعه وأثره المطلوب شرعاً كما قال ابن القيّم رحمه الله: (الصبر هو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره).

وقال الراغب الأصفهاني: (الصبر: الإمساك في ضيق).

وقال: (والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانا، ويضاده المَذْل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرا، ونبه عليه بقوله: ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]).

هذا كلامه في المفردات فيما وقفت عليه، وقد نقله الحافظ ابن حجر في الفتح باختصار وزاد فيه: (وإن كان عن تعاطي ما نهي عنه سمي عفة).

وهذا كلّه يصدق عليه وصف الصبر متى وجد عمل للقلب يدلّ على هذا الصبر بالإمساك عمّا نهي عنه.

وأما الترك المجرد أو الذي سببه غفلة القلب عن الوارد فلا يُعدّ من الصبر حقيقة، إلا إذا كان مستصحباً من صبر أصلي.

وقال الحافظ ابن حجر: (أحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج).

وهذا تعريف أبي العباس ابن العريف الصنهاجي(ت:٥٣٦هـ) في كتابه «محاسن المجالس»، وهو مطبوع، وقد نقله عنه ابن القيم في طريق الهجرتين وتعقّبه، وهو على ذلك تعريف للصبر بأشهر أنواعه عند العامة وهو الصبر على البلاء.

وبحث ابن القيّم رحمه الله في كتابه «عدة الصابرين» اشتقاق هذه اللفظة في اللغة ومعانيها في مشتقّاتها ثم قال: (والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة المنع والشدة والضم ويقال صبر إذا أتى بالصبر وتصبر إذا تكلفه واستدعاه واصطبر إذا اكتسبه وتعمله وصابر إذا وقف خصمه في مقام الصبر وصبر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملها على الصبر)ا.هـ.

والصبر يتفاضل فيه أهله؛ فبعضهم أصبر من بعض، ويقال: صابر، وصبور، وصبّار، ومتصبّر، ومصطبر، ومصابر.

• منزلة الصبر:

للصبر منزلة عالية في الدين، وفضائله الكثيرة تدلّ على عظيم منزلته، ويكفي دلالة على ذلك كثرة ذكره في القرآن.

قال الإمام أحمد رحمه الله: (ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعا).

وقد أحسن ابن القيم رحمه الله في كتابه عدة الصابرين في ذكر هذه المواضع وتصنيفها تصنيفاً حسناً فليراجعه من أراد الاستزادة.

قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

والصبر إذا اجتمع مع اليقين كان سبباً لنيل الإمامة في الدين كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

فبيّن الله في هذه السورة العظيمة أنه لا نجاة للإنسان من الخسران إلا بهذه الأمور الأربعة المذكورة فيها: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وهذه الأمور الأربعة مترتبة بعضها على بعض؛ فالإيمان أساس العمل الصالح، فلا يصلح العمل إلا بالإيمان، والعمل الصالح من الإيمان.

والتواصي بالحق من الأعمال الصالحة، وخُص بالذكر لأهميته.

والتواصي بالصبر هو أيضاً من هو من التواصي بالحق.

فصارت مرتبة الإيمان هي الأصل وينبني عليها العمل الصالح وينبي عليهما التواصي بالحق وينبي على ذلك كله التواصي بالصبر.

فصار الصبر بمنزلة الرأس من الجسد، وقد روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان**» رواه ابن أبي شيبة في المصنف والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عمرو بن قيس عن أبي إسحاق السبيعي عن علي، ورجاله ثقات لكنّه منقطع؛ فأبو إسحاق السبيعي لم يدرك علياً، وقد يكون الواسطة بينهما الحارث الأعور، وكان أبو إسحاق السبيعي قد تزوَّج امرأته بعد وفاته وقرأ كتبه، ويؤيّد هذا الاحتمال أنّ هذا الخبر رواه الزبير بن عديّ قاضي مرو عن الحارث الأعور عن عليّ، والحارث متروك الحديث.

لكن لهذا الخبر طريق آخر فقد رواه ابن أبي عمر في الإيمان وابن أبي الدنيا في كتاب الصبر من طريق السرّي بن إسماعيل عن الشعبي عن علي، لكن السريّ متروك الحديث أيضاً، وفي رواية الشعبي عن عليّ خلاف.

ورواه وكيع في الزهد عن أبي جعفر الرازي عن رجل يقال له عمر عن محمد بن علي عن أبيه.

والمقصود أنّ هذا الأثر لا يثبت عن عليّ من طريق صحيح متّصل، وإن كان معناه له وجه صحيح.

وقد روي أيضاً من حديث أنس موقوفاً ومرفوعاً ولا يصح.

وقد ورد في فضل الصبر أحاديث كثيرة منها:

١. حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**والصبر ضياء**» رواه أحمد ومسلم والترمذي من طريق أبان بن يزيد العطار عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام، عن جده أبي سلام ممطور الحبشي عن أبي مالك الأشعري، وله طرق أخرى.

٢. وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: «**ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر**» رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث ابن شهاب الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد.

- وقد تقدّم قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**».

• أنواع الصبر:

والصبر على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الصبر على طاعة الله

- قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢].

- وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

والنوع الثاني: الصبر عن معصية الله، بأن يحبس نفسه عنها، وينهاها عن الهوى، وكل من أمسك عن معصية عند وجود الداعي لها من هوى النفس أو وسوسة الشيطان أو غير ذلك فقد صبر عنها، **وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه طريق الهجرتين عشرة أسباب تعين على الصبر عن المعصية، هذا تلخيصها:**

١: العلم بقبح الذنب، وأنه شر في نفسه.

٢: الحياء من الله.

٣: قصد المحافظة على نعم الله، فإن المعاصي تزيل النعم.

٤: خوف الله تعالى وخشية عقابه.

٥: محبة الله تعالى فإن المحب الصادق لا يعصي من أحب.

٦: المحافظة على شرف النفس وزكائها وطهارتها لأن المعصية تدنسها.

٧: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها.

٨: قصر الأمل واليقين بسرعة انقضاء الحياة.

٩: مجانبة الفضول في الطعام والشراب والنوم والمخالطة وغيرها وترك ما لا يعني المرء.

١٠: قال: (هو الجامع لهذه الأسباب كلها ثبات شجرة الإيمان في القلب فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضه له ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم).

والنوع الثالث: الصبر على المصائب المقدرة على العبد بغير اختياره

- قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهي نوعان:

١. نوع لا اختيار للخلق فيه، كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها، لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقدره، وإنه لا مدخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارا، وإما اختيارا، فإن فتح الله على قلبه باب الفكرة في فوائدها وما في حشوها من النعم والألطاف انتقل من الصبر عليها إلى الشكر

والرضا بها، فانقلبت حينئذ في حقه نعمة، فلا يزال هجيرى قلبه ولسانه: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وهذا يقوى ويضعف بحسب قوة محبة العبد لله وضعفها، بل هذا يجده أحدنا في الشاهد كما قال الشاعر يخاطب محبوبا له ناله ببعض ما يكره:

لئن ساءني أن نِلتِني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالِكِ

٢. النوع الثاني: أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه.

فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام).

قال: (وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فإذا انضاف إلى هذا الصبر قوة اليقين والإيمان ترقى العبد في درجات السعادة بفضل الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)ا.هـ.

والمسلم مأمور بالصبر فيه بهذه الأنواع كلِّها، وقد اجتمعت أنواع الصبر كلها في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] **فحكم الله تعالى إما كوني وإما شرعي.**

فالحكم الكوني هو القضاء والقدر، والصبر عليه يراد به الصبر على المصائب المقدرة.

والحكم الشرعي هو الأمر والنهي: فامتثال الأمر هو فعل الطاعات، واجتناب النهي هو ترك المعاصي.

والصبر عن المعاصي أفضل من الصبر على المصائب، لأن المعاصي تكون باختيار العبد، والمصائب لا اختيار له فيها.

- **حكم الصبر:**

معرفة أنواع الصبر تفيد في بيان حكمه:

١: **فالصبر على الطاعات الواجبة واجب،** كالصبر على أداء الصلاة المفروضة ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وأما الصبر على الطاعات المستحبة فهو مستحب، يثاب عليه فاعله، ولا يأثم تاركه.

٢: **والصبر عن فعل المعاصي واجب،** ويتأكد وجوبه في الصبر عن إتيان الكبائر، وأما الصبر عن المكروهات فهو مستحب، يثاب عليه فاعله، ولا يأثم تاركه.

٣: **وأما الصبر على المصائب المقدرة فهو واجب بحيث لا يجزع ولا يتسخط على الله،** وأما الرضا بالمصيبة فهو مستحب على الصحيح، ولا يناله إلا أصحاب البصائر وأولوا الألباب لأنهم يدركون أن ما يقضيه الله تعالى للمؤمن خير له وأحسن عاقبة إذا اتقى الله واتبع رضوانه.

وحزن القلب ودمع العين والتأذي الطبيعي من المصيبة ليس من الجزع إذا كان القلب مؤمناً بقضاء الله مسلماً لأمره.

والقدر الواجب من الصبر في هذه الأنواع متفق عليه بين أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه).

وقال ابن القيم رحمه الله: (**الصبر الواجب ثلاثة أنواع:**

- **أحدها:** الصبر عن المحرمات.

- **والثاني:** الصبر على أداء الواجبات.

- **والثالث**: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله).

ومما ينبغي أن يُعلم أن الرضا بالمصيبة قدر زائد على الصبر؛ وقد اختلف في حكمه على قولين: واجب ومستحب.

وللرضا بعد القضاء سببان:

أحدهما: اليقين بأن الله مستحق للرضا في جميع الأحوال، وهذا رضا المحبة.

والآخر: الرضا لعلم العبد بأن ما أصابه من قضاء الله هو خير له، وهذا رضا حسن الظن بالله والتصديق بوعده.

ومن ثواب الرضا عن الله أن يرضي الله عبده، والله عليم بما يرضي عبده.

• صبر النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم عظيم الصبر، وقد قال الله تعالى له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فصبر صبراً عظيماً حتى كان خير الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فصبر على طاعة الله وتبليغ رسالته واحتمال ما يلقى من أذى قومه، ودأب في طاعة ربّه ليلاً ونهاراً، يدعو قومه ويصبر على أذاهم وما يلقى منهم، ويقوم الليل حتى كان ربما قرأ في الليلة بالسبع الطوال، ويقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وكان كثير الصيام، كثير الصدقة، عظيم الجود حتى وُصف أنه أسرع بالخير من الريح المرسلة، وكان كثير الذكر لله عزّ وجلّ، وربّما استغفر في المجلس

الواحد مائة مرة، وكان أشجع الناس لا يخشى في الله لومة لائم، وإذا اشتدّ القتال وحمي الوطيس كان في مقدّمة أصحابه في وجاه العدوّ، فجمع أنواع الصبر على الطاعات، وكان هديه فيها أحسن الهدي، وهذا صبر على الطاعات عظيم.

وعرض عليه قومه أفضل ما يُرغب فيه من متاع الدنيا على أن يترك دعوتهم إلى الإسلام فلم يتركها، وكان أشدّ الناس تعظيماً لحرمات الله، واجتناباً لمعاصيه.

وابتلي ببلايا شديدة فصبر عليها أحسن الصبر وأجمله.

- قال عاصم بن أبي النجود: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد بن أبي وقاص قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟

فقال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل علي حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذاك، وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذاك**».

قال: «**فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة**». رواه أحمد والدارمي وابن ماجه والترمذي والنسائي في الكبرى وغيرهم، وبوّب البخاري في صحيحه (باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل).

- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**».

قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أجل**».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض، فما سواه إلا حط الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**» رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد عن ابن مسعود.

والمقصود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إمام الصابرين، وأنّه وفّى مقامات الصبر، وكان هديه فيها أحسن الهدي.

• عناية السلف الصالح رضي اللّه عنهم بالصبر

أدرك السلف الصالح منزلة الصبر من الدين؛ فكانوا أئمة يُقتدى بهم في الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على البلاء.

١. فكان منهم العلماء والعُبَّاد الذين بلغوا في أبواب العبادات مبالغ عظيمة لا تنال إلا بصبر عظيم، وأخبارهم في ذكر صبرهم في الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وتعلّم العلم وتعليمه، والصيام والقيام والصدقات وسائر أبواب الطاعات أخبار كثيرة مشهورة.

٢. وكان منهم أئمة ابتلوا بألوانٍ من الفتن المزيّنة للمعاصي فكفّوا أنفسهم عنها وصبروا صبراً عظيماً حتى نجوا وسلموا.

٣. وكان منهم من ابتلي بألوان من المصائب في الأنفس والأولاد والأموال فصبروا صبراً جميلاً حتى غدت أخبارُ صبرهم تُذكر فيؤتسى بها، ويَتعزّى بها من أصيب بمثل مصابهم أو قريب منه.

ولولا خشية الإطالة لذكرت أخباراً كثيرة في كلّ نوع من هذه الأنواع.

ولكن المقصود أنّ الصبر عمل من أعمال القلوب، وله أنواع، وأحسن الهدي فيه هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أمثل الأمّة في الأخذ بالصبر الجميل المحمود هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ التابعون لهم بإحسان، والأئمة الأعلام من بعدهم.

فأخبار صبرهم تقوّي العزيمة، وتثبّت المبتلى، وتبيّن له السبيل إلى الصبر الجميل وما يُعين عليه.

فهذا عمران بن الحصين رضي الله عنه؛ بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه معلّماً لأهل البصرة يفقّههم في الدين وكان قاضي البصرة ثمّ إنه أصيب بداء في بطنه حتى جعل له سرير منقوب ثلاثين سنة؛ فصبر صبراً جميلاً حتى كانت الملائكة تسلّم عليه.

- قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أتيت عمران بن حصين يومًا، فقلت: والله إني لأدع إتيانك لما أراك فيه ولما أراك تلقى.

فقال: «**لا تفعل، فوالله إنَّ أحبَّه إلي أحبُّه إلى ربي**». رواه ابن المبارك في الزهد عن جرير بن حازم قال: سمعت حميد بن هلال قال: حدثني مطرف فذكره.

وقال جرير بن حازم: (كان سقى بطنه فمكث على سرير منقوب ثلاثين سنة).

وفي صحيح مسلم من طريق شعبة عن حميد بن هلال عن مطرف عن عمران بن الحصين أنه قال له: «**وقد كان يُسَلَّم عليَّ حتى اكتويت، فتُركت، ثم تركت الكي فعاد**».

ورواه الإمام أحمد في الزهد من طريق جرير بن حازم قال: سمعت حميد بن هلال، يحدث عن مطرف قال: قال عمران بن حصين رحمه الله: «**أشعرتَ أنه كان يُسَلَّم عليَّ فلما اكتويت انقطع التسليم**».

فقلت له: من قبل رأسك كان يأتيك التسليم أم من قبل رجليك؟.

فقال: «**لا، بل من قبل رأسي**».

قلت: فإني لا أرى أن تموت حتى يعود ذلك، فلما كان بعد قال: «**أشعرت أن التسليم عاد لي**» ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى مات.

- وقال داود القطان: أصاب الربيعَ بن خثيم الفالجُ؛ فكان بكر بن ماعز يقوم عليه ويدهنه ويفلي رأسه ويغسله.

قال: فبينا هو ذات يوم يغسل رأس الربيع إذا سال لعاب الربيع؛ فبكى بكرٌ فرفع الربيع رأسه إليه؛ فقال له: «**ما يبكيك؟ فوالله ما أحبُّ أنه بأعتى أهل الديلم على الله**». رواه ابن سعد في الطبقات وابن المبارك في الزهد، وهناد بن السري في الزهد.

- وقال مصعب بن عثمان: «**كان سليمان بن يسار من أحسنِ الناس وجهاً؛ فدخلت عليه امرأة تستفتيه فسامته نفسه؛ فامتنع عليها وذكَّرها؛ فقالت له: لئن لم تفعل لأشهرنك ولأصيحنَّ بك**».

قال: «**فخرج وتركها في بيته؛ فرأى في منامه يوسف النبي عليه السلام؛ فقال له: أنت يوسف**». رواه ابن أبي خيثمة.

وهذا عبد الله بن إدريس الأودي(ت:١٩٢هـ) وكان إماما فقيهاً محدّثاً قارئاً حتى عدّه الكسائي أقرأ أهل زمانه لمّا سأله هارون الرشيد عن القراء، وعرض عليه القضاء فأبى أشدّ الإباء.

- قال حسين بن عمرو العنقزي: لما نزل بابن إدريس الموت، بكت ابنته، فقال: «**لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة**». رواه الخطيب البغدادي.

وكتب التفسير المسندة مليئة من مروياته.

- وهذا الربيع بن أنس البكري تلميذ أبي العالية الرياحي وصاحب المرويات الكثيرة في كتب التفسير المسندة حُبس ظُلماً سنوات طويلة، قيل: ثلاثين سنة، وقيل: تسع سنين.

والمقصود من ذكر هذه الأخبار التمثيل لبعض ما روي عنهم في أنواع الصبر الثلاثة.

• ما لا يقدح في الصبر

الصبر ينقضه الجزع والتسخّط، وأمّا ما يصنعه المرء مما لا تسخّط فيه ولا جزع؛ فلا يقدح في الصبر، ومن ذلك أن يحزن قلبه لما يصيبه، أو تدمع عينه، أو يتوجّع من ألمٍ يصيبه؛ أو يقول: وارأساه، واظهراه، ونحو ذلك مما يقوله المتألم.

– قالت عائشة رضي الله عنها: رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنازة، وأنا أجد صداعا في رأسي وأنا أقول: وارأساه قال: «**بل أنا وارأساه**». رواه النسائي في الكبرى وأصله في الصحيحين.

– وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم، فقبَّله، وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟

فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة**»، ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**». رواه البخاري.

• حاجة السالك إلى الصبر:

لا ينفكّ السالك من حاجة إلى الصبر؛ فهو بين طاعات يصبر نفسه على أدائها، وبين معاصٍ يصبر نفسه عن مقارفتها، وبين أقدار تُقدَّر عليه من مصائب صغرت أو عظمت فيصبر عليها.

حتى وهو في حال الصحة والغنى ونعم السرَّاء يحتاج إلى الصبر عن اتّباع الهوى، وعن الاغترار بالنعم، وعن أن تلهيه عن ذكر الله، ولذلك كان من السلف من يعدّ الصبر في السرَّاء أشدّ من الصبر في الضرّاء، وقد روى الترمذي

وغيره عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال: «**ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر**».

والسالك في طريق الهداية يعرض له الشيطان في كلّ شيء من شأنه، كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إنَّ الشيطان يحضر أحدكم عند كلّ شيء من شأنه**». رواه مسلم وغيره.

فيحتاج السالك إلى مصابرة هذا الشيطان الموسوس، والاستعاذة بالله من شرّه، وفعل الأسباب التي يوقى بها من شرّه، والصبر عليها.

وتعرض له فتنٌ يحتاج فيها إلى الصبر على اتّباع الهدى حتى يخرج منها بسلام.

وتعرض له أحوال في سلوكه يحتاج فيها إلى الصبر على انتهاج المنهج الأصلح له، وإن كان فيه ما تكرهه النفس في بادئ الأمر حتى يفضي به إلى العاقبة الحسنة.

- ومن سنن الله تعالى أنه يجعل للأنبياء وأتباعهم أعداءً من المجرمين يبتلي بهم صدق أولياءه ويقينهم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

وأتباع الأنبياء على مثل منهجهم موعودون بما وُعد به أتباع الأنبياء من العاقبة الحسنة، ويصيبهم من الابتلاء بقدر اتّباعهم.

وقد تكفَّل الله لهم بالهداية والنصر، وهذا يفيدك ببيان ما يحتاجه من يبتلى بعداوة المجرمين فهو يحتاج إلى الهداية التي يرشد بها ويوفق بها لسلوك سبيل النجاة، ويحتاج إلى من ينصره على من ناصبه العداء واجتهد في الإضرار به، فتكفل الله له بهذين الأمرين العظيمين، ولم يوكل ذلك إلى أحد من خلقه بل تولاه بنفسه جل وعلا فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١] فإذا أيقن الداعي إلى الله بهذه الحقيقة الإيمانية لم يخش إلا الله، وكان وثوقه بهداية الله ونصره وتصديقه بوعده سبباً في طمأنينة قلبه ورباطة جأشه وثباته على الحق والهدى.

وتأمل تقديم الله تعالى للهداية على النصر فهو ترتيب أولوية فإن من عميت عليه سبيل الهداية كان احتياجه إلى الهداية أولى من احتياجه للنصرة المترتبة عليها.

فيجب على الداعية أن يصبر على ما يدعو إليه من الحق وأن يصبر على ما يصيبه منه المشقة والأذى، وقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر، ووعده حق لا يتخلف قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧] وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

• سؤال الصبر

- قال أبو مسعود سعيد بن إياس الجريري عن أبي الورد بن ثمامة عن اللجلاج عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر. فقال: «**قد سألت البلاء فسل الله العافية**».

قال: ومر برجل يقول: يا ذا الجلال والإكرام، قال: «**قد استجيب لك فسل**».

رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي وحسّنه، والبزّار، وغيرهم.

اللجلاج عدّه يحيى بن معين من الصحابة، والجريري ثقة من رجال الصحيحين، وهذا الحديث مستفيض عنه، وأبو الورد قال فيه ابن سعد: (وكان معروفا قليل الحديث)، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: مقبول.

وعلى كلّ حال **فالأولى سؤال الله تعالى العافية كما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث إن صحّ، وفي الأحاديث الصحيحة الأخرى، ومنها:**

- حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها، انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس خطيبا قال: «**أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم**

فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم». رواه البخاري

- وحديث أبي مالك الأشجعي، عن أبيه، قال: كان الرجل إذا أسلم، علمه النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني». رواه مسلم وغيره.

- وحديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعاً: «سلوا الله العفو والعافية؛ فإنَّ الناس لم يعطوا بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية». الحديث وقد تقدّم ذكره.

فهذه الأحاديث وما في معناها تضمّنت الإرشاد إلى سؤال الله العافية، وهذا هو الأصل.

وأما من وقع في أمرٍ يحتاج معه إلى الصبر فإن سؤاله الصبر من الله لا حرج فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فهم في هذا الحال يحتاجون إلى الصبر، وقد أثنى الله تعالى عليهم بسؤالهم إيّاه الصبر.

فكذلك من أصابه بلاء، أو وجد في نفسه ميلاً إلى معصية، أو تكاسلاً عن طاعة فله أن يسأل الله تعالى الصبر على ما يحبّ من ذلك، والعون على طاعته.

• الأسباب المعينة على الصبر:

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وهذا أسلوب حصر يفيد أنّه لا يُنال الصبر إلا بمنّة من الله وعون وتوفيق، ويبيّن ذلك ما تقدّم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر».

فسمَّى الصبر عطاء يُعطاه العبد، والذي يعطيه إنما هو الله.

والله تعالى حكيم في عطائه ومنعه، وقد جعل للعطاء أسباباً كما جعل للمنع أسباباً، ولذلك اجتهد أهل العلم في بحث الأسباب المعينة على تحصيل الصبر، وجمع أقوالهم في هذا الباب ونقلها يطول، والذي ينفع طالب العلم في هذا المقام هو تلخيص ما ذكروه.

وقد تأملت ما وقفت عليه من تلك الأسباب فوجدت أصولها خمسة أسباب:

السبب الأول: الاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه في تحقيق الصبر إذ لا صبر إلا بالله.

والسبب الثاني: البصيرة بفضل الصبر إجمالاً وتفصيلاً، واليقين بحسن عاقبته، فالبصيرة معينة على الصبر بأنواعه، وإذا قويت ارتقت بصاحبها إلى اليقين.

- فيكون لديه بصيرة بفضل أداء الطاعة التي تنازعه نفسه للتهاون فيها ومحبة الله لها وثوابه عليها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن تخلّف المنافقين عن صلاة الفجر وصلاة العشاء: «**وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**».

فلما حرموا البصيرة ثقلت عليهم الصلاة.

- ويكون لديه بصيرة بخطر المعصية، وبغض الله لها، وسوء عاقبتها، واضمحلال منفعتها، وبقاء إثمها، وخوف الحرمان من التوبة منها، وخشية الافتتان بها، وما يلزم من الاشتغال بها من تفويت قربات متيسّرة له، وما تسبّبه من تخلّف عن منافسة الصالحين، إلى غير ذلك من البصائر النافعة التي يكفي بعضها لبغض تلك المعصية والحذر منها.

- ويكون لديه بصيرة بفضل الصبر على البلاء، ومحبة الله للصابرين، وعظم جزائهم، وما يثمره الصبر على البلاء من تكفير للسيئات، وتطهير للقلب، وأنّ الله تعالى قدّرها عليه بحكمته، وأنّ حكمته تقتضي أن لا يديم البلاء على عبده، وأن لا يكلّفه ما لا يطيق، وأن لا يدع عبده من غير هدى يهديه به في ذلك البلاء؛ فيجتمع في قلبه من العبادات التي يحبّها الله ويرضاها ويقرّب المتعبّدين له بها ما يهوّن عليه الصبر على بلائه؛ بل ربما ارتقى به الحال إلى الرضا والشكر.

وقد قال نافع مولى ابن عمر: كان ابن عمر إذا جلس مجلساً لم يقم حتى يدعو لجلسائه بهذه الكلمات، وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهن لجلسائه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا ... » الحديث، رواه النسائي في الكبرى والطبراني في الدعاء والحاكم في المستدرك وغيرهم من طرق عن خالد بن أبي عمران عن نافع.

فهذه بصائر نافعة في كلّ نوع من أنواع الصبر تعين عليه، ويجمعها البصيرة بأنّ الله مع الصابرين وأنّ الله يحبّ الصبر وأهله، وهذه المحبة والمعية الخاصة لها لوازمها وآثارها التي لا تتخلّف عنها، فمن اطمأنّ قلبه بها سهل عليه من الصبر ما لا يكاد يسهل على غيره.

السبب الثالث: تزيّن الإيمان في القلب، وهو سبب عظيم البركة؛ فإنّ المرء إذا زيّن الله أعمال الإيمان في قلبه وحبّبه إليه؛ أحبّ ما يحبّه الله، وأبغض ما يُبغضه الله، فسهل عليه الصبر بأنواعه؛ لأن الصبر عمل قلبي، والقلب يدفعه الحبّ والبغض، وكلما قويا قويت آثارهما، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات: ٧].

ولذلك فإنّ القلب الصحيح يسهل عليه من الصبر ما لا يسهل على القلب المريض بشبهة أو شهوة أو وهن.

السبب الرابع: التصبّر، وقد تقدّم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن يتصبَّر يصبره الله».

السبب الخامس: التأسّي بأهل الصبر، ولا سيّما من كانت لهم في القلب محبّة عظيمة، وعرض لهم مثل ما عرض له؛ فإنّ نفسه تحمله على مشابهتهم وسلوك سبيلهم، وقد قال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ

﴿ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال للمؤمنين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤].

ولم يزل الصالحون يتأسّى بعضهم ببعض.

والتأسي له أثر في تصبير النفس، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

• أيهما أفضل: المبتلى الصابر أم المعافى الشاكر

اختلف أهل العلم في المفاضلة بين المبتلى الصابر والمعافى الشاكر، وفي المفاضلة بين الصبر والشكر.

وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الكلام في هذه المسألة في مواضع من كتبهما، وأفرد لها ابن القيم ثلاثة أبواب في كتابه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين».

والخلاصة أنّ المفاضلة العامّة تختلف عن المفاضلة الخاصّة.

فقد يكون جنس أحد العملين أفضل من الآخر، لكن في حقّ المعيّن قد يقع العكس، لأنَّ الأكرم عند الله تعالى والأفضل من الطائفتين هو الأتقى لله تعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن الناس من يصلحه الغنى والعافية فإذا ابتلي شقّ عليه الأمر وعجز عنه أو فتن به، ومنهم من هو على العكس من ذلك؛ فيصبر على البلاء والضراء صبراً حسناً، فإذا عوفي وأنعم عليه عجز عن الصبر في السراء فربما طغى أو ألهته دنياه عن ذكر الله.

فمعيار التفاضل هو التقوى.

- قال ابن القيّم رحمه الله: (ولا يصح التفضيل بغير هذا البته؛ فإنَّ الغني قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغني في شكره؛ فلا يصح أن يقال: هذا بغناه أفضل، ولا هذا بفقره أفضل.

ولا يصح أن يقال: هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر، ولا بالعكس؛ لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما، بل الواجب أن يقال: أقومُهما بالواجب والمندوب هو الأفضل؛ فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين؛ كما قال تعالى في الأثر الإلهي: [ما تقرب إليَّ عبدي بمثل مداومة ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه].

فأيّ الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل)ا.هـ.

والسلف قد اختلفوا في المفاضلة الخاصة أيضاً:

فمنهم من لم يفضّل، وقال أحبّهما إليّ أحبهما إلى الله، كما تقدّم مثله عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، وروي عن عمر بن الخطاب.

- وقال مطرّف بن عبد اللهّ بن الشّخّير: «**لأن أعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلى فأصبر**». رواه وكيع في الزهد.

- وقال مسلم البطين: قلت لسعيد بن جبيرٍ: الشّكر أفضل أو الصّبر؟ قال: «**الصّبر، والعافية أحبّ إليّ**». رواه هناد في الزهد.

الشكر

• معنى الشكر

الشكر في اللغة: عرفان الإحسان ونشره وحمد موليه، كما قال الخليل بن أحمد وأبو منصور الأزهري وغيرهما.

- وقال ابن القيم: (وأصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورا بينا. يقال: شكرت الدابة تشكر شكرا على وزن سمنت تسمن سمنا: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف، وفي صحيح مسلم حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها).

- قال: (وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافا، وعلى قلبه شهودا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة)ا.هـ.

فالشاكر من عباد الله هو الذي يقبل النعمة ويعترف بها لربّه جلّ وعلا، ويثني بها عليه، ويستعملها في طاعته.

• منزلة الشكر وفضائله

الشكر من أشرف أعمال القلوب، وأعلاها، وقد تقدّم ذكر أنّه نصف الإيمان، وأهله هم أهل المنن والعطايا والزيادات كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ..﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال تعالى في الكفار: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، والخير هو عمل الشكر.

وقال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقد أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم كما أمر به من قبله من الرسل، وأثنى عليهم بالشكر.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ [الزمر: ٦٦].

وقال لموسى: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

وقال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

بل أمر الله جميع خلقه بشكره فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: ١٧].

ولفضل الشكر جعله سبباً لمنع العذاب ورفعه؛ فقال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النساء: ١٤٧].

والشكر قسيم الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الله تعالى في خبر سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

فالابتلاء لتمييز الشاكر من الكافر، ولذلك جعل الشكر علامة على الإيمان كما في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحديبية في إثر سماءٍ كانت من الليل؛ فلما انصرف أقبل على الناس؛ فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟!**».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**قال: [أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمن بالكوكب]**».

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

فخصّ أهل الشكر بهذا المثل الذي هو من أجلّ أمثال القرآن، وأعظمها عبرة في باب النعم والمنع، والعطاء والحرمان، والتوفيق والخذلان، وقضاء الخير وقضاء الشرّ.

فمثّل القلوب بالبلدان المختلفة، التي يتفاوت قبولها للماء وإمساكها للماء وإنباتها للنبات النافع.

فقلب الشاكر قلب طيّب تُثمر فيه النعمة، ويظهر أثرها عليه، فيزيده الله من فضله حتى يبلغه الدرجات العلى.

وقلب الكَفور قلب خبيث لا يقبل النعمة، ولا يظهر أثرها عليه، وإن جهد في بعضها فلا يلبث خبث طبعه وسوء قصده أن يغلبه فلا ينتفع بتلك النعمة، ولا يظهر عليه شيء من أثرها إلا بنكد ولأواء.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

فبيّن الله تعالى أنّه يحبّ الإنعام على من يشكره من عباده، وأنّه يعلم أهل شكر نعمته، هذا فيه إرشاد للمؤمن أن يُهيّئ قلبه ونفسه لإحسان تلقّي نعمة الله وشكرها.

وقد أطلق الله جزاء الشاكرين ولم يحدّه بحدّ؛ فقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقد ردّ ابن القيّم رحمه الله على من زعم أن الشكر من مقامات العامة وليس من مقامات الخاصّة؛ ثم قال: (ويا عجبا! أي مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها؟!! فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها، وتالله ليس لخواصّ أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى) ا.هـ.

• درجات الشكر

الشكر عمل من أعمال القلوب في الأصل، ويظهر أثره على الجوارح، ويجري فيه ما يجري في سائر أعمال القلوب من درجات العبودية.

فالدرجة الأولى: درجة أصل الشكر، وهي متحققة لأهل الإسلام؛ الذين أدّوا أعظم أعمال الشكر وهو التوحيد.

والدرجة الثانية: شكر المتقين، وهم الذين قاموا بالشكر الواجب من أداء الواجبات، واجتناب المحرّمات.

والدرجة الثالثة: شكر المحسنين، وهم الذين قاموا بالشكر الواجب والمستحبّ.

• مراتب الشكر

ولشكر النعم مرتبتان:

المرتبة الأولى: الشكر عند تلقي النعمة، ويتحقق بأربعة أمور:

أحدها: الفرح بفضل الله والابتهاج بعطائه، وتعظيم قدر النعمة في النفس كما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

والثاني: الاعتراف لله تعالى بنعمته، كما في الحديث «أبوء لك بنعمتك علي».

والثالث: حمد الله تعالى على نعمته، وذكرها، والثناء على الله بنعمته، كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» رواه مسلم وغيره من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والرابع: الرضا بنعمة الله، وأن لا يعيبها ولا يزدريها، كما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي العلاء بن الشخير قال: حدثني أحدُ بني سليم ولا أحسبه الا قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسّعه، ومن لم يرضَ لم يبارك له». إسناده صحيح، وجهالة اسم الصحابي لا تضرّ.

وتلقّي نعمة الله بالشكر له أثر عظيم في رضا الله تعالى عن العبد ومحبّته إيّاه، فإنّ الله تعالى يُحبّ من عبده أن يُحسن تلقّي نعمته، وقد تقدّم ذكر حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحديبية في إثر سماءٍ كانت من الليل؛ فلما انصرف أقبل على الناس؛ فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟!».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**قال: [أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمن بالكوكب]**».

وهذا يدلّ على عظيم أثر ما يكون من العبد من عمل القلب ونطق اللسان عند ورود النعمة؛ فمن أحسن تلقّي النعمة وقبلها فقد أدّى نصف الشكر، ومن أعرض عن ذلك فقد كفر النعمة وعرّض نفسه لسخط الله وعقوبته.

وينبغي أن يعي المؤمن هذا الأصل في النعم كلها ما استطاع؛ وما ظنّ المؤمن إذا قال قولاً حسناً يرضى الله به حين يتلقى نعمته ويعرف قدرها، ويفرح بفضل الله عليه بها!!

وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وابن عمر أنهما قالا: قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم سورة الرحمن على أصحابه حتى فرغ، قال: «**ما لي أراكم سكوتا؟!! لَلجنُّ كانوا أحسنَ منكم ردا؛ ما قرأت عليهم من مرة** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد**».

حديث جابر رواه الترمذي وابن عدي والحاكم وصححه وأبو الشيخ والبيهقي وغيرهم.

وحديث ابن عمر رواه البزار وابن جرير والخطيب البغدادي.

وفي كلا الحديثين ضعف في الإسناد، وقال الألباني: (لكن الحديث بمجموع الطريقين لا ينزل عن رتبة الحسن).

والمرتبة الثانية: شكر أداء حقّ النعمة، ويتحقق بأربعة أمور أيضاً:

أحدها: أن يعرف حقّ الله تعالى في تلك النعمة من العلم والعمل والحال؛ فيؤدّيه لله مخلصاً له في ذلك، سليم القلب، طيّب النفس.

والثاني: أن يحفظ تلك النعمة بما أمر الله أن تُحفظ به، وفي مستدرك الحاكم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من تعلم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها**» وأصله في صحيح مسلم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: «**لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل**».

والثالث: أن لا يقابل النعمة بالمعصية وفي هذا المعنى أحاديث؛ ومن أسوأ ما يقع من العبد أن يستعمل نعمة الله في معصيته.

والرابع: أن يقابل إحسان الله إليه بإحسان العمل، فيعمل عملا صالحا يشكر به ربه على نعمته، ولما كُلّم النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته وقيامه وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»، وقال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

فمن حقق هذه الأمور فإنه يرجى له أن يكون من الشاكرين، وأن يُفتح له بسبب شكره ما لم يكن يخطر على قلبه، أو يناله عمله، أو يبلغه أمله.

• الفرق بين الحمد والشكر

بين الشكر والحمد فرق وجهي؛ فالشكر أعمّ من الحمد من وجه، والحمد أعمّ من الشكر من وجه آخر.

- فالشكر يكون بالقلب واللسان والعمل؛ الحمد يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه يكون الشكر أعمّ من الحمد.

- والحمد يكون على ما أحسن به المحمود، وعلى ما اتّصف به من صفات حسنة يُحمد عليها، والشكر أخصّ لأنه في مقابلة النعمة والإحسان؛ فمن هذا الوجه يكون الحمد أعمّ من الشكر.

وقد قال بهذا التفريق شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في مواضع من كتبهما، ومن أجمع العبارات في ذلك قول ابن القيّم رحمه الله في مدارج السالكين: (**والفرق بينهما**: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافا، وبالجوارح طاعة وانقيادا. **ومتعلقه**: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه. وهو المحمود عليها. كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس. فإن الشكر يقع بالجوارح. والحمد يقع بالقلب واللسان)ا.هـ.

وقد ذهب ابن جرير الطبري والمبرّد وجماعة من أهل العلم إلى أن الحمد يطلق في موضع الشكر، والشكر يطلق في موضع الحمد، وأنه لا فرق بينهما في ذلك.

وهذا القول إنما يصحّ فيما يشترك فيه الحمد والشكر؛ وهو ما يكون بالقلب واللسان في مقابل الإحسان.

• الأسباب المعينة على الشكر

من الأسباب المعينة على الشكر:

١. **الدعاء**، ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] وقد كان من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إنّي أسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك**»، «**ربّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»، «**ربّ اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً**».

٢. **مطالعة النعم وشهود منّة الله تعالى بها؛** فكثرة مطالعة المنن تورث الشكر.

٣. **التفكّر في حال من حُرم تلك النّعم،** ولو شاء الله لجعله مثلهم؛ فيكون في قلبه من التعلّق بالله وخشية زوال تلك النعم ما يورثه السعي لشكرها، وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك**» رواه مسلم من حديث ابن عمر.

٤. **البصيرة بأنّ النعم تُحفظ بالشكر،** وتمحق بالكفر والبطر كما قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

٥. **نزع حجاب الاستحقاق،** وهو بلاء أهل الغفلة والكبر، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠]، ومن اعتقد أنّ النعم التي منَّ الله بها عليه مستحقّة له، لم يجد في نفسه ما يدفعه لشكرها.

وهذا الحجاب يُنزع بالبصيرة بأنّ كلّ نعمة أنعمها الله على عبده فله فيها الفضل والمنّة، وهي إما إنعام فتنة وابتلاء وإما إنعام منّة واجتباء، وكلاهما فضل من الله تعالى.

٦. **صحبة الشاكرين،** فإن صحبتهم مباركة، يتذكّر بها المرء نعم ربّه فيثني عليه ويشكره مع الشاكرين، ويجد فيهم أسوة حسنة فترتاض نفسه للشكر وتعتاده.

٧. **كثرة الثناء على الله تعالى وحمده؛** فإنّ ذلك يسلكه في سبيل الشاكرين الحامدين.

٨. **سبب دقيق يُغفل عنه،** وهو شُكر من أولى إليك معروفاً من الناس؛ وفي الحديث الصحيح «**لا يشكر اللهَ من لا يشكر الناس**» رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة مرفوعاً.

وذلك أنّ الشكر من عمل القلب وخُلق النفس؛ فمن أمارات اتّصاف المرء بالشكر أن يَشكر من يصنع إليه معروفاً من الناس، وشكره أن يكافئه أو يثني عليه بما صنع أو يدعو له.

وفي حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من صُنع إليه معروف فليجزِه، فإن لم يجد ما يجزِه فليثن عليه، فإنه إذا أثنى فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلَّى بما لم يُعْطَ، فكأنما لبس ثوبَي زور**» رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داوود والترمذي وغيرهم من طرق عن جابر رضي الله عنه.

ومن كان يستمرئ قبول الإحسان من الناس ولا يشكرهم فهو دليل بيّن على تقصيره في الشكر الواجب لله تعالى؛ فإنّ نفس الشكور لا تقبل الإحسان بلا شكر.

تمّت دروس دورة أعمال القلوب، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

اللهمّ تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم، واغفر لنا إنّك أنت الغفور الرحيم، واهدنا برحمتك الصراط المستقيم.

(اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا

ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا

ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرياض

٢٨ ذو القعدة ١٤٤٠هـ

وقد راجعتها - بفضل الله تعالى - وأضفت إليها مباحث يسيرة في شهر رمضان من عام ١٤٤٣هـ.

قائمة المراجع

الفهرس

الموضوع	الصفحة
التمهيد	٥
الباب الأول: مقدمات في علم السلوك	٧
• فضل علم السلوك	٧
• المراد بالسلوك	٨
• غاية علم السلوك	٩
• أصول علم السلوك	٩
• فروع علم السلوك	١٠
• عناية العلماء بعلم السلوك	١١
• طرق المحدّثين في التأليف في علم السلوك	١٣
• طبقات أئمة علم السلوك	١٤
• ألقاب أئمة علم السلوك	١٩
• معنى الأبدال	١٩
الباب الثاني: بيان أصول جامعة لأعمال القلوب	٢١
• طرق بيان أهمية أعمال القلوب	٢١
• الغاية من خلقنا هي عبادة الله وحده لا شريك له	٢٢
• بيان معنى العبادة	٢٥
• بيان الفرق بين العبادة الكونية والعبادة الشرعية	٣٢
• التذكير بالعهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا	٣٤
• بيان درجات تحقيق العبودية لله تعالى	٣٨

• بيان حقيقة الهدى والرشاد	٤٨
الباب الثالث: بيان أحوال القلوب	**٥١**
• تمهيد	٥١
• بيان أنواع القلوب	٥٣
• حياة القلوب وموتها	٥٦
• صحة القلوب ومرضها	٦٤
• استنارة القلوب وظلمتها	٦٧
• لين القلوب وقسوتها	٧١
• صلاح القلوب وفسادها	٧٩
• زكاة القلوب وطهارتها وطمأنينتها	٨١
• تقلّب القلوب وتصرّفها	٨٤
الباب الرابع: أدواء القلوب وشفاؤها	**٩١**
• تمهيد	٩١
• الجهل والعِيّ	٩٢
• الشك والارتياب	٩٥
• الغلّ والحسد	٩٥
• الحرص والشحّ	٩٩
• العُجب والكِبر	١٠٩
• الشهوة والغضب	١٢٢
• الغفلة والقسوة	١٣٩
• الهوى والوهن	١٤٧
شفاء القلوب	١٥٤

الباب الخامس: في المحبة، وبيان أنها أصل القلوب	**١٥٧**
• معنى المحبة	١٥٧
• المحبة أصل الدين وأصل أعمال القلوب	١٥٨
• المحبة الصحيحة	١٦٠
• المحبة الباطلة	١٦١
• درجات محبة الله تعالى	١٧١
• درجات مخالفة مقتضى محبة الله تعالى	١٧٤
• درجات التقديم على محبة الله ورسوله	١٧٧
• أسباب محبة الله عز وجل	١٧٩
• دلائل المحبة وآثارها	١٨١
• آداب المحبة	١٨٦
• الفرق بين المحبة المحمودة والمحبة المذمومة	١٨٦
• الفرق بين حُبّ العبادة وغيره	١٨٧
الباب السادس: الخوف والرجاء	**١٨٩**
• الخوف	١٩٠
– منزلة الخوف	١٩٠
– أنواع الخوف	١٩٢
– موجِبات الخوف من الله تعالى	١٩٦
– آثار الخوف من الله وثمراته	١٩٩
– الفرق بين خوف العبادة وغيره	٢٠١
– أقسام الناس في الخوف من الله	٢٠٤
• الرجاء	٢٠٦

- حقيقة الرجاء	٢٠٦
الفرق بين الرجاء والتمني المذموم	٢٠٦
- منزلة الرجاء	٢٠٨
- أقسام الرجاء	٢١١
• الجمع بين المحبة والخوف والرجاء	٢١٣
• أيهما يغلّب الرجاء أم الخوف؟	٢١٩
الباب السابع: الصدق والإخلاص	**٢٢٥**
• تمهيد	٢٢٥
• الصدق	٢٢٩
- معنى الصدق	٢٢٩
- فضل الصدق	٢٣٥
- بم يُنال الصدق؟	٢٣٨
- تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾	٢٣٩
- أحوال الصادقين	٢٤٤
- صفات الصادقين وهديهم وسمتهم	٢٤٦
- ما لا يقدح في الصدق	٢٤٩
• الإخلاص	٢٥٠
- معنى الإخلاص	٢٥٠
- تفاضل المخلصين في إخلاصهم	٢٥١
- فضائل الإخلاص	٢٥٢
- الأسباب المعينة على تحقيق الإخلاص	٢٥٦
- عاقبة الإخلاص	٢٥٧

الباب الثامن: التوكل والاستعانة	٢٦١
• تمهيد	٢٦١
• التوكل	٢٦٢
– معنى التوكل	٢٦٢
– منزلة التوكل على الله	٢٦٣
– ثواب المتوكل	٢٦٣
– أنواع التوكل	٢٦٥
– تحقيق التوكل	٢٦٧
– أقسام الناس في التوكل	٢٧١
– أحكام المخالفين في التوكل	٢٧٣
• الاستعانة	٢٧٣
– معنى الاستعانة	٢٧٣
– درجات الناس في العبادة والاستعانة	٢٧٧
– تحقيق الاستعانة	٢٧٨
– أنواع الاستعانة بالله	٢٧٩
– أقسام الاستعانة وأحكامها	٢٨١
الباب التاسع: الخشية والإنابة	٢٨٥
• تمهيد	٢٨٥
• الخشية	٢٩٠
– معنى الخشية	٢٩٠
– إخلاص الخشية	٢٩٠

– حقيقة الخشية	٢٩١
– فضائل الخشية	٢٩١
– أسباب الخشية	٢٩٨
– عناية السلف الصالح بالخشية	٣٠٠
– درجات الخشية	٣٠٤
– تفاضل أهل الخشية	٣٠٥
– ثمرات الخشية	٣٠٥
–أحكام خشية غير الله تعالى	٣٠٦
• الإنابة	٣٠٨
– معنى الإنابة	٣٠٨
– أسباب الإنابة	٣٠٩
– ثمرات الإنابة	٣١٠
– علامات الإنابة	٣١٢
– درجات الإنابة	٣١٦
– التوكل والإنابة	٣١٨
– تعرض الشيطان لأهل الإنابة	٣١٨
الباب العاشر: الزهد والورع	**٣٢١**
• تمهيد	٣٢١
– الفرق بين الزهد والورع	٣٢١
• الزهد	٣٢٢
– معنى الزهد	٣٢٢
– حقيقة الزهد	٣٢٥

- هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد	٣٢٨
أحاديث لا تصح في الزهد	٣٣١
- عناية السلف الصالح بالزهد	٣٣٢
- فضائل الزهد	٣٣٤
- درجات الزهد	٣٣٥
- هل يسمّى ترك الحرام زُهدا؟	٣٤٠
- مذاهب العلماء في الزهد	٣٤١
- التحذير من الزهد الفاسد وبيان علل الزهد	٣٥٠
- الأسباب المعينة على الزهد	٣٥٥
• الورع	٣٥٨
- معنى الورع	٣٥٨
- هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الورع	٣٥٩
- عناية السلف رضي الله عنهم بالورع	٣٦١
- فضائل الورع	٣٦٥
- درجات الورع	٣٦٧
- فقه الورع	٣٧٠
- مذاهب العلماء في الورع	٣٧٣
- علل الورع	٣٧٥
- الأسباب المعينة على تحصيل الورع	٣٨٠
الباب الحادي عشر: الصبر والشكر	**٣٨٣**
• تمهيد	٣٨٣
• الصبر	٣٨٥

– معنى الصبر	٣٨٥
– منزلة الصبر	٣٨٧
– أنواع الصبر	٣٨٩
– حكم الصبر	٣٩٢
– صبر النبي صلى الله عليه وسلم	٣٩٣
– عناية السلف الصالح رضي الله عنهم بالصبر	٣٩٥
– ما لا يقدح في الصبر	٣٩٨
– حاجة السالك إلى الصبر	٣٩٨
– سؤال الصبر	٤٠٠
– الأسباب المعينة على الصبر	٤٠١
– أيهما أفضل: المبتلى الصابر أم المعافى الشاكر	٤٠٤
• الشكر	٤٠٥
– معنى الشكر	٤٠٥
– منزلة الشكر وفضائله	٤٠٦
– درجات الشكر	٤٠٩
– مراتب الشكر	٤١٠
– الفرق بين الحمد والشكر	٤١٢
– الأسباب المعينة على الشكر	٤١٣
الفهرس	٤١٧

معهد الإعداد العلمي
WWW.EADADY.COM

أعمال القلوب

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري